

جَهْرُ خَطِّ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَ الْعَرَبِ فِي الزَّاهِرَةِ

الجزء الثاني

النصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صِفْوَت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بمبوت-لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فها هو ذا « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأصمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافردواعى الخطابة فى هذا العصر ، ونفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميظ اللثام عن خفايا مراميها ، وغواءض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافيًا مرضيًا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى ونعم النصير ؟

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مأخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على - القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : » الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : » الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : » الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : » الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : » الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : للشريف الرضى : » الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : » الأول

- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : » السادس - السابع - الثامن - التاسع
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : » الثالث - الرابع
- مروج الذهب : للمسعودي : » الثاني
- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : » الأول - الثاني
- معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثالث
- أشد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : » الثالث
- النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : » الأول
- لابن تفرى بردى :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : » الأول - الثاني
- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : » الأول
- نفع الطيب ، للمقرئ : » الأول
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الأومى : » الثالث
- مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : » الثاني
- محمد البيهقي العلوي
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي
- » » » » : لابن عبد الحكم
- شرح العميون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري
- أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر المكي
- الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضائى

إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

العصر الأموي

الخطب

خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه^(١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاذ فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ :

ص ٤) أنه توفي سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُدْرِكُه أحد يكون بعده ، والله إن كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَبِيعُهُ
فِي السَّرِيَّةِ^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء
إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنفته العبرة فبكى ،
وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج
المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين
افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ حَسَنَةً نَّزَّلْهُ فِيهَا حُسْنًا) ،
فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت » .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ،
فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل
من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجم : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبثه الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يثوبون ويحتمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فليست أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهقنا على السير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا راحم الله إلى معسكرهم بِالْخَيْلَةِ ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وترَوْا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُصَرِّ الدِّين أَلَسِنَتُهُمْ كَالْخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(٢) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفي الدعة : أي وقت الدعة : أي الخفض والسلم .

فَرَوَّاعُونَ كَالثَعَالِبِ ، أَمَا تَخَافُونَ مَقْتَ اللَّهِ ! وَلَا عَيْنَهَا وَعَارَهَا^(١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أَصَابَ اللَّهُ بِكَ الْمَرَّاشِدَ ، وَجَنَّبَكَ الْمَسْكَارَةَ ، وَوَقَّفَكَ لِمَا تَحْمَدُ وَرُودَهُ وَصُدُورَهُ ، قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَاتِكَ ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى أَمْرِكَ ، وَسَمِعْنَا لَكَ ، وَأَطَعْنَاكَ فِيمَا قُلْتَ وَمَا رَأَيْتَ ، وَهَذَا وَجَّهِي إِلَى مَعْسُكِرِي ، فَن أَحِبُّ أَنْ يُؤَافِقَنِي قَلِيُوفٍ » . ثم مضى لوجهه ، إِلَى النَّخِيلَةِ .

وَقَامَ ثَلَاثَةَ آخِرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ ، فَأَتَبَوْا النَّاسَ وَلَا مَوْمَ وَحِرْضُومَ ، وَكَلُّوا الْحَسَنَ بِمِثْلِ كَلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : صَدَقْتُمْ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، مَا زِلْتُمْ أَعْرِفَكُمُ بِصَدَقِ النِّيَّةِ وَالْوَفَاءِ وَالْقَبُولِ وَالْمُودَةِ الصَّحِيحَةِ ، فَجَزَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا ، ثُمَّ نَزَلَ ، وَخَرَجَ النَّاسُ فَمَعْسُكَرُوا وَنَشِطُوا لِلْخُرُوجِ ، وَسَارَ الْحَسَنُ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ ، وَعِدَّةٌ حَسَنَةٌ .

(شرح ابن أبي الحديد م : : ص ١٤)

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط^(٢) ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَادَى فِي النَّاسِ : الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ ، فَاجْتَمِعُوا ، فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا حَمِدَهُ حَامِدٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كُلَّمَا شَهِدَ لَهُ شَاهِدٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ ، وَأَتَمَّنَّهُ عَلَى الْوَحْيِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنِّهِ ، وَأَنَا أَنْصَحُ خَلْقَهُ خَلْقَهُ ، وَمَا أَصْبَحْتُ مُحْتَمِلًا عَلَى مُسْلِمٍ ضَعِيفَةٍ ، وَلَا مُرِيدًا لَهُ بِسُوءٍ وَلَا غَائِلَةً^(٣) ، أَلَا وَإِنْ مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرَ لَكُمْ مِمَّا تَحِبُّونَ فِي الْفِرْقَةِ ، أَلَا وَإِنِّي نَازِلٌ لَكُمْ خَيْرًا مِنْ نَظَرِكُمْ

(١) أى عار فعلتكم هذه : ومعى تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مادعاهم إليه ، وفى الأصل : «وعارتها»

وإراء محرفا إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمداين .

(٣) الغائلة : الشر والفساد واللاهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فأنهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطَرَفَه^(١) عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضغفوه لما تكلم .

فلما مرّ فى مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بني أسد يقال له جراح بن سنان ، وبیده مِمْوَل^(٣) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت ! وطعنه بالممول ، فوقعت فى فخذه فشقتة^(٤) ، حتى بلغت أُرْبَيْتَه^(٥) ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرا جميعا إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٤)

ه - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشتراها - ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخطى بنفسى عنكم ثلاث : قَتَلُكُمْ أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خز مريع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن موضع هناك .

(٣) الممول : القماس العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فذكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدو عيئه للناس^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وحقق دماءكم بأخونا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسلمون من سلمت ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ أَدْرَى أَعْلَهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضرمًا^(٢) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

وأنباء نجباء الأنبياء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالهأفة (شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذى توحد فى ملكه ، وتفرد فى ربوبيته ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعهُ عن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحققَ دماءَ آخركم ، قبلأونا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربَّ عَلَىَّ كان أعلم بعلَى حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثلهُ ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فبهيات هيبات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم فى بدر وأخوانها ، جرَّعكم رَنَقاً ^(٢) ، وسَقَاكُمْ عِلْقاً ^(٣) ، وأذلَّ رقابكم ، وأشرقكم بِرِيقِكُمْ ، فليستم بملومين على بفضهِ ، وإيم الله لا ترى أمةٌ محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمة ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدُّروا عنها حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فعند الله أحنسبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء دَعَتِكُمْ ، وَحَيْفُ ^(٦) حَكَمِكُمْ ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مراى الله ، صائب على أعداء الله ، نَكَالٌ عَلَى فَجَّار قريش ، لم يزل آخذاً بمحاجرهما ، جاثماً على أنفاسها ، ليس باللمومة فى أمر الله ، ولا بالسَّروقة لمال الله ، ولا بالفَرْوَقَةَ ^(٧) فى حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابهُ ، وقاده فاتبعهُ ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِلٌ أو كَاد ، وأصاب متثبت أو كَاد ، ماذا أردتُ من

خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٠)

(١) البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كمدل وكشف وجيل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبية فى الماء تمس الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم : (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلاح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهولى حلال - لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أنزاني ، فانتلستم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجّون ، ولكنى فانتلستم لأنأمركم عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شَرَطْتُهُ فمحت قديمى هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزُوهم غزَوكم » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذّاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبى عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأُمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَةُ بن ربيعة ،

(١) إرجاعهم وردهم .

وجدتني خديجة ، وجدتكَ قُتَيْلَةَ ، فلعن الله أئملنا ذكرًا ، والأملنا حَسَبًا ، وشرنا قديمًا وحديثًا ، وأقدمنا كفرًا ونفاقًا »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصالح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعًا إلى الشام ، أتى سليمان ابن صُرْد - وكان غائبًا عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَعَجَّبْنَا لا ينقضى من بيعتك معاويةَ ومعك مائة ألفِ مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ القطاء ، مع مثاهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ، ولا حظًا من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتابًا ، وأشهدت عليه شهودًا من أهل المشرق والمغرب ، أن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، واسكنه أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ، ثم قال ، وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطًا ، ووعدتهم عِدَاتٍ ، ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفقتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، والله ما عني بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد الحرب جذعة^(١) ، وأذن لى أشخص إلى الكوفة ،

(١) هى فى الأصل جذعة ، وصوابها جذعة : أى فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وَأَنْبِذَ إِلَيْهِ^(١) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

ثم سكت ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان
ابن صرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، وَمَنْ تَعْرِفُهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ لَنَا ، وَقَدْ
فَهِمْتُ مَا ذَكَّرْتُمْ ، وَلَوْ كُنْتُ بِالْحَزْمِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ، وَالدُّنْيَا أَعْمَلُ وَأَنْصَبُ ، مَا كَانَ
مَعَاوِيَةَ بِأَبْأَسَ مِنِّي وَأَشَدَّ شَكِيمَةً ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ غَيْرَ مَا رَأَيْتُمْ ، لَكِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَيُّكُمْ أَنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا رَأَيْتُمْ إِلَّا حَقَّنَ دِمَائَكُمْ ، وَإِصْلَاحَ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ،
وَارْضُوا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَصَلُّوا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْزَمُوا بِيُوتَكُمْ ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، حَتَّى يَسْتَرْجِعَ بَرٌّ
أَوْ يُسْتَرَّاحَ مِنْ فَاجِرٍ ، مَعَ أَنَّ أَبِي كَانَ يَحْدِثُنِي أَنَّ مَعَاوِيَةَ سَيَلِّي الْأَمْرَ ، فَوَاللَّهِ لَوْ سَرْنَا إِلَيْهِ
بِالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ مَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ سَيُظْهِرُ^(٢) ، إِنَّ اللَّهَ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ،
وَأَمَّا قَوْلُكَ يَا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ تَذَلُّوا وَتُعَافُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَعَزَّزُوا وَتُقْتَلُوا ،
فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْنَا حَقَّنَا فِي عَافِيَةٍ ، قَبِلْنَا وَسَأَلْنَا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَإِنْ صَرَفَهُ عَنَّا رَضِينَا
وَسَأَلْنَا اللَّهَ أَنْ يَبَارِكَ فِي صَرْفِهِ عَنَّا ، فَلْيَكُنْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ جَلِيسًا^(٣) مِنْ أَحْلَاسِ بَيْتِهِ ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، فعلمت منهم النقص للمهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقص ، حتى تعلمهم
أنك نقصت المهد ، فتكونوا في علم النقص مستوين ، ثم أوقع بهم . (٢) يطلب .

(٣) المجلس : بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : للذي لا يرجع البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة
كن حلما من أحلاس بيتك حتى تأتيلك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

مادام معاوية حيًّا ، فَإِنَّ يَهْلِكَ وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ أَحْيَاءُ ، سَأَلْنَا اللَّهَ الْعَزِيمَةَ عَلَى رِشْدِنَا ، وَالْمَعُونَةَ عَلَى أَمْرِنَا ، وَأَنْ لَا يَكِلِنَا إِلَى أَنْفُسِنَا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةُ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون .
وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والحوال عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئُنَا تَأْوِيلُهُ ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مَقْرُونَةً^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهاتف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياته الذين قال لهم : (لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَائِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي

(١) العترة : وهط الرجل وعشيرته الأدنون . (٢) الثقل : كل شيء نفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) فَتَلْقَوْنَ الرِّمَاحَ أَزْرًا^(١) ، وَلِلسَّيْفِ جَزَرًا^(٢) ، وَلِلْعُمْدِ حَقًّا^(٣) ،
وَلِلسَّهْمِ غَرَضًا ، ثُمَّ : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٢)

١٣ - خطبة أخرى له

وَمِنْ خُطْبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

« اَعْلَمُوا أَنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ ، وَالْوَقَارَ مَوْدَةٌ ، وَالصَّلَاةَ نِعْمَةً ، وَالْإِكْثَارَ صَلَفٌ^(٤) ،
وَالْمَجَلَّةَ سَفَهٌ ، وَالسَّفَهَ ضَعْفٌ ، وَالْقَلْقَ وَرْطَةٌ ، وَجَالِسَةُ أَهْلِ الدَّنَاءَةِ شَيْنٌ ، وَمُخَالَطَةُ
أَهْلِ الْفُسُوقِ رِيبَةٌ » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأزر: جمع إزار، وهو الملحفة وكل ماواراك وسترك: أى فتكونون أجربة الرماح تغيب فأبدانكم وتستر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر: أى تركيبكم الرماح وتعاونكم ، والمراد تطعنون وتضربون بها والأول أوجه . (٢) أى قطعاً . (٣) عمدة بفتحيتين ، وعمد بضميتين : جمع عمود ، وهى من الآلات التى كانت تستعمل فى القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الطرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط ، وعُتْبة بن
أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام
قوارص^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحمأ أباه
وَذِكْرَهُ ، وقال فَصْدُقْ ، وأمر فأطيع ، وَخَفَقَتْ^(٢) له النعالُ ، وإن ذلك لَرَأْفَةٌ إلى ما هو
أعظم منه ، ولا يزال يَبْلُغُنَا عنه ما يسوءنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا: ابعث إليهِ
فليحضر لِنَسَبِهِ ونسب أباه ونعيِّره ونوبِّخهُ ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرِّره بذلك ،
ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا:
عزمنَّا عليك يا أمير المؤمنين لَتَفْعَلَنَّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسا
عندي إلا خفت مقامه وَعَيْبَهُ لِي ، قالوا ابعث إليهِ على كل حال . قال : إن بعثت إليهِ
لأنصفته منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطلهُ على حقنا ، أو يُرْجى قوله
على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليهِ لآمرته أن يتكلم بلسانه كُله . قالوا :
مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتهموني وبغتم إليهِ وأيتم إلا ذلك ، فلا تَمَرَّضُوا^(٣) له

(١) القوارص من الكلام: التي تنفصك وتؤلك . (٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب ، ولا يلتصق بهم العار ، ولكن اذفوه بحجره ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وكرة خلافة الخلفاء من قبله ؛ فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسيام . فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : لأجارية ابغينى ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرا^(١) بك في نحورهم ، وأستمعن بك عليهم ، فأكفنيهم كيف شئت ، وأتّى شئت ، بحول منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وخطر^(٣)وا الفحول ، بغيا في أنفسهم وعُلوا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني . فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأيهما تقرّ وأيهما تنكر ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمنّهم من بنى عبدالمطلب ، ومالي أن أكون مستوحشا منك أو منهم ؟ إن وليي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(٤) ومنى ، وإنما دعوناك لنقرر أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

(١) أدفع . (٢) الارتداد : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعها واهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعه أخرى خطرانا (بالتحريك) وخطر الفحل بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايحه مُكْرَهًا ، وشَرِك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يميّز بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ، يُسَخَّر منك ، ويُهْزَأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنُسَبِّحَ وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك فى أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثمٌ من الله ، ولا عيبٌ من الناس ؛ فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أنا كذّابنا فى شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبى معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبى معيط فقال :

« يا بنى هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعَرَفَ حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصَّهرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حُجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لِبَنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريش لقريش ، لِسَفِكِهِ الدِّمَائِهَا ، وَقَطْعِهِ لِأَرْحَامِهَا ،
حَوِيلَ السِّيفِ وَاللِّسَانِ ، يَقْتُلُ الْحَيَّ وَيُعِيبُ الْمَيِّتَ ، وَإِنَّكَ مِنْ قَتَلِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ قَاتِلُوكَ بِهِ .
وَأَمَّا رَجَاؤُكَ الْخِلَافَةَ فَلَسْتُ فِي زَنْدِهَا ^(١) قَادِحًا ، وَلَا فِي مِيزَانِهَا رَاجِحًا ، وَإِنَّكُمْ يَا بَنِي
هَاشِمٍ قَتَلْتُمْ عُثْمَانَ ، وَإِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ نَقْتُلَكَ وَأَخَاكَ بِهِ ، فَأَمَّا أَبُوكَ فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ أَمْرَهُ ،
وَأَقَادَ ^(٢) مِنْهُ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَوَاللَّهِ مَا عَلَيْنَا لَوْ قَتَلْنَاكَ بِعُثْمَانَ إِنْهُمْ وَلَا عُذْوَانِ » .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبه

ثم تكلم المغيرة بن شعبه ، فشم عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم
يميل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى
الله عليه وآله ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدَ يَا مَعَاوِيَةَ ، فَا هَؤُلَاءِ شَتَمُونِي ، وَلَكِنَّكَ شَتَمْتَنِي ، فُحْشًا أَلِفْتَهُ ، وَسُوءَ
رَأْيٍ عُرِفَتْ بِهِ ، وَخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ ، وَبَنِيَا عَلَيْنَا ، عَدَاوَةَ مَنَّاكَ لِلْحَمْدِ وَأَهْلِهِ ، وَلَكِنْ
اسْمَعِ يَا مَعَاوِيَةَ واسمعوا ، فَلَا قَوْلَنَ فَيْكَ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا
الرُّهْطُ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي شَتَمْتُمُوهُ مِنْذُ الْيَوْمِ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ ^(٣) كَاتِبَتَهُمَا ، وَأَنْتَ يَا مَعَاوِيَةَ

(١) للزند : العود الذي يفتح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت

المقدس قائلًا لليهود ، فصل إلى ستة أو سبعة عشر شهرًا ثم حول .

بهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللاتَ والعزى^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح^(٢) وبيعة الرضوان^(٣) ، وأنت يامعاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تُسرُّون الكفر وتُظهرون الإسلام ، وتَسْمَلون بالأموال ، وأنشدكم الله أَلَسَمَ تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أُحُد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويُفْلِح^(٤) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أأذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » أنسى يامعاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك - لما تمَّ أن يُسلم - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّنْ يَوْمًا فَيَفْضَحَنَا بَعْدَ الدِّينِ بِيَذْرِ أَصْبَحُوا مِرْقًا^(٥)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ نَالَهُمْ وَحَنَظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

(٢) روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية ممن أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) المزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أى لشدة الحزن والأسى .

لَا تَكُنَّ إِلَى أَمْرِ تُكَلِّفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرَفَا^(١)
فَلَمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْمُدَاةِ لَقَدْ حَدَا بَنُ حَرْبٍ عَنِ الْعَزْمِ إِذَا قَرِفاً^(٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أكبر مما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً حرّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أ كابر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالراية ؛ فاستنزهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبرٍ مثلهما ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جَذِيمَةَ^(٣) فبعث إليك ونهّمك^(٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) الخرق محركة : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والحقق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « غزيمة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضموا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضموه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي بيلغة الكلب ، (والميلغة بالكسر : الإناء يلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسن ، ثم استقبل للقبلة قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب اللغة : « نهّمه : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا يستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وسفه، وشتمه وكذّبه وتوعده. وهم أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه. والثانية يوم العير^(١) إذ مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جاثية من الشام. فطردها أبو سفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادى أعلُّ هبل^(٣) مراراً فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولعنه المسلمون. والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والمذبح ممكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحديبية. فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله وأله أبا سفيان، ولعن القادة والأنباع، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يا رسول الله أفأيرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأنباع. وأما القادة فلا يفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر. والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنفروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان. فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من غير^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أي اعل وانتصر يا هبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدى ما يهدى إلى مكة، ومعكوفاً أي محبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أي مكانه الذي ينحر فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم، إذا التقى فيه بلا، وليس الذي بلن.

(٦) فجور: ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من هذيل (بالتحريك) فسبيت:

فاشترها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغياً، ثم أعتقها، فوقع عليها أبو لب بن عبد المطلب، =

وَسَفَاحٍ ففتحناكم فيك أربعة من قریش . فطلب عليك جزأها . الأهم حسباء ، وأخبرهم مَنْصِبًا . ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتَر^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد . وهجوته وأذيته بمكة ، وكذته كيدك كله . وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأني بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا وأكذبك واشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي حسدا لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمية بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبوسفيان بن حرب ، والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحككت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ، وذلك لأن العاص كان يتفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبوسفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الثمائل

ويقال إنه جمل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عذرة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشترأها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ . (ورأي فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشاني المبغض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أبتَر عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المتقطع من كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتَر لأنك .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأت قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهديا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائنين ، وأبي النجاشي أن يخفّر ذمته .

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبوا البحر إلى الحبشة كما قدمنا — وكان عمارة جميلا وسيا تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته — فلما صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبلي ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله مالا يُحصَى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنْتَ سَعَرْتَ^(٢) عليه الدنيا نارا ، ثم لَحِقْتَ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأَتْ قَرْحَةً أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله مانصرت عثمان حياً ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألسْتَ القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السيرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ

= فامتنت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يقول « منجاف السفينة هوسكانها الذي تعدل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزل الحبشة ، فلما اطمأن بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ماعرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعا بمثل هذا ، ثم سكنت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة أخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن يتفخن في إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا .

(١) سمر الثار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلائفة عثمان واليا على مصر — منذ خلافة عمر ابن الخطاب — ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع — خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يظعن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لأتقى الراعى فأعرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرا فندبت) .

قلت : ذَرَيْنِي فَإِنِّي أَمْرُ أُرِيدُ النَّجَاشِيَّ فِي جَعْفَرٍ
لِأَكْوَابِهِ عِنْدَهُ كَيْفَةً أَقِيمُ بِهَا نَخْوَةَ الْأَصْعَرِ (١)
وَسَانِي أَحَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِدًا وَلَوْ كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ (٢)
وَلَا أَتْنِي عَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَمَا سَطَعْتُ فِي الْغَيْبِ وَالْمَحْضَرِ
فَإِنْ قِيلَ الْعَتَبُ مِنِّي لَهُ وَإِلَّا لَوَيْتُ لَهُ مِشْفَرِي (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الحُرِّ (٤) .
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الصعر محرّكة : الميل في الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خده تصعيرا : أماله من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعني عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أي في صعوبة الوصول إليه . (٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولّى عليها الوليد بن عقبة — وهو أخوه لأمه — ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة والتفت إلى من يقتنون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحده فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه فاشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلبده به .

(٥) القتل صبْرًا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا أأكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي ابن خلف الجمحي ، وكان صديقا له ، فقال ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطعاً عنقه ، وتبرق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله -

وصي علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت يا علي ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنَّ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويحك يا وليد ؟ مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في علي وفي الوليد قرأنا ^(٢)
فتبينوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعلي مَبُوءاً إيماناً ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عمرك الله) كمن كان فاسقاً خوَّانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي إلى الحساب عياناً
فعلى يُجْزَى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هواناً
رب جد لعقبة بن أبان لابس في بلادنا تَبَاناً ^(٤)

= صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (اتَّقَتْلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحبسهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم يقتلهم ، فأثرو متكررين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) سهل من « قرأنا » . (٣) فتبوا : سهل من « فتبوا » .

(٤) أهان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للداحين .

وما أنت وقريش ! ، إنما أنت عِلْجٌ من أهل صَفُورِيَّة^(١) ، واقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن من تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بِمَحْصِفٍ^(٢) فأجيبك ، ولا عاقلٍ فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرْجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رهوس الأثهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت اللّحيانِ إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يَا لَرَّ جَالٍ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلِسَبَّةٍ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ^(٣)

نُبِئْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ جِنْسٌ لَتِمِ الْأَصْلُ مِنْ لِحْيَانٍ^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفضله ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم تقتل فاضحك . وكيف ألومك كلّي بفض عليّ ، وقد قتلَ خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدره ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حَنْظَلَةَ في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخلق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » فقالت النخلة : وهل علمتُ بكِ واقعةً كلّي ، فأعلم بكِ طائرةً عني ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، اعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (يضم الهمة والدال وتشديد النون) ، والمليج : الرجل من كفار العجم .
وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفورى . ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بنى أمية لصلبه (شرح ابن أبي الحديد ج ١ : ص ١٥٤) .
(٢) محصف : ككرم استحکم عقله فهو محصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل : امرأته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن مدركة .

نُفِرْكُمْ عَلَيْنَا بِالْإِمَارَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا^(١) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَاَهَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن فنفذ ثوبه فانصرف ؛ فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَهِدْتَ قَوْلَهُ فِيَّ وَقَذَفَهُ أُمِّي بِالزَّنا ، وَأَنَا مُطَالِبٌ لَهُ بِحَدِّ الْقَذْفِ .

فقال معاوية : خُلِّ عَنْهُ ، لِأَجْزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَتَرَكَهُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : قَدْ أَنْبَأْتُكُمْ أَنَّهُ مِنْ لَا تُطَاقُ عَارِضَتُهُ ، وَنَهَيْتُكُمْ أَنْ تَسُبُّوهُ فَمَصِيتُمُونِي ، وَاللَّهِ مَا قَامَ حَتَّى أَغْلَمَ عَلَى الْبَيْتِ ، قَوْمُوا عَنِّي ؟ فَلَقَدْ فَضَحَكُمْ اللَّهُ وَأَخْزَاكُمْ بِتَرْكِكُمْ الْحَزْمَ ، وَعُدُولِكُمْ عَنِ رَأْيِ النَّاصِحِ الْمَشْفُوقِ ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لَمَامَاتِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَدْخَلَهُ قَبْرَهُ الْحُسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ^(٢) وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَبْرِهِ ، وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

« رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَأَنْ عَزَّتْ حَيَاتُكَ لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ ، وَلِنَعْمَ الرُّوحُ رُوحُ تَضَمَّنَهُ بِدَنِّكَ ، وَلِنَعْمَ الْجَسَدُ جَسَدُ تَضَمَّنَهُ كَفَنُكَ ، وَلِنَعْمَ الْكَفَنُ كَفَنُ تَضَمَّنَهُ لِحَدِّكَ ، وَكَيْفَ لَا تَسْكُونُ كَذَلِكَ ، وَأَنْتَ سَلِيلُ الْمُهْدَى ، وَخَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ^(٣) ؛ وَخَلْفُ

(١) أَيْ كَثَرْنَا ، أَمْرُهُ : كُنْصَرُهُ ، وَأَمْرُهُ : كَثَرُهُ ، (وَفِي قِرَاءَةِ : آمَرْنَا) أَوْ الْمَعْنَى أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَفَسَقُوا وَهَمَّوْا ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِمَارَةِ أَيْ جَعَلْنَاهُمْ أَمْرًا . (٢) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : وَالْحَنْفِيَّةُ أُمُّهُ ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي حَنْفِيَّةَ بْنِ لَجِيمٍ وَتَسْمَى خَوْلَةَ بِنْتُ جَعْفَرٍ ، وَتَوُفِّيَتْ سَنَةَ ٨١ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٨٣ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٧٢ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٧٣ . (٣) الْكِسَاءُ : هُوَ كِسَاءُ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يُضَافُونَ إِلَيْهِ ، فَيَقَالُ : « آلُ الْكِسَاءِ » وَهُمْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَعَلِيٌّ ، وَفَاطِمَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، قَالَ دِيكَ الْجَنِّ :

أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأملك فاطمة الزهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالى :

أعاذل إن كساء النقي كسانيه حي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحسى الموتى ويبرى الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهية الطير ، وباعنا على أنه ابن الله ونحن نباعيك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فزالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : (قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ) أى فى عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم - والمباهلة الملائنة - فقالوا يا أبا القاسم : بل ترجع فننظر فى أمرنا ثم تأتيناك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . . الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، واقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبيا قط ، فماش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أو خز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إني لارى وجوها أو سأأوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نتركك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فأسلموا ، يكن لكم مالمسلمين وعليكم ماهل المسلمين » فأبوا ، فقال : فإني أنا جزكم القتال ، فقالوا : مالنا بحرب الحرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لاتنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن تؤدى إليك فى كل عام أنى حلة ، ألفا فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درهما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولا اضطرم عليهم الوادى نارا ، ولا تستأصل الله نجران وأهلها ، حتى الطير على رهوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى =

وعك جعفر^(١) الطيار في جنة المأوى ، وغذتكَ أكف الحق ، ورُبِّيت في حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ، إنها غير شاكّة أن قد خير لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في المطر الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي رضي الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في المصاف والمنسوب للعالبي ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقتراها طيبة وباردا شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة البارحة ، فرأيت جعفرًا يطير مع الملائكة وجناحه مضرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . (٢) خار الله لك في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأنيه عن بيعه يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولى الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٤٠ هـ) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة^(١) ، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : « إن منى لا يعطى بيعته سرّاً ، ولا أراك تجترئ بها منى سرّاً ، دون أن تُظهرها على رموس الناس علانيةً ، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد - وكان يحب العافية - « فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس » .

فلما كان من القد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء ، فقال : « أَصْبَحُوا ثُمَّ تَرَوْنَ وَنَرَى » فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُلْحِظُوا عليه ، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيام من رجب سنة ٤٠ هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له :

(١) الرخصة : التسهيل .

٢٠ — نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنحّ بِتَبَعَتِكَ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك سجدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فنهزم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتسكون لأوّل الأسنة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأمّاً أضيعها دماً ، وأذلها أهلاً .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلّام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أضوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تسكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً » .

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موثقاً » . وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فأقدم علينا^(٤) — وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة —

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعبة مجركة ، وهى رأس الجبل .
(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيتهم » ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تملكون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكثبوا إليه و وإن خفتم الوهل (بالتحريك) =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمر مسلم بن عقيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج

مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبل الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفرع والفشل) فلا تغزوا الرجل من نفسه» قالوا «لا، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه» قال :
فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سلبان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة
ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى (وثب) على هذه الأمة
فابتزها أمرها ، وغصبها فيها ، وتأمّر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال
الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك
على الحق ، والنعمان بين بشير في قصر الإمارة ، لستنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد
بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه
أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أي
أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم في غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد :
فقد اخضر الجنب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جم بالفتح ، وهو معظم الماء
وطى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملائمة المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هائلا وسعيدا
(وهما هاني* بن هاني وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتيكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت
كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جللكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى
والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقى من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ،
فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت
في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق
والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرؤك منهم ،
والله أحذثك عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيبنَّكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلنَّ معكم
عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
فقام حبيب بن مظاهر الفقمسي فقال :

« رحمك الله قد قضيت مافي نفسك بواجزٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي
لا إله إلا هو طي مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ
الرجال ، وتُسْفَكُ الدماء ، وتُنْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال :
إني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليّ ، ولا أشتكم ، ولا أتحركُ شُ
بكم ، ولا آخذ بالفرقة^(١) ولا الظنَّة ولا التَّهمة ، ولكنكم ، إن أبديتم صفحتكم^(٢) لي
ونسكتكم بيمعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتت
قائمه في يدي ولولم يكن لي منكم ناصر ، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق
منكم أكثر ممن يرديه الباطلُ » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) الفرقة : التهمة ، وفرقة بالشيء : اتهامه .

(٢) أي جاهرتموني بالعداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا الغُشم^(١) ، إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُستَضْعَيْنَ » فقال : « أن أكون من المُستَضْعَيْنَ فى طاعة الله أحبُّ إلىَّ من أن أكون من الأعزِّينَ فى معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولأتى مصركم وثغركم^(٢) ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشفعة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبرَّ ، وَسَوَاطِي وسيفي على من ترك أمرى ، وخالف عهدى ، فليُتيق امرؤ على نفسه ، الصدق يُبْذَى عنك لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ العُرفاء^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار المختار ، حتى انتهى إلى دار هانىء بن عروة المُرَادِيّ لا يُدْأ به ، وَتَمَّى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هانىء فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال : لا والله لا أُجِيتُك به أبداً أنا أُجِيتُك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

(١) الغُشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سُمي لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ — خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتئنا وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَنْبَغِ النَّاسُ بِهِ ، فخرج فصعد المنبر ومعه أشرف الناس وشُرطُهُ وَحَشَمُهُ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تَخْتَلِفُوا ، ولا تَفَرَّقُوا ، فَتَهْلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجَفَّوْا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقَكَ ، وَقَدْ أَعْذَرَ مِنْ أَنْذَرَ » .

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتمحز فيه ابن زياد وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجاءهم إليه ، ثم قال : « أشرُّوا على الناس ، فَتَنُّوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالْكِرَامَةَ ، وَخَوْفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحُرْمَانَ وَالْعُقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ فُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ — خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أيها الناس : احْفَظُوا بَأَهَالِيكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ، فَإِنْ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْدًا لَنْ تَمُتُمْ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرَفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتَكُمْ الْعَطَاءَ ، وَيَفَرِّقَ مُقَاتِلَتَكُمْ فِي مَغَازِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبَرِيءُ بِالسَّقِيمِ ، وَالشَّاهِدُ بِالْغَائِبِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ فِيكُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَذَاهَا وَبَالَ مَا جَرَّتْ ^(٣) أَيْدِيهَا » .

(١) فصل من البلد فصولاً : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

(٣) جر جريمة : اجترم جريمة .

وتسكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوته في دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر فنودي « أَلَا بَرِئَتِ الذِّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْمَغَمَّةُ ^(١) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيف الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فَبَرِئْتُ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيَّتُهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالْزَمُوا طَاعَتَكُمْ وَبِعْثَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنَ بْنَ نَمِيرٍ ^(٢) ، ثَكَلْتُكَ ^(٣) أَمْكُ إِنْ صَاحَ ^(٤) بَابَ سِكَّةٍ مِنْ سَكِّكَ الْكُوفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَابْعَثْ مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكِّ ، وَأَصْبِحْ غَدًا وَأَسْتَبِيرِ الدُّورَ ^(٥) ، وَجُسْ خِلَالَهَا ، حَتَّى تَأْتِنِي بِهِذَا الرَّجُلِ » . ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان حل شرط ابن زياد . (٣) ثكله : فقده .

(٤) صاحه يصوحه فانصاح : أي شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : امتحن غوره .

عنقه ، فَهَوَى رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَأَتْبَعَ جَسَدَهُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِانِيُ بْنُ عُرْوَةَ ، فَأَخْرَجَ
إِلَى السُّوقِ ، فَضْرَبَتْ عُنُقَهُ .

وَكَانَ مُسْلِمٌ حَيْثُ نَحُولُ إِلَى دَارِ هَانِيٍّ ، كَتَبَ إِلَى الْحُسَيْنِ : « إِنِّي قَدْ بَايَعَنِي مِنْ
أَهْلِ الْكُوفَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، فَمَجَّلَ الْإِقْبَالَ حِينَ يَأْتِيكَ كِتَابِي ، فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مَعَكَ
لَيْسَ لَهُمْ فِي آلِ مُعَاوِيَةَ رَأْيٌ وَلَا هَوًى » .

فَسَارَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَّةَ (فِي ٨ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٦٠ هـ) مُتَوَجِّهًا إِلَى الْكُوفَةِ ،
وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِحَالِ مُسْلِمٍ .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن علي رضي الله عنه السير إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يابنَ عَمِّمَ إِنَّكَ قَدْ أَرْجَفَ النَّاسَ أَنَّكَ سَافِرٌ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَبَيِّنْ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ » قال : « إِنِّي قَدْ أَجَمَعْتُ الْمَسِيرَ فِي أَحَدِ يَوْمَيَّ هَذَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ، فقال له ابن عباس : « فَإِنِّي أَعِيدُكَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبِرْنِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَسِيرُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ، وَضَبَطُوا بِلَادَهُمْ ، وَنَقَوْا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ كَانُوا قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِيرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمِيرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرُهُمْ ، وَعَمَّالُهُ تَجْبِي بِلَادَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فقال له حسين : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« مَا أَدْرَى مَا تَرَى كُنَّا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكُفْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوَلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبِّرْنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ » فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة : ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشراف أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ثم إنه خشي أن يتهمة فقال : « أَمَا إِنَّكَ لَوَأَقَمْتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُولِفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤَنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معنى شيء ، وأن الناس لم يَمْدُلُوهُ^(١) بى ، فَوَدَّ أنى خرجت منها لَتَخْلُوَ له .

فلما كان من العشيِّ أو من الغد ، أنى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يا بن عم ، إنى أَتَصَبَّرُ ولا أَصبر ، إنى أَنُخَوفُ عليك فى هذه الوجه الهلاك والاستئصال ، إنى أهل العراق قومٌ غُدُرٌ^(٢) ، فلا تَقَرَّبَنَّهم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فليَنفُؤا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فَمِرْ إلى اليمين ، فإن بها حصونًا وشعابًا^(٣) وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُّ دُعَاكَ ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحبُّ فى عافية .

فقال له الحسين : « يا بن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكنى قد أزمعت وأجمعت^(٤) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائرًا ، فلا تَمِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليطك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك^(٥) ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علىَّ وعلىك الناس أطعنى ، كَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرئت عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمته عليه وثبت عليه .

(٥) أى مع وجودك .

يَاكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفَ بَيْضَى وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي^(١)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ — نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٢) على الحسين رضى الله عنه . فقال :

« يَا بَنَ عَمِّ ، إِنْ الرَّحِمَ يُظَاثِرُنِي^(٣) عَلَيْكَ . وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَنَا فِي النَّصِيحَةِ لَكَ ،
فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا أَنْتَ بِمَنْ يُسْتَفْشَى فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

« كَانَ أَبُوكَ أَشَدَّ بَأْسًا ، وَالنَّاسُ لَهُ أَرْجَى ، وَمَنْهُ أَسْمَعُ ، وَعَلَيْهِ أَجْمَعُ ، فَسَارَ إِلَى
مَعَاوِيَةَ ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ — إِلَّا أَهْلَ الشَّأْمِ — وَهُوَ أَعَزُّ مِنْهُ ، فَخَذَلُوهُ وَتَنَاقَلُوا عَنْهُ
حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا وَضِنًا بِهَا ، فَجَرَّعُوهُ الْغَيْظَ وَخَالَفُوهُ ، حَتَّى صَارَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ كَرَامَةِ
اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، ثُمَّ صَنَعُوا بِأَخِيكَ بَعْدَ أَبِيكَ مَا صَنَعُوا ، وَقَدْ شَهِدْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَرَأَيْتَهُ . ثُمَّ

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر .
قال صاحب القاموس : وَلَا تَقُلْ قُبْرَةً (كَقَنْفَذَةٍ) أَوْ هِيَ لَغِيَّةٌ ، وَقَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ وَالصَّحَاحُ : « وَالْعَامَّةُ
يَقُولُ : لِلْقُبْرَةِ وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي الرَّجَزِ » وَرَوَى شَاهِدًا عَلَيْهِ أَنْشَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ . وَالْمَعْمَرُ : الْمَنْزِلُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ
وَالْكَلَاءُ ، وَهُوَ مِثْلُ . وَأَوَّلُ مَنْ قَالَهُ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَمِّهِ فِي سَفَرٍ وَهُوَ صَبِيٌّ ، فَزَلُّوا عَلَى
مَاءٍ ، فَذَهَبَ طَرَفَةُ بِفَخِيخٍ لَهُ ، فَنَصَبَهُ لِلْقَنْابِرِ وَبَقِيَ عَامَةً يَوْمَهُ فَلَمْ يَصْدُ شَيْئًا ، ثُمَّ حَمَلَ فَخَهُ وَرَجَعَ إِلَى عَمِّهِ ،
وَتَحَمَّلُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَرَأَى الْقَنْابِرُ يُلْقِطُنْ مَانِئًا لَهَا مِنَ الْحَبِّ ، فَقَالَ ذَلِكَ ، يَضْرِبُ فِي الْحَاجَةِ بِتَمَكُّنٍ
مِنْهَا صَاحِبَهَا .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرَّحِمُ : الْقَرَابَةُ ، وَيُظَاثِرُنِي : يَمِطُّنِي . يَقَالُ : ظَارَنِي فَلَانٌ عَلَى أَمْرٍ كَذَا ، وَأُظَاثِرُنِي وَظَاثِرُنِي :

أَيَّ عَطْفَنِي .

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعنوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فاذكر الله في نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يابن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحتسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما نى إلى عبيد الله بن زياد خبر الكتاب الذى كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فوالله ما تُقرن بى الصعبة ، ولا يقمع لى بالشنان^(١) ، وإنى لنِكل^(٢) لمن عادانى ، ومُسُّ لمن حاربى ، أنصف القارة^(٣) من رامها .

يأهل البصرة : إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة ، وأنا غاد إليها الغداة ؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذى لا إله غيره لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذن الأذن بالأقصى حتى تستمعوا لى ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطى الحصى ، ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

(١) القمعة : تحريك الشئ اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا قمع بالشنان للبل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .

(٢) يقال إنه لنكل شره : أى ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة .

٣٠ خطبة للحسين رضي الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحُصَيْن بن نُمَيْر التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالِح^(١)، وقدّم الحرّ بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسْم ونزل به، فسار إليه الحرّ حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظّهيرة، وحضرت صلاة الظهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس: إنها معذرةٌ إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رُسُلُكم أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإن تعطوني ما أطمئنُ إليه من عهودكم وموائيقكم أقدمتُ مضرّكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المسكان الذي أقبلت منه إليكم» فسكتوا عنه، ثم أقيمت الصلاة. فقال الحسين للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا بل تصلي أنت، ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين.

٣١ — خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وصلى ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فإنكم إن تفقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله،

(١) المسالِح: جمع مسلحة بالفتح، وهي القوم ذوو السلاح.

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوَرِ والمدّوان ، وإن أنتم كَرِهْتُمونا وجهيتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقَدِمْتُ به على رسلكم انصرفتم عنكم .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له الحسين خُرُجِينَ مملوءين صُحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه والحُرُّ يسايرونه .

٣٢ — خطبة أخرى له

وقام الحسين رضي الله عنه بذى حُسَم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد تَرَوْنَ ، وإن الدنيا قد تَغَيَّرَتْ وتَنَكَّرَتْ ، وأدْبَرَ معروها ، واستمرَّت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابَةٌ كصُبابَةِ الإِناء ، وخَسِيسٌ عَذِيشٌ كالمرعى الوَبِيل ، ألا تَرَوْنَ أن الحق لا يُعْمَلُ به ، وأنَّ الباطل لا يُتْنَاهَى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًا ، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرًّا ما^(٢) » .

٣٣ — خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ ، فقال لأصحابه : تَكَلَّمُوا أَمْ أَنْتَكُم ؟ قالوا : لا ، بل تكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) في كتب اللغة : « مر الشيء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر » ولا مانع منه على أن الهمزة والسين والتاء للصيرورة: أي صارت مرة ، وتغيزه استحجر الطين ، واستحصن المهر (صار حصانًا) واستعرب القوم . وفي الأمثال : « إن البغاث بأرضنا يستنصر » « كان عنزا فاستنيس » « قد استنوق الجمل » . (٢) البرم : السامة والضجر ، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يا بن رسول الله مقاتلتك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخْلِدين ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها » فدعاه الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً مُسْتَعِلاً حَرَمَ اللهِ ، ناكثاً لهدى الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنفء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحمق من غير ، وقد أتنى كتبكم ، وقدمت على رسلكم ببيعتكم أنكم لا تُسَلِمُونِي^(١) ولا تَحْذِلُونِي ، فإن تَمَنَّيْتُمْ على بيعتكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلمرى ما هى لكم بُكْر^(٢) ؛ لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتربكُم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(١) أسلمه : خذله .

(٢) النكر بضم وبفتين : المنكر .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربة بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجدية^(١) . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُهُ كَلَى السَّراءِ والضَّراءِ ، اللهم إني أحمدُكَ على أن أكرمَتنا بالنبوة ، وعلمَتنا القرآن ، وقَمَّمتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماء وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبَرَّ ولا أَوْصَلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإني قد رأيت لَكُمْ ، فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ ، ليس عليكم من ذِمَام ، هذا الليلُ قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبونني ، ولو قد أصابوني لَهَوًا عن طلب غيري » .

(١) التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن نسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فبا بينه وبينه رأيهُ ، وفي هذا لكم وضاً وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : « هذا كتاب رجل ناصح لأمره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناء عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقمع له عندي شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٦ - رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نَفْعَلُ؟ إِنِّي بَعْدَكَ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا » فقال الحسين: « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبُكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ يَقُولُونَ إِنَّا تَرَكْنَا شَيْخَنَا وَسَيِّدَنَا وَبَنِي عُمُومَتِنَا خَيْرَ الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ نَرْمِ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعُنْ مَعَهُمْ بِرُمْحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا وَأَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ، وَنَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَّ وَرِدَكَ ، فَتَقْبَحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بِمَعَكَ » .

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال: « أَمَحْنُ نُحَلِّيْ عَنْكَ وَلَمَّا نَعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْبِيرَ فِي صُدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتِلُهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَوْتَ مَعَكَ » .
وقال سعد بن عبد الله الْحَنْفِيُّ: « وَاللَّهِ لَا تُحَلِّيْكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّا قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهُ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أَقْتُلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُخْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أَذَرُ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَتَى رِجْلِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكَرَامَةُ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .
وقال زهير بن الْقَيْنِ: « وَاللَّهُ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ » .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نَقِيلُك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتِلنا كُنَّا وفينا ، وقضينا ما علينا » .

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« يا عبادَ الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حَذَرٍ ، فإن الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد ، أو بقى عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غيرَ أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجددُها بالِرِّ ، ونعيمها مُضْمَحِلٌّ ، وسرورها مُكْفَهَرٌ ، والمنزل تَلَعَةٌ ^(١) ، والدار قُلْعَةٌ ^(٢) ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

٣٩ - دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صَبَّحَتْهُ الخيل رفع يديه فقال :
« اللهم أنتِ ثَقَّتِي في كل كَرْبٍ ، وَرَجَأْتِي في كل شِدَّةٍ ، وأنتِ لِي في كل أَسْرٍ نَزَلْ بِي ثِقَةً وَعُدَّةً ، كَمِ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفَوَادُ ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِجَلَةُ ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتَهُ بِكَ ، وَشَكَّوْهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً مَنِي إِلَيْكَ عَنْ سِوَاكَ ، ففَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتِ وَلِيٌّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ » .

(١) التلعة : مجرى الماء من أهل الوادي إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلعة : أى انقلاص ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومزلقه منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا يملكه أو لا يندى متى تتحول عنه .

٤ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براجلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعْجِلُونِي حَتَّى أُعْظِمَكُمْ ، بِمَا لَحِقَ لَكُمْ عَلَى ،
وَحَتَّى أَعْتَذِرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ، وَأَعْطَيْتُمُونِي
النَّصْفَ ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَى سَبِيلَ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّي الْعَذْرَ ، وَلَمْ
تَعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ . وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَةً ، ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ - إِنَّ وَائِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ
وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بقاته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل
إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنيه ، وقال لهما : أَسْكِنِيَاهُنَّ ، فَلَعُمْرِي لَا يَكْتُرُنَّ
بِسُكَاوَتِهِنَّ

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه
وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسبُونِي فَانظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُواهَا ، فَانظُرُوا
هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَانْتِهَاكُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنُ
وَصِيِّهِ ، وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟
أَوْ لَيْسَ حِمَزةُ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَمِّي أَبِي ؟ أَوْ لَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَفَّاحِينَ عَمِّي ؟
أَوْ لَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِيزٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمدت كذباً مذعلت أن الله يمقت عليه أهله ، وَيَضُرُّهُ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وإن كذبتهموني فإن فيكم من إن سألتهم عن ذلك أخبركم . سألوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ، يخبركم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي ، أفأفي هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم في شك من هذا القول ، أفتشكون أثر^(١) ما أننى ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني أطلبوني يقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أوبقصاص من جراحة ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنأدى ياشبث بن ربعي ، ويأحجار بن أبيجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويأيزيد بن الحارث ، ألم تسكتبوا إلى أن قد أيدعت النار ، واخضرأ الجناب ، وطممت الجمام ، وإنما تقدم على جندك مجتد ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مآمنى من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يرؤوك إلا ماتحِبُّ ، وإن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الدليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، عباد الله ، إننى عذت بربى وربكم أن تترجون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن يوم الحساب » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

(١) أثرنا منصوب على نزع الخافض ، أى أفتشكون فى أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذَنُوبٌ ^(١) شاكٍ ^(٢) في السلاح فقال :

« يَا هَلِ الْكُوفَةُ ، نَذَارٍ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ نَذَارٌ ، إِنَّ حَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِ نَصِيحَةُ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، وَنَحْنُ حَتَّى الْآنَ إِخْوَةٌ ، وَعَلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، مَا لَمْ يَقَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيْفُ ، وَأَنْتُمْ لِلنَّصِيحَةِ مِنْ أَهْلِ ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ انْقَطَعَتِ الْعِصْمَةُ ^(٣) ، وَكُنَّا أُمَّةً وَأَنْتُمْ أُمَّةٌ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ ابْتَلَانَا وَإِيَّاكُمْ بِذَرِيَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِيَنْظُرَ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ ، إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى نَصْرِهِمْ ، وَخِذْلَانِ الطَّاغِيَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، فَإِنْ كُمْ لَا تُدْرِكُونَ مِنْهُمَا إِلَّا بَسْوَةً ، تُعْمَرُ سُلْطَانُهُمَا كُلُّهُ ، لَيْسُمُلَانِ أَعْيُنَكُمْ ^(٤) ، وَيَقْطَعَانِ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ وَيُمَثِّلَانِ بِكُمْ ، وَيَرْفَعَانَكُمْ عَلَى جَذْوَعِ النَّخْلِ ، وَيَقْتُلَانِ أَمْثَالَكُمْ وَقُرَّاءَكُمْ ؛ أَمْثَالِ حُجْرِ بْنِ عَدَى ^(٥) وَأَصْحَابِهِ ، وَهَانِيٍّ بْنِ عُرْوَةَ وَأَشْبَاهِهِ . »

(١) الذَنُوبُ : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكاً أى لبسه تماماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شك للرجل يشاك شوكة (كنام نوما) أى ظهرت شوكتة وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكى مقلوب من شائك ، ويقال أيضاً رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرج) قلت شك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال وفال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العِصْمَةُ : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفردت عقد جماعتنا . (٤) سَمَل عَيْنُهُ : فقأها بحديدة محمأة . (٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكندي من كبار الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية بأمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهردا =

(٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكندي من كبار الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية بأمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهردا =

فَسُبُّوهُ وَأَتْنُوا عَلَى عبيدِ اللَّهِ بنِ زياد، ودَعَوْا له، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سَلِمًا .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد قاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر من ابنِ سُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأُعِيزْكم بالله أن تقتلوه ، فخلَّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمعمرى إن يزيدَ لَيَرْضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمرُ بن ذى الجَوْشَنَ بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نَأْمَتَكَ ^(١) ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البَوَّالِ على عَقِيْبِهِ ، ما إِيَّاكَ أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِّرْ بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوفنى ؟ فوالله لَلْمَوْتِ معه أحبُّ إلىَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَفْرُغْ نِكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهُهُ ، فوالله لا تنال شفاعَةُ محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هَرَأَوْا دماءَ ذُرِّيَّتِهِ وأهل بيته ، وقَتَلُوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أَفْبِيلُ ، فلمعمرى لئن كان مُؤْمِن آلِ فرعونَ نصَحَ لقومه ، وأبَاحَ فى الدعاء ، لقد نصَحْتَ لهؤلاء ، وأبْلَغْتَ لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة : ولعن الخليفة ، ودما إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه المجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آلِ أبى طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلا ، فلما قدموا على معلوية شفع فى بعضهم فخل سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقيين إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من على واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرءوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه ونتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . (١) النامة : الصوت .

٤٣ — خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربته وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه ، فكلمه بمثل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حاصت لوجدت إلى ذلك سبيلا ففعلت » .

فقال : « يا أهل الكوفة : لا تُسْكِمُ الْهَيْبَلُ وَالْعَبْرُ^(١) إذ دعوتهموه ، حتى إذا أنا كم أسلمتموه^(٢) ، وزعتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لقتلوه ، أمسكتكم بنفسه ، وأخذتم بكظمه^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فنعمتموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحلأتموه^(٤) ونساءه^(٥) وأصيبته^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

(١) الهبل : الشكل ، هبلته أمه : كفرح شكلته وفقدته ، والعبر والعبر (كسبب وقفل) سخنة فى العين

تبيكها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلاه عن الماء تحليئا وتحلته : طرده ومنعه .

(٥) مصفر صبغة على غير قياس .

الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرَّغ فيه خنازيرُ السواد وكلابُه ، وهام
قد صرَّعهم العطش ، بئسما خلَقتم محمداً فى ذريته ، لأسقاكم الله يوم الظأ إن لم تتوبوا ،
وتنزِعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعةكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنُّوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦) يوم عاشوراء
سنة ٤٠ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطنوا خيلهم الحسين ، فوطنوه بخيلهم ، ثم حمل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » لرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاوريا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهادته فصاربت عنه الشائنين الأعاديا

سقى الله قبراً ضمن المجد والنق بغريبة الطف الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالأنخيلة المسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندّم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسل عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم في ذلك « فسمّوا التّوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيّب بن نجبة الفزاريّ ، وإلى عبد الله بن سعد ابن نُقَيْل الأزديّ ، وإلى عبد الله بن والٍ التيميّ ، وإلى رِفاعه بن شداد البجليّ ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيّب بن نجبة بالكلام فتكلّم :

٤٤ — خطبة المسيّب بن نجبة الفزاريّ

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فإنّا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرّض لأنواع الفتن ، فنرغبُ إلى ربنا ألاّ يجعلنا من يقول له غدا : (أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كُنا مُغرَمينَ بتركِ أنفسنا ، وتقرّض شيهتنا ، حتى

بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبته ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً ، وعلاية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لأنحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بالسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرننا ؛ فما عذرنا إلى ربنا ، وعدد لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والمولين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ؛ فمسي ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ؛ وما أنا بعد لقائه لمقوبته بآمن ، أيها القوم ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، ورأية تحفون بها ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

فبذر^(١) القوم رفاة بن شداد بعد المسيب الكلام .

٤٥ — خطبة رفاة بن شداد

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد هداك لأصوب القول ، ودعوت إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فسموع منك ، مستجاب لك ، مقبول قولك : قلت ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه ، وتحفون برأية ، وذلك رأيي ، قد رأينا مثل الذي رأيت ، فإن تسكن أنت ذلك الرجل تسكن عندنا مرصيا ، وفينا متنصحا ، وفي جماعتنا محبا ، وإن رأيت (ورأي أصحابنا ذلك) ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد ، الحمود في بآسه ودينه ، والموثوق بحزمه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

ثم تكلم عبد الله بن والي ، وعبد الله بن سعد ، فحمدآ ربهما وأثنيا عليه ، وتكلما بنحو من كلام رفاعه بن شداد ، فذكرا المسيب بن نجبة بفضله ، وذكرا سليمان ابن صرد بسابقته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم ووقفتم ، وأنا أرى مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن صرد » .

٤٦ — خطبة سليمان بن صرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن صرد^(١) وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال : فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإني والله لخائف ألا يكون أخرنا إلى هذا الدهر (الذي نكّدت فيه الميمنة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أولى الفضل من هذه الشيعة) ليأ هو خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونُمنّيهم النصر ، ونُحشّهم على القدوم ؛ فلما قدّموا ونابينا وعجزنا وأذهنا وتربّصنا وانتظرنا ما يكون حتى قُتلَ فينا ولدينا ولدُ نبينا وسُلالاته وعصّارته وبَضْعَة^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النّصف^(٣) فلا يُعطاه ، انخذه الفاسقون غَرَضاً للنّبل ، ودَريّة^(٤) للرماح ، حتى أقصدوه^(٥) وعدّوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل^(٦) والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تُبَيروا^(٧) ، ألا لاتهابوا

(١) وقد سمي أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مهسل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة : وهي الزوجة . (٧) بار يبور بوارا : هلك . وأباره أهلته ، أى تهلكتوا أنفسكم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » فافعل القوم ؟ جنوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ اشحدوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ^(١) » حتى تدعوا وتستنقروا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يخرجنى من ذنبى ، ويرضى عنى ربى لقتلتها ، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين ^(٢) » .

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبد الله بن وال التيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما يريدون إخراجه من أموالكم ، جهزنا به ذوى الخلعة ^(٣) والمسكنة من أشياءكم » .

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمرباطة ، أو جمع ربيط

نفيل بمعنى مفعول . (٢) الجائرين ، قسط كجلس قسوطاً : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلعة : الحاجة والفقير ، وفى المثل : « الخلعة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والمعرفة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يجثوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطننا يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعِينَ على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، والله مُثْبِتُكُمْ على حُسْنِ النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستفجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى مادَعُونَا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لاتعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير ونسيرون » وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٥ - خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مُزينة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبغ من عبيد الله بن عبد الله المُرِّي في منطلق ولا عِظة ، وكان من دُعاة أهل مصر زمان سليمان ابن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكه ، وآمن به سبلكم للخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، فله انتم ! ألم تروا ويبلغكم ما أجترم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وخذلته ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، ونجس أريهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فله عينا من رأى مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلتُ حمانته ، وكثرتُ عُداته^(٥) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن يُنصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقترب . (٣) رماه : لطمه بالدم .

(٤) قطعاً . (٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلين
والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل
بيت ندينا .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عَامَّتَنَا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَحْدُثُونَ في جمع
آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه
حتى كثر تَبَعَهُم ، وكان الناس إلى اتِّبَاعِهِمْ بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ١٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أنى عُبَيْد النُّفَى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد
اجتمعت رهوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يَمْدُلُونَهُ به ، فكان
المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان
ابن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد
جئتكم من قِبَل المهدي محمد بن علي (ابن الحنفية) مؤثماً مأموناً ، مُنْتَجِباً^(١)
ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتُجَيِّبُهُ وتُنْفِظُ أمره ، وعُظُمُ
الشيعة مع سليمان بن صرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قِبَل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على
حربها وتفرُّها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها
(وذلك بعد مَقْدَم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يَذْبُوا
بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم
قام في الناس .

(١) المنتجب : المختار .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لى زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّتُ على أما كنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ؟ فوالله ما أنا قتلـت حسينا ولا أنا من قاتله ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتِلُ الحسين وقَاتِلُ خياركم وأمائكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به^(٢) على مسيرة ليلةٍ من جسر مَنبِج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجمعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضهم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيا قاكم ذلك العدو غدا وقد رَفَقْتُمْ^(٤) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلقِ الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلَعَانِ عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أُتِيتُمْ ، والذى

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييتك عما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزيمته حتى نهض فى طلب الخلافة وتمت له فبوع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشا إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثا . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضممت .

قتل من تشارُون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥٢ — خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يغرّ نكم من السيف والغشم^(٣) مقالة هذا المداهن الموادع ؛ والله لئن خرج علينا خارج لنقتله ، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن^(٤) الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن^(٥) الحميم^(٦) بالحميم ، والعريف^(٧) بما في عرافته ، حتى يدينوا الحق ، ويذلّوا للطاعة » .

٥٣ — رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٨) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلّ من ذلك ، إنا لانلومك على بنقضنا وقد قتلنا أباك^(٩) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أقصر في نصحتكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالثقة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بذلك ، أو للنقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وضرب عرافة صار عريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم نكث بيعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجل مع أبيه ومرو به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولا سديدا ، إني والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحا لك ،
وقابلا قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله ليقتلن وقد أذهن ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمي

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعترضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ،
ولالك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلمر الله لن كنت
مفسدا ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك الناكثان ، فكانت بهما اليديان^(٢)
وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :
« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند العامة محمودا ، وأن تكون
عند الذى عنيّت واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَصَ سليمان بن صرد في وجوه أصحابه ،
وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمسكر بالذخيلة ، وأقام بها ثلاثا يبعث
ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب
ابن نجبة ، فقال : « رحلك الله إنه لا ينفعك الكاره ، ولا يقاقل معك إلا من أخرجته

(١) أى اطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به

مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج يقوم من أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أى حاق
بكم ما تدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، واكش^(١) في أمرك » قال : « فإنك والله لنعميما رأيت » فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئا على قوس له عريبة فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحزنها^(٢) ، فوالله ما نأني قيتنا نسيت^(٣) ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة^(٤) إلى لقاء عدونا ، فن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا » .

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدك ، ولقأك حجتك ، والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في محبة من الدنيا همته ونيته . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبا والطلب بدم ابن ابنة نبيينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح » فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جلوس حوله :

(١) امرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أى سريع .

(٢) أى كسها ومتاعها . (٣) ما يتبلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فإله وفق ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاء ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقبلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورواس الأربع^(١) وأشراف القبائل ، فأني نذهب هاهنا ونَدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلتقي من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرَجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يظهركم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تفشموا^(٣) ، وإن تشتمهم دوا فإنما قاتلتم المحايين ، وما عند الله خير للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب أن تجملوا حدكم وشوكتكم بأول المحايين القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهددان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع منجج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفتها العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو العدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أي وفدع

أعداءنا وذوى ثاراتنا . (٣) غشمة : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدِم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا « فتهيأ الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد وأصحابه
فراياً أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى ابن سرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد الله عبدُ الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يَخُونُهُ ولا يَفُشُّهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحبُّ أهل
مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصُوا عددنا
بمخروجهكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتمسّر ونهيا ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتسكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن سرد

فحمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إني قد علمت أنكما قد تحَضَمْتُمَا^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نَعْبِي معكم جيشاً كثيراً فتلَقُوا عدوكم

(١) محضه الود والمحضه : أخلصه .

بِكُتْفٍ^(١) ، وَجَمَعَ وَحَدَّ « فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيدنا ، وسيأتاكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن مردقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطالبون ، وإن للدنيا بُجَارًا ، وللآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساع إلىهما متنصب^(٢) بِتَطْلَبِهَا ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا بُرَى إلا قائمًا وقاعدًا ، وراكعًا وساجدًا ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دينًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فَمَكِبٌ عليها ، راتع فيها ، لا يبتغي بها بدلًا ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيرًا على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قد رتبتم عليه ، حتى تَلَقَّوْا هذا العدو ، والمُحِلَّ القاسِط فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سَنَامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللَّأْوَاءِ^(٣) وإنا مُدْجِلُونَ^(٤) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلُّوا »

فأدلى عشية الجمعة خمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة^(٥) فنزل في غريبها .

(١) الكُتْف : الجماعة . (٢) أى قد نصب نفسه طالبًا لها ، نصب الشيء : رفعه فانتصب وتنصب .

(٣) الشدة . (٤) أدلىج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلىج بالتشديد .

(٥) هى رأس العين : بلد في وسط الجزيرة .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصيه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في السير إليه آناء^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاءوكم بل جثثهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليهم أمرؤ دبره إلا متحرفاً^(٢) لِقِتَالِ أَوْ مُتَحَيِّزاً^(٣) إِلَى فِتْنَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجَاهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ^(٤) إِلَّا أَنْ يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قَتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ » .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رهوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن والير ، فلما رأى من بقي

(١) آناء الليل : ساعاته واحداً إلى (كألى) أو إلى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أى منعطفا يريد الكر بعد الفر وتغيير العدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) أى منحازا إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملتكم .

من التَّوَّابِينَ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِمَنْ يَإْزَأُهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّأَمِ أَنْحَازُوا عَنْهُمْ وَارْتَحَلُوا ، وَعَلَيْهِمْ
رِفَاعَةُ بْنُ شَدَادِ بْنِ جَعْلٍ .

(وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَجَبِ الْآخِرِ سَنَةِ ٦٥ هـ) ^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وَأَنَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِبَشَارَةِ الْفَتْحِ ، فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ رَعُوسِ أَهْلِ الْعِرَاقِ مُلْقِحَ ^(٢) فَتْمَةَ ، وَرَأْسَ
ضَلَالَةَ ، سَلِمَانَ بْنَ صُرْدٍ ، أَلَا وَإِنَّ السَّيُوفَ تَرَكْتَ رَأْسَ الْمَسِيْبِ بْنِ نَجْبَةَ خَذَارِيفَ ^(٣) ،
أَلَا وَقَدْ قَتَلَ مِنْ رَعُوسِهِمْ رَأْسَيْنِ عَظِيمَيْنِ مُضَائِنَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ أَخَا الْأَزْدِ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَائِلٍ أَخَا بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ عَنْدهُ دِفَاعٌ وَلَا امْتِنَاعٌ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودي في مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الورد كانت في سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألحق النخلة ، وألحق الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت السيوف رأسه
خذاريف : أي قطعاً كل قطعة كالخذروف ، والخذروف : كمصفور شيء يدوره الصبي بخيط في يديه فيسمع
له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ،
فأناه بعض الشيعة ليلاً ، فسأله عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة
قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .
فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب
رضي الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع المشي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم
ثلاثة أيام ، فلا يتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبيد
ابن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشييعه لآل علي بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه
في أمر الحسن بن علي رضي الله عنه يوم طعن في مظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد
ابن مسعود حاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الفتي والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق
الحسن وتمتأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأوثقه ! بنس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضي الله تعالى عنه نزل دار
المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر
بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت
صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخل سبيله ، فشفعه فيه ، وخل
ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقايل له حين حاصر مكة جيش
يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوفي - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة
في منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أمييناً ووزيراً ، ومُنْتَجَباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيتي ، والدفع عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئكم من قِبَل وَلِيِّ الْأَمْرِ ، وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ ، وَوَصِيِّ الْوَصِيِّ ، وَالْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ ، بِأَمْرِ فِيهِ الشِّفَاءُ ، وَكَشْفُ الْغَطَاءِ ، وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ ، وَتَمَامُ النِّعَمَاءِ . إِنْ سَلِمَانَ بْنِ صُرْدٍ رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ عَشْمَةٌ ^(١) مِنْ الْقَسَمِ ، وَحِفْشٌ ^(٢) بِالِ ، لَيْسَ بِذِي تَجَرِبَةٍ لِلْأُمُورِ ، وَلَا لَهُ عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ ، إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ فَيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَيَقْتُلَكُمْ ، إِنْ إِنَّمَا أَعْمَلُ عَلَى مِثَالٍ قَدْ مُثِّلَ لِي ، وَأَمْرٌ قَدْ بُيِّنَ لِي ، فِيهِ عِزٌّ وَلِيكُمْ ، وَقَتْلُ عَدُوِّكُمْ ، وَشِفَاءُ صُدُورِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنِّي قَوْلِي ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، ثُمَّ أَبْشِرُوا وَتَبَاشَرُوا ، فَإِنِّي لَكُمْ بِكُلِّ مَا تَأْمَلُونَ خَيْرٌ زَعِيمٌ » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَعُظُمُهم يومئذ مع سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري — أمير الكوفة من قبل ابن الزبير — أن يثب الخُتار عليه ، فزجّه في السجن .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَّا وَرَبُّ الْبِحَارِ ، وَالذَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْمَهَامَةِ ^(٣) وَالْفِقَارِ ، وَالْمَلَأْسَكَةِ الْأَبْرَارِ ،

(١) العشمة : الشيخ الفاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحني الظهر ، وكان عمر بن صرد حين

قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآتية كالقوارير وغيرها ، وأحفاش البيت : زдал متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد الفقير ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الأخيار، لأَفْتَلَنَ كُلَّ جَبَّارٍ ، بكلِّ لَدْنٍ خَطَّارٍ ^(١) ، ومُهَنْدٍ بَقَّارٍ ^(٢) ،
 في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمِئِيلِ أَغْمَارٍ ^(٣) ، ولا بِعُزْلِ ^(٤) أَشْرَارٍ ، حتى إذا أَمْتُ
 عمودَ الدين ، وَرَأَبْتُ شَعْبٍ ^(٥) صَدَّعَ المسلمين ، وَشَفَّيْتُ غَلِيلَ صدور المؤمنين ،
 وأدركت بشارَ النبيين ، لم يكْبُرْ عَلَيَّ زوالُ الدنيا ، ولم أُحِلِّ بالموت إذا آتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
 الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
 أصحابه يكثرُونَ ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابنُ الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
 وولى عليها عبد الله بن مُطِيع العَدَوِي .
 (تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوي الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد
 المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني عَلَى مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ،
 وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْئِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُحِلَّ فَضْلُ ^(١) فَيْئِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيْفَرِ
 عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ الَّتِي أَوْصَى بِهَا عِنْدَ وَفَاتِهِ ^(٢) ، وَبِسِيرَةِ عُمَانَ بْنِ عِفَّانِ الَّتِي سَارَ بِهَا
 فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ، وَلَا تَفْعَلُوا

(١) الرمح اللدن : اللين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن كسكرم لدافة ولدونة .
 والرمح الخطار : أى المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ،
 والبتار : القطار . (٣) مِئِيل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
 لا ترمن معه أولا سيف أو لارمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يحرب الأمور .
 (٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصلع أى الشق ، ومن
 معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصلع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
 (٧) انظر وصيته الخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُومُونِي ، فَوَاللَّهِ لَاؤُقِيعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَاؤُقِيعَنَّ دَرًا^(١)
الْأَصْعَرُ^(٢) الْمَرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رهوس أصحاب المختار -
فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاَّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشهدك
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُستارَ فينا إلا بسيرة
على بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة
لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أثرةَ وهوى ، ولا في سيرة
عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرًا ، وقد كان لا يألُو
الناسَ خيرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رأينا مثلُ رأيه ،
وَقَوْلًا مثلَ قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوَيْتُمُوهَا ،
ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ، لا يَعدَمُكَ المسلمون !
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) الدرأ : الميل والموج في القناة ونحوها . (٢) الصمر محركة : ميل في العنق وانقلاب
في الوجه إلى أحد الشقين ، صمر كفرح فهو أصمر ، وربما كان الإنسان أصمر خلقة ، وصمر خده بالتشديد :
أماله عن الناس إعراضا وتكبرا .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في الحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندري أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثر عندنا من سلامة ديننا » .

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووَفَّقْتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهل بيتٍ خَصَّكم الله بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوة ، وعَظَّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حقكم إلا مغبونُ الرأي ، مخسوسُ النصيب ، قد أصبتم بحسينٍ رحمة الله عليه ، عَظُمَت مصيبتُهُ ! ما قد خَصَّكم بها ، فقد عُمَّ بها المسلمون ، وقد قَدِم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه » .

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحوٍ مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا -
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان
في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحة ^(٢) كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع
بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضّح بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ،
فوالله لو ددّت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم . »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا
من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخَذِّل الشيعة عنه ،
فكان يقول :

« إن نُفَيْرَا منكم ارتابوا ، وتخيّرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنا بوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحة : الوقعة العظيمة القتلى .

كَبَرُوا وَهَابُوا ، واعترضوا وانجأوا^(١) ، فقد ثَبَرُوا^(٢) وَحَابُوا^(٣) » وأقبل القوم فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتِنْتُمْ وارتبتم ، فقالوا له : قد أُمِرْنَا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفرأ منكم أحبوا أن يعلموا مِصْدَاقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَرَحَلُوا إلى إمام الهدى ، والنقيب المرتضى ، ابن خيرٍ من طَشَى^(٤) ومشى ، حاشا النبي المُجْتَبَى^(٥) فسألوهُ عما قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فنبأهم أَنِي وَزِيرُهُ وَظَهِيرُهُ ، وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ ، وَأَمْرُكُمْ بَانِبَاعِي وَطَاعَتِي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ قِتَالِ الْمُحِلِّينَ ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ الْمُصْطَفَيْنَ . »
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدي بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقروا علينا .

(٢) ثبر ، كقعد ثبوراً : هلك . (٣) حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن تكون بالماء لتقدم كلمة خابوا في أول قوله .

(٤) هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض يرى » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إتياع لفعل قبله اتقوته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وعطشان نطشان وشحيح بحيج ، وكثير بثير ، وحيالك الله وبياك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - اقرأ باب الإتياع في الزهر السيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمالي (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشرفةً صدرُنا ، قد أذهب الله منها الشك وَالزَّيْبَ ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدُكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .
وقاموا رجالاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه ، فاستجمعت له الشيعة وَحَدِّثَ^(١) عليه .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِد فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خيرُ أهل الأرض
اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطتَ ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأولياده عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) عطفت . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمريتهم فقال : إني قد أجبتمكم
إلى ما دعوتكموني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففحص خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنني قد بعثت
إليكم بوزيري ، وأميني ، ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوته ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فينا بين
الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشَب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً، فقال :
« يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمِّل أعينكم ، وترفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عينا تطرف^(١) ، وليقتلنكم صبرا^(٢) ، ولآتروُن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدّراك على هامهم ، فتيسرُوا للشّدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رابتي مرتين فاحلوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« الكرامة ، وإن أبيت ملكت هلاكا لاتستقبله أبدا ، والسلام عليك » فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فا كان يكتب إلى إلا بإسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أبابعدك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصبة منكم ، قليلٍ عددها ،
خبيثٍ دينها ، ضالَّةٌ مُضِلَّةٌ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرِّمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ،
وامنعوا منهم فيثكم ، وإلَّا ليشاركَنَّكمُ في فيثكم مَنْ لا حَقَّ له فيه ، والله لقد بلغتُ
أن فيهم خمسمائة رجل من محرِّريكم عليهم أميرُهم ، وإنما ذهابُ عزِّكم وسلطانكم ،
وتغيُّرُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدَّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه
فقال لهم :

« قَرَّبُوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضِلِّين^(١) السيوف ،
ولَا يَهْوُلَنَّكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بنِ رَبِيعٍ ، وآلُ عُتَيْبَةَ بنِ النَّهَّاسِ ، وآلُ الْأَشْعَثِ ،
وآلُ يَزِيدَ بنِ الْحَارِثِ ، وآلُ فُلانٍ - فسمَّى بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال :
إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا^(٢) عن ابن مطيع انصفاقَ الْمِعْزَى
عن الذئب » ثم قال لأصحابه شُدُّوا عليهم ، فِدَاكم عى وخالى .

فما لبَّتهم أن هزموهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا
السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بنِ رَبِيعٍ أن يخرج
من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويثق به ،
ولا يَعْلَمُ بمكانه إلى أن يخرج فيأحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أصلت السيوف : جرده من غده . (٢) انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعُوا هذا مِنْكُمْ مَنْ هُمْ ، وقد علمت إنما هم أرادوا لكم سُفْهًا وكم وطَعَامًا لكم وَأَخِيسًا وكم ، ماعدا الرجلَ أو الرجلين ، وَأَنْ أَشْرَافَكُمْ ، وأهل الفضل مِنْكُمْ لم يزلوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبْلِغ ذلك صاحبي ، ومُعَلِّم طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كان الله الغالبَ على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتُم به على ما قد علمتُم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شَبَّثَ : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَفْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاك الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْرَ ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من افتري ، أيها الناس : إنه رُفِعَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقليل لنا في الِراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تَعُدُّوها ، فسمنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لَقَتْلَى

فِي الْوَاعِيَةِ^(١) وَبُعْذًا لِمَنْ طَغَى ، وَأَدْبِرْ وَعَصَى ، وَكَذَّبْ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَمَلَ السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُوفًا^(٢) ، وَالْأَرْضَ فِجَاجًا^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ هَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ هَلِيِّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطالب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحابين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سلمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقياكم ولا نستقيلكم ، فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايخين هَلِيِّ قَتْلَهُ ، فَقَتَلَ مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ، وَهَرَبَ مِنَ الْكُوفَةِ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مِنْ قَتْلِهِمْ عُمَرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَابْنُهُ ، وَبَعَثَ بِرَأْسَيْهِمَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَةِ .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له^(٤) نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيمهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أعدائهم الذين لم يكنهم ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حبال الصائد ، وكل مستدر . (٣) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يفضيه ويحسده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلا من

« هذا كتاب مَهْدِيَّكُمْ ، وصريح^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء الليل وتارات^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّرًا^(٤) ، وإن لم أُسرِّبْ إليهم الخليل في إثر الخليل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحْمَلَ بَابَن الكاهلية^(٥) الويلُّ » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

بني هاشم في سجن عارم وقال : لتبايمن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجلاً . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخاً ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسكرون الليل ويكننون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقي من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب حل .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حظر الشيء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها لينعها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة ، وهي هنا الحين .

(٤) نصر مؤزر : أي بالغ شديد من التآزير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنسر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أقر ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونقبت راحلتي (نقب الخلف كفرح : رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبرها ففعل ، فقال : أرقعها بسبت ، وأخصفها بهلب ، وأنجد بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كعمل كل جلد مدبوغ . والهلب كقفل : الشعر أو ما غلظ منه أو شعر الذئب أو شعر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشي) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مستحلاً ، ولم آتلك مستوصفاً ، فلن الله ناقة حملتني إليك (مستحلاً أي طالباً أن تحملي على ناقة أخرى تعطينها) قال ابن الزبير : « إن وراكها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فأنصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعراً منه قوله :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لفلن شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد
فإن حين أقطع ذات هرق إلى ابن السكاكلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات قمير في بها وهي خير عمامة » - انظر الأغاني
« ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » وجميع الأمثال للميداني (١ : ٧٥) وفيه « فلما
يلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الألام من عمته لسنني بها » وبهذه المناسبة نقول : إن ابن الزبير كان
شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا
ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيت أمرى ، فقال بعضهم :
ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبنى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا ، فشق عليه
ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أعرابي سائل فردده ، فقال له : لقد
أحرقبت الرمضاء قدى ، فقال : بل عليهما يبردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس
يمكة ، فأنزله دار الضيفان - وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيقات - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى
إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهلم نيف وسيمون رجلا ، فغضب
معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ،
وأقام عنده ثلاثا حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا) بتيس من الشام الحجازي أعفر
وقال : اطعموا منه « ونحن ثلاثة وسيمون إنسانا » فيالقوم مخبر !
فقلنا له : لا تقربوا ، فأمانا جفان ابن عباس العلا وابن جعفر
وكن آمتا وارفق بتيسك إنه له أعنز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ » .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني ، وإن ابن الزبير لطويل
الصلاة كثير الصيام ، ولسكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا » « تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ » .

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عبيد الله بن زياد ،
وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردية من أرض الجزيرة ثم التقي به ابن الأشتر على
شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا
إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمي في نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعه فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن =

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة ^(١) فإنى أجد فى مُحكم الكتاب ،
وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تاتى فى صور الحمام دُوين ^(٢)
السحاب . »
(الكامل للبدر ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستغفروهم عليكم ، لِيَمِصَّح ^(٤) الحق ، وَيَنْتَعِش الباطل ، وَيُقْتَلَ أولياء الله ، والله
لو تهللكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالقرى ^(٥) على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط القتلام ، وأسرع القتل فى
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا على
شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعته ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فانتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ هـ .

(١) حاص يحيص حصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أى قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٨٦٧ هـ) بعد عزل القبايع عنها (والقباع كشجاع
هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب
شيث بن ربيع ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب
عبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنم : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولى لون زهره : والظال قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَتَتَدَبُّوا^(١) مع أحرر بن شَمِيط : فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ لَقِيتُمُوهُمْ لَقَدْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَتْلَ عَاد^(٢)
 وَلِإِزْمَ .

وتزاحف الجفندان ، واهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

(١) اقتدب إليه : أسرع . (٢) أى أبدتموهم كما باد هؤلاء .

(٣) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زيريا ، ثم صار رافضيا في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمر تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَقَتَبْرُ لَنْ مِّنَ السَّمَاءِ نَارَ دَهْمَاءَ ، فَلْتَحْرِقَنَّ » دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟ هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَّا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّمَهُ الْعَصِيَّانَ ، لَا فُتُكَنَّ أَرْدَعَمَانَ ، وَجُلَّ قَيْسِ قَيْلَانَ ، وَتَمِيَّاءُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبَ ظَبْيَانَ » فكان غليان النجيب يقول : « لم أزل في عمر المختار أنقلب آتئا » .

وقال ابن عديده في العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتتبع قتلة الحسين بن علي ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أفتنهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبل ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعنى مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معان ، البدء في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء في الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله =

٨٢ — خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وضع له كرسى قدامه ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شأنت الوجوه ^(١) ، أَيْنَقَصَ على وأنتم حضور ؟ إن علياً كان ستماً صادقاً ، أحد مَرَامِي الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، وَيَهْوُوهُمْ ^(٢) مَا كَلِمَهُمْ ، فنقل عليهم ، فرمَوْه بصِرْفَةِ الأباطيل ^(٣) ، وإنا معشر له على نَهْج ^(٤) من أمره بنو الحنيفة ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نذر عظامهم ، ونحسِر ^(٦)

دايلاً على صلق دمواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دهائه ورجائه ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهبة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولسكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت في بني إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم أخذاً من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ فَبَيِّضُوهُمْ إِنْ آيَةً مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ » ، إن في ذلك لآيةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار — انظر قصته في تاريخ الطبري (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبح . (٢) هوعه ما أكل : قياها . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحنيفة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو بها . (٦) حسره كنصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .
 فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتسكلمون ، فما بال
 بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(١) ، ومالي لا أتسكلم ؟ أليست فاطمة
 بنت محمد حليّة ^(٢) أبى وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٣) بنت أسد بن هاشم جدّتي ؟
 أليست فاطمة ^(٤) بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ^(٥)
 ما تركت فى بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتنى فيه المصائب صبرت .
 (مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ،
 قال له معاوية : « إني أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » قال :
 « ما تقول فى أبى بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن
 المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ،
 وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ^(١) ، وسادم زهداً وعفافاً ،
 فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهيأ ^(٢) يابن عباس ، فما تقول
 فى عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ،

(١) أم رومان بنت عامر هي زوج ابى بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .

(٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر

من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

(٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبى طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبی صلى الله عليه وسلم وعمّة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

(٦) أى رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت

أى حبك .

ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحلّ الإيمان ، وَكَهَفَ^(١) الضعفاء ، وَمَمَقِلَ
الحنفاء^(٢) ، قام بحق الله عزّ وجلّ صابراً مُحَنِّباً^(٣) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد
وَأَمَّنَ العبادَ ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ اللعنة إلى يوم الدين . قال : « فما تقول
في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجماعة^(٤) ، وأفضل البرّة ،
هَجَّاداً^(٥) بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهائياً عند كل مَكْرُمة ، سَبَّاقاً
إلى كلِّ منحة ، حَمِيماً أَيْباً وَفِيّاً ، صاحب جيش العُسرة^(٦) ، وَخَنَ رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال :
« فما تقول في علي ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله عَلمَ الهدى ، وَكَهَفَ
الثَّقِي ، وَنَحْمِلَ الْحِجَابَ^(٨) ، وَبَجَرَ الْبُغْدَى ، وَطَوَّدَ الثُّغَى^(٩) ، وَكَهَفَ الْعَلَا ، لِلْوَرَى داعياً
إلى الْحَقَّةِ^(١٠) ، متمسكاً بِالرُّوَّةِ الْوُثْقَى ، خير من آمَنَ واتقى ، وأفضل من تَقَمَّصَ
وارتدى ، وَأَبْرَ من اتعمل وَسَعَى^(١١) ، وأفصح من تَفَنَّسَ وقرا ، وأكثر من شَهِدَ
النَّجْوَى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبلتين ، فهل يوازيه أحد ؟
وأبو السَّبْطَيْنِ^(١٢) فهل يقارنه بشر ، وزوج خير النِّسْوَانِ^(١٣) ، فهل يفوقه قاطنُ بلد ؟
لِلْأَسُودِ قَتَالٌ ، وفي الحروب خِتَالٌ^(١٤) ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه

-
- (١) الكهف: الملجأ، وكذا المقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوئ به وجه الله . (٤) الكرام ، يقال للكرم :
جمد يفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جمد اليمين أو جمد الأنامل فهو البخيل ، وربما لم يذكروا معه اليد .
(٥) الهجاء والمجود : يفتح الهاء ، والمتجد : المصل بالليل . (٦) تقدم شرحه في خطبة ذى
الكلع الحيمرى . راجع الجزء الأول ص ٣٤٠ . (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٨) الحمل فى الأصل : شقان على التعبير يحمل فيهما
العديلان ، والحجاء : المقل والفتنة . (٩) الطود : الجبل ، والنهى المقل . (١٠) الطريق الواضح .
(١١) فى الأصل « واسما » وهو تحريف . (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، (والسبط ولد الولد) . (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها .
(١٤) خداع ، من الختل : وهو الخداع ، والمراد أنه ذو بصر بالحروب .

لعنة الله والعباد ، إلى يوم التَّناد^(١) » قال : « إياها يابن عباس ، لقد أ كثرت في ابن عمك » قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صِنُو^(٢) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وَقُرَّةَ عَيْنِ صَفَى الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباؤه الأجواد ، وأحلام أجداده الأجداد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسَّقَاية والمُشَاعِر^(٣) والتلاوة ، وَلَمْ لَا يَكُون كَذَلِكَ ، وقد ساسه أكرمُ من دَب^(٤) » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلَمَانِي^(٥) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فَقهَهُ في الدين ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ . ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدَّست أَسْمَاؤُهُ ، خَصَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِصَحَابَةٍ آثَرُوهُ على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يُبَتِّقُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَامُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ) ، قاموا بمَعَالِمِ الدين ، ونامحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاؤه^(٦) الله ، واستقرَّ دينه ، ووضعت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعايمه ، وصارت كلمةُ الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة للعالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أَمْحَاءَ ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إياها ابن عباس ، حديشًا في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشامرة بالفتح ، والمشرع : موضعها ، والمشرع الحرام بالمزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أى مثى والمعنى عليه صحيح ، ولكنى أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشد اللام ، وبكسرتين مشد الميم وتكلام بكسر فسكون وتشد لامهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) والى (بفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له^(١) ، فبلاغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صَفِيَّيْنِ^(٢) دون الناس ، حَفِظْتُ الميث في الحى ، والحى في الميث ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عُبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأْتَكُمْ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أكتشفكم عما وَعَت غرائركم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقِيَّأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتهمونى بِصِفِّيْنِ ، ولعمري لَبَنُو تَيْمَ وَعَدِيَّ^(٦) أعظم ذنباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسئوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أُغْضِي الجفون على القَدَى^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصنى : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة قثم بن العباس (قثم كعمر) وخرج إليهم . (٤) هنأه كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الشوال) . (٦) يعنى ببني تيم أبابكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى ببني عدى عمر ابن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . (٧) القلى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك ، إخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام^(٢) ، وأما استعمال علي إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لأنفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبسر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرّد ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فخصب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسها ، وأما خذلنا عثمان فلو لمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحقّ وأدعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المعتمد الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أنيتم إلينا ما أنينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أسراً إلا أظلماتم

(١) التفاوض : الاشتراك في كل شيء . والمساواة . (٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند

النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدَرَهُ ^(١) ، ولا آتَى معروفًا إلا صَفَرْتُمْ خَطَرَهُ ^(٢) ، وأَعْطَيْكُمْ العَطِيَّةَ فيها قضاء حقوقِكُمْ ، فتَأْخُذُونَهَا متَكَارِهِينَ عليها ، تقولون قد نَقَصَ الْحَقَّ دُونَ الْأَمَلِ ، فأَيُّ أَمَلٍ بَعْدَ أَلْفِ أَلْفٍ أَعْطِيهَا الرَّجُلَ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أَكُونُ أَسْرًا بِإِعْطَائِهَا مِنْهُ بِأَخْذِهَا ؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَخَذْتُ لَكُمْ فِي مَالِي ، وَذَلَّلْتُ لَكُمْ فِي عَرْضِي ، أَرَى أَخْذَاعِي كَرَمًا ، وَذُلِّي حِلْمًا ، وَلَوْ وَلِيْتُمُونَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِالْإِنْتِصَافِ ، وَلَا نَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ لَعَلَّنَا بِحَالِكُمْ وَحَالَتَا ، وَيَكُونُ أَبْغَضُهَا إِلَيْنَا أَحَبَّهَا إِلَيْكُمْ أَنْ نُعْفِيَكُمْ .

٨٧ - مقال ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

« لَوْ لِينَا أَحْسَنُ الْمَوَاسَاةِ ، وَامْتَنَنَّا بِالْأَثَرَةِ ^(٣) ، ثُمَّ لَمْ نَعْفِمْ ^(٤) الْحَى ، وَلَمْ نَشْتَمِ الْمَيِّتَ ^(٥) ، فَلَسْتُمْ بِأَجْوَدَ مِنَّا كُفًّا ، وَلَا أَكْرَمَ أَنْفُسًا ، وَلَا أَصَوْنَ لِأَغْرَاضِ الْمُرُوءَةِ ، وَنَحْنُ وَاللَّهِ أَعْطَى لِلْآخِرَةِ مِنْكُمْ لِلدُّنْيَا ، وَأَعْطَى فِي الْحَقِّ مِنْكُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَأَعْطَى عَلَى التَّقْوَى مِنْكُمْ عَلَى الْهَوَى ، وَالْقَسَمِ بِالسَّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ يَأْتِيَانِ عَلَى الْمَنَى وَالْأَمَلِ ، مَا أَرْضَاكُمْ مَقًا بِالسَّكْفَافِ ، فَلَوْ رَضِيتُمْ مِنَّا لَمْ تَرْضَ بِأَنْفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالسَّكْفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبْخَلُّونَا ^(٦) حَتَّى تَسْأَلُونَا ، وَلَا تَلْغِظُونَا حَتَّى تَذُوقُونَا .

(المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدره « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتح الحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنعمنا بما نستأثر به . (٤) غشمه غشما : ظلمه . (٥) يعرض به فى سبه عليا على المنابر . (٦) لا ترمونا بالبخل (بخله بالتشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بخيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ — مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة ، ولا يؤصّد^(١) بابى دونكم مسألة ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لاحد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . »

٨٩ — مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حقان : حق فى الفئيمة وحق فى الفى . فالفئيمة : ما غلبنا عليه . والفى : ما اجتبيتناه ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خف ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تمز^(٢) ، ولا تشج^(٣) . » (المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أى ولا يفلق وفى الأصل « ولا يوجد » وهو تحريف .

(٢) لا تمز أى لا تغلب ، مزه يمز (كنصره) عزاء (بالفتح) غلبه وفى الأصل « لا تفر » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جوحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها ودياتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجائبها ولواثها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقيها وجوادها ، وبنو عدي ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها وبنو جهم ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عاصر بن لؤى بفارسها وقريعتها ^(١١) ، فمن ذا يُجمل مضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يا بن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة : سدة البيت الشريف ؛ أي تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على رمح وينصبونها علامة للمعسكر إذا توجهوا إلى محاربة العدو فيجتمعون تحتها ويقاثلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولي البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنتي دارا بها وهي دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفا ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لأخلفنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم للكمبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحرب إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يثقله (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدي بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمي . (٩) بنو جهم بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القريع : المقارع .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حى يَفْخَرُونَ بأمر إلا وإلى جنبهم من يشترَكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخَرُونَ بالنبوة التى لا يشارَكون فيها ، ولا يُسَاوَوْنَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله فى بنى عبد المطلب إلا وهم خير بنى هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فُتِحَ الأمر وبنا يُخْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّل ، ولنا ملكٌ مُؤَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نَفَى الحسن بن على رضى الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن بن على ، ولم يظهر حزنا ؛ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إن الله وإنا إليه راجعون ، ترجيعا مُكْرَرًا ، وقد بلغنى القدى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسدُه حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أُصِيبْنَا بمن كان خيرا منه ، جدُّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتَه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سِنَتُه ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرَّف سَنَتُه ! قال : أحسبه ترك أولادا صغارا ؟ قال : كلنا كان صغيرا فكبير . ولئن اختار الله لأبى محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمته ، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعنى الحسين) ، وفي مثله الخلف الصالح ، ثم شق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، وسروج الذهب ٢ : ٥٢ والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١)

٩٣ — عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين ؟ » قال : « منعه الله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما نقض ، أسف^(١) إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » .

(إيجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف للطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وفد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزياد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومَرْوَانَ بن الحكم . وعمر بن العاص . والمُعيرة بن شُعبَة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدُفِعَ عنه^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام انبلغ حقيقة صفته ، ونَقِفَ على كُنْه معرفته ، ونعرف ما صُرف عنا من شَبَابٍ^(٣) حَذَّه . ووُورَى عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم مالا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأ ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامن عليا أن يُوجَّه بك حكما ؟

٩٤ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عمرًا يَصْفِيَهُ من الإبل ، يُوجِعَ كتفيه مِرَاسُهَا^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرضتُه بريقه^(٥) ، وَقَدَحْتُ في سُوَيْدَاءِ قلبه ، فلم يُغْرِمَ أمرًا ،

(١) شجر بينهم الأمر : تنازعو فيه . (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

بقيوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

(٣) الشبا : جمع شبابة ، وهي حد كل شيء . (٤) أى علاجه وقيادتها . (٥) جرح بريقه

كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أغصه .

ولم ينفذ تراباً إلا كنت منه بمراى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرمه قصمت^(٢) عراه ، بغرب^(٣) مقول لا يقل حده ، وأصالة رأى كمتاح^(٤) الأجل لا وزر منه ، أضدع^(٥) به أدبمه ، وأفل به شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتيز^(٦) ، وأزيج به شبه الشاكين .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم^(٧) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادره بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، وادع بالتفكيك به غيره ، وشرّد به من خلفه » .

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يا ابن النابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دُعيت نزال^(٨) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكوائر^(٩) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل : قتله شديداً . (٢) حلت . (٣) الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف أى كالأجل المتاح : أى المقدر . والوزر : الملجأ . (٥) أشق ، والأديم :

الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . (٦) فى الأصل « المتقيز » وقد بحثت فى كتب اللغة

عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها معرفة عنها ، ورجع لى أنها

معرفة عن « المعتيز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على ومعاوية

وكانوا محايدين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أى حين قال

الأبطال بعضهم لبعض نزال . (٩) جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر .

حَبْلَ لِقَائِهِ ، والانسكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففنته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوفَ بأسه سوءَ تلك ، حذراً أن يصطلمك^(١) بسطوته ، أو ياتهمك بمحلتها ، ثم أشرت على معاوية كالتناصح له بمبارزته ، وحسنت له التمرض لمكافئته ، رجاء أن تكتفى مثوثته ، وتعدّم صورته ، فعمل غِلَ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلّمك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فاكفّف غَرْبَ لسانك ، واقمّع عَوْرَاءَ^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحرٍ زاهر ، إن تبرزت للأسد افترسك ، وإن عُمت في البحر قَمَسَكَ^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

فقال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لَتَصْرِفُ^(٦) بَنَابَكَ ، وَتُورِي نَارَكَ ، كَأَنَّكَ تَرْجُو الْغَلَبَةَ ، وَتَوُمِّلُ الْعَاقِبَةَ ، وَلَوْلَا حِلْمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكُمْ ، لَتَنَاولَكُمْ بِأَقْصَرِ أُنَامِلِهِ ، فَأَوْرَدَكُمْ مَنَهَلًا بَعِيداً صَدْرُهُ^(٧) ، وَلَعَمْرِي لَنْ سَطَا بِكُمْ لِيَأْخُذَنَ بَعْضُ حَقِّهِ مِنْكُمْ ، وَلَئِنْ عَفَا عَنْ جَرَائِرِكُمْ لَقَدِيمًا مَا نُسِبَ إِلَى ذَلِكَ » .

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقتك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٥٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصريف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أئباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به ، ولو نظرت في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنابك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « ويطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويأين طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكني في بلد أبدا » أوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، ولأنه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما أطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متغيا حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم معه - رده ، وقال : « كنت قد شغعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدي برده » وقد توفي في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين لهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفي أبيه بها . (٢) أى في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار بعد أن هذا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولسكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذي كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع وديج (محرقة) وهو هرق الأخدع الذي يقطعه الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبيج (محرقة) وهو ما بين السكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبرك ليلة المهرير^(١) كيف ثَبَاتُنَا لَلْمُثَلَّاتِ^(٢) ، واستخفَّأْنَا بِالْمُعْضِلَاتِ ، وصدق جِلَادُنَا عِنْدَ الْمَصَاوِلَةِ ، وصَبَرْنَا عَلَى اللَّأْوَاءِ^(٣) ، وَمَصَاحِفُنَا بِجِبَاهِنَا السِّیُوفَ الْمُرْهَقَةَ^(٤) ، ومبَاشَرَتُنَا بِفُحُورِنَا حَدَّ الْأَسِنَّةِ ، هل خِثْنَا^(٥) عَنْ كِرَائِمِ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ ؟ أَمْ لَمْ نَبْذُلْ مُهَجَّنَا^(٦) لِلْمُتَالِفِ ؟ وَلَيْسَ لَكَ إِذَا ذَاكَ فِيهَا مَقَامٌ مَحْمُودٌ ، وَلَا يَوْمٌ مَشْهُودٌ ، وَلَا أَمْرٌ مَعْدُودٌ ، وَإِنِّهْمَا شَهِدَا مَا لَوْ شَهِدْتَ لِأَقْلَقِكَ ، فَارْبَعَ عَلَى ظِلِّكَ^(٧) ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِمَا لَيْسَ لَكَ ، فَإِنَّكَ كَالْمَغْرُورِ فِي صَفَدٍ^(٨) ، لَا يَهْبِطُ بِرِجْلِ ، وَلَا يَرْقَا^(٩) بِيَدٍ .

٩٩ — مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إني لأعلم ، ما منع حَسَنًا وَحُسَيْنًا مِنَ الْوُفُودِ مَعَكَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَا سَوَّلَتْ لَهَا أَنْفُسُهُمَا ، وَغَرَّمَا بِهِ مَنْ هُوَ عِنْدَ الْبِأْسَاءِ يُسْلِمُهُمَا^(١٠) ، وَإِيمَ اللَّهِ لَوْ وَلِيْتُهُمَا لِأَدَابِ^(١١) فِي الرَّحْلَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمَا ، وَلَقُلْ بِمَكَانِهِمَا كَبُتُّهُمَا » .

١٠٠ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إِذْنُ اللَّهِ يَقْصُرُ دُونَهُمَا بِأَعْيُنِكَ ، وَيَضِيقُ بِهِمَا ذِرَاعُكَ ، وَلَوْ رُمِتْ ذَلِكَ لَوَجَدْتَ مِنْ دُونِهِمَا فِتْنَةً صِدْقًا صَبْرًا^(١٢) عَلَى الْبَلَاءِ ، لَا يَخِيْمُونَ عَنِ الْإِقَاءِ ،

-
- (١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش عليّ على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش عليّ أن تكون له الغلبة .
 (٢) جمع مثلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .
 (٤) المرققة . (٥) خام عنه يخيم : جبن وفكص . (٦) جمع مهجة ، وهي الدم أو الروح .
 (٧) ربيع كنع : وقف وانتظر وتعبس ، وظلّ ظلما كنع : غمز في مشيه ، وأربع على ظلمك أي أنك ضعيف فأنته عملا تطيقه واسكت على مانعك من عيب . (٨) الصفد : التقيد ، وفي الأصل « كالمغرور في صفد » وأراه « كالمقرون في صفد » . (٩) أي يصمد ويعلو : رقاً في الدرجة صمد : يقال رقأت ورقيت (كرضيت) وترك الهزمة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتعبا .
 (١٢) أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمين جمع صدوق وصبور .

فَلَمَرَ كُوكَ بِكَلَالِهِمْ^(١) وَوَطِئَتْهُ بِمَنَاسِمِهِمْ^(٢) وَأَوْجَرَتْهُ^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشَفَّارَ^(٤) سِيوفِهِمْ ، وَوَحَزَّ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَتَبِينَ ضِيَاعَ الْحَزْمِ فِيمَا جَنَيْتَ ، فَحَذَارِ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأَمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بَعْدَ صَلَاحِهِمَا ، وَسَعْيًا فِي اخْتِلَافِهِمَا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهَا إِبْسَاسُكَ^(٥) ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمَا إِبْنَسَاكَ .

١٠١ — مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أُمِّ الْحَكَمِ :
« اللَّهُ دُرُّ ابْنِ مُلْجَمٍ^(١) ، فَقَدْ بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَأَمَّنَ الْوَجَلَ ، وَأَحَدَ الشَّفَرَةَ ، وَالْأَنْزَلَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَفَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعُلْيَا ، وَرَقِيَ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى » .

١٠٢ — جواب ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :
« أَمَّا وَاللَّهِ لَأَقْدَرُ كَرَعَ^(٢) كَأْسَ حَتْفِهِ يَبْدُو ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بَرُّوْحَهُ وَلَوْ أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، لَخَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطِمْ^(٣) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْذِمُ ، وَلَآلَعَقَهُ صَابَا^(٤) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا^(٥) ، وَأَلْحَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ^(٦) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(٧) ،

(١) جمع كل كل وهو الصدر . (٢) جمع منم (كجلس) وهو خف البعير .
(٣) أوجره الرمح : طعنه به فيه ، والمشق : سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب مشوق : أى طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهى حد السيف . (٥) الإبسّاس : التلطف بالناقة وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (يفتح فسكون) تسكيناً لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام على . (٧) كرع في الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كقرح فهو قطم : اشتبهى الضراب . (٩) عصارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث السمين .
(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ أَخُوهُ ، وَقَدْ قَتَلَهُمْ عَلَى يَوْمِ بَدْر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

وأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَّى بِالسَّيْفِ هَامَهُمْ ^(١) ، وَرَمَلَهُمْ ^(٢) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَّى الْقَذَابَ أَشْلَاهُمْ ^(٣) ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ، أُولَئِكَ حَصَبٌ ^(٤) جَهَنَّمَ لَهَا وَارِدُونَ ، فَهَلْ تُحْسِئُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ^(٥) ؟ وَلَا غَرْوًا لِمَنْ خُتِلَ ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ ، فَإِنَّا لَكَمَا قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّعَّةِ :

فَإِنَّا لَلْحَمُ السَّيْفِ غَيْرَ مُبْكَرٍ . وَنُلْحِمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرٍ ^(٦)
يُفَارِ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فَيُشْتَفَى . بِنَا إِنْ أَصَبْنَا أَوْ نُغَيِّرَ عَلَى وَتْرِ ^(٧)

١٠٣ — مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَى عَالِيٍّ بِالنَّصِيحَةِ ، فَأَثَّرَ رَأْيَهُ ، وَمَضَى عَلَى غُلَّائِهِ ^(٨) ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنْ خَلَقَهُ يَقْتَدُونَ بِمَنْهَجِهِ » .

١٠٤ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِوُجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحَزْمِ ، وَتَصْرِيفِ الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) هام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) رمل الثوب : لعلنه بالدم ، ويجوز أن يكون وزملهم أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أشلاه : جمع شلو ، وهو المضو ، وقرى الضيف قرى (بالكسر) : أضافه . (٤) الحطب ، وما يرى به فى النار . (٥) الصوت الخفى .

(٦) ألحمه : أطعمه اللحم . (٧) الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلو ، وذلك أن المغيرة جاء عليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصيح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عاملك هذا ، فاكتب إليهم بأثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايعوا لك ، واطمأن =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وُفِّقَ على ذكر مبین وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا » . وهل كان يسوغ له أن يُحَكِّمَ في دماء المسلمين ، وُفِّقَ المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موقوف به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّنَ خلافَ ما يُظْهِرُ إِلَّا لِلتَّقِيَّةِ^(٢) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المصلّت^(٣) في أمر الله ، مُؤَثِّرًا لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٥ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يَا بَنِي عَبَّاسَ ، إِنَّكَ لَتَنْطَلِقُ بِلِسَانِ طَلِيقٍ^(٤) ، يَنْبِئُ عَنْ مَكْنُونِ قَلْبٍ حَرِيقٍ^(٥) ، فَاطُورٍ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ كَشْحًا^(٦) ، فَقَدْ مَحَا ضَوْءَ حَقِّنَا ظُلْمَةَ بَاطِلِكُمْ » .

= أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبييت فانزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعل : فإن بايع لك فعل أن أقلعه من منزله ، فقال على : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (يسكون اللام وكسرهما) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « الحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق النار (بفتحتين) فيلتهب ، والحرق محرّكة : النار ولهبها ، وفي الحديث « الحرق والفرق والشرق شهادة » وحرّق شعره كفرح : ققطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صَفَّتْ القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحبة إليكم ، منذ نأت بالبعضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سَخِطْتَ بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ (١) الأيامُ نستقصِ ما شذَّ عنا ، ونسترجع ما ابتزَّ (٢) منا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على المعتدين علينا » .

١٠٧ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحَزَازَاتٍ يابني هاشم ، وإني لخليق أن أدرك فيكم الثَّار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قَبِلَكم ، وظَلَّامَتنا فيكم » .

١٠٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمتَ ذلك يا معاوية كَثِيرُونَ عليك أسداً مُخْدِرَةً (٣) ، وأفاعى مُطْرِقَةً ، لَا يَفْتَوُّهَا (٤) كثرة السلاح ، وَلَا تَعْصِمُهَا نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ،

(١) أداله الله من عدوه : فصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزِمَ الأجمة ،

وأخدر للعرين الأسد : ستره فهو مخدر (يكسر الدال وفتحها) . (٤) فتأ الغضب كنع : سكته وكسره ، والقدر سكن غلبانها .

يَضْرِبُونَ قُدُمًا قُدُمًا مِنْ نَاوَاهُمْ^(١) ، يَهُونَ عَلَيْهِمْ نُبَاحُ السُّكَّالِبِ ، وَعُجُوءُ الْقُنَابِ ،
لَا يُفْقَاتُونَ بَوْتِرَ ، وَلَا يُسْبِقُونَ إِلَى كَرِيمٍ ذَكَرَ ، قَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، وَسَمِعَتْ
بِهِمْ إِلَى الْعِلْيَاءِ مَمْسُومٍ ، كَمَا قَالَتِ الْأَزْدِيَّةُ :

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْهِجَابَ فَلَا ضَرْبَ يُنْهِنُهُمْ وَلَا زَجْرَ^(٢)
وَكَانَهُمْ آسَادُ غِيْنَةٍ قَدْ غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتُونَهَا الْقَطَرُ^(٣)

فَلَتَكُونَنَّ مِنْهُمْ بِمِثْلِ لَيْلَةِ الْمَرْبِ لِهَرَبِ فَرَسِكَ ، وَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّكَ سَلَامَةُ
حُشَّاشَةٍ^(٤) نَفْسِكَ ، وَلَوْلَا طَعَامُ^(٥) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَبَذَلُوا دُونَكَ
مُتَجَهِّمٍ ، حَتَّى إِذَا ذَاقُوا وَخَرَ الشَّفَّارَ ، وَأَيَقَنُوا بِمَجْلُولِ الدَّمَارِ ، رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ مُسْتَجِيرِينَ
بِهَا ، وَعَانِدِينَ بِعَصَمَتِهَا ، لَكُنْتُ شَلَوًا مَطْرُوحًا بِالْعَرَاءِ^(٦) ، تَسْفِيْ عَلَيْكَ رِيَّاحُهَا^(٧) ،
وَيَعْتُورُكَ ذُنَابُهَا ، وَمَا أَقُولُ هَذَا أُرِيدُ صَرْفَكَ عَنْ عَزِيْمَتِكَ ، وَلَا إِزَالَتِكَ عَنْ مَعْقُودِ
نَبِيِّتِكَ ، لَكِنَّ الرَّحِمَ الَّتِي تَعْطِفُ عَلَيْكَ ، وَالْأَوَاصِرَ^(٨) الَّتِي تَوْجِبُ صَرْفَ النَّصِيْحَةِ إِلَيْكَ .
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « اللَّهُ دَرَكُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، مَا تَكْشِفُ الْأَيَّامُ مِنْكَ إِلَّا عَنْ سَيْفٍ صَقِيلٍ ،
وَرَأَى أَصِيلًا ! وَبَاقَهُ لَوْلَمْ يَلِدْ هَاشِمٌ غَيْرَكَ ، لَمَّا نَقَصَ عِدْدهُمْ ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِكَ سِوَاكَ
لَكَانَ اللَّهُ قَدْ كَثُرَ » ! ثُمَّ نَهَضَ فَقَامَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَانْصَرَفَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام ، وناوَاهُمْ : عَادَاهُمْ . (٢) نَهْنَه عَنْ الْأَمْرِ : كَفَهُ وَزَجَرَهُ .
(٣) الْغِيْنَةُ : بِالْكَسْرِ الْأَجْمَةُ ، وَالْغِيْنَةُ بِالْفَتْحِ : الْأَشْجَارُ الْمُتَلَفِتَةُ فِي الْجِبَالِ وَفِي السَّهْلِ بِلَا مَاءٍ ، فَإِذَا
كَانَتْ بِمَاءٍ فَهِيَ غِيْضَةٌ ، وَغَرِثٌ : كَفَرَجٌ جَاعٌ فَهُوَ غَرِثَانٌ . (٤) الْحُشَّاشَةُ : بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ وَالْجَرِيحِ .
(٥) الطَّعَامُ : أَوْغَادُ النَّاسِ . (٦) الْعَرَاءُ : الْفَضَاءُ لَا يَسْتَوِي فِيهِ شَيْءٌ . (٧) سَفَتُ الرِّيحِ
الْتَرَابَ تَسْفِيهِ : ذَرْتَهُ ، أَوْ حَمَلْتَهُ . (٨) فِي الْأَصْلِ « وَالْأَوَامِر » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَتَيْنِ ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَتَّأَكَ مَا بِيَدِ غَيْرِهِ ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوى لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطى مصرا فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام هل فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر اعمرو ماهاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وببتييره وعنايه وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالطا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا مَنَنْتُ إلا بالفجور والغش ، وذكرت مشاهدك بصفين ،
فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نَكَيْتَنَا^(١) فيها حربك ، ولقد كَشَفْتَ فيها
عورتك ، وإن كنت فيها لَطَوِيلَ اللسان ، قصير السَّنان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُها إلى خير ، وأخرى لا تَقْبِضُها عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه مُوحِش ، ووجه مُؤَنِّس ، ولعمري إن من باع دينه بدنياه غيره لَحَرَى أَنْ
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خَطَل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ — رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قريش أثقلُ على مسألة ، ولا أصرُّ جواباً منك ،
ولو استطعتُ ألا أجيبك لفعلت ، غير أني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله
نفسى ، ولم أنس نصيبى من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تُعَلِّمُ الْقَوَانُ
أَخْلَمَرَةَ^(٢) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له ، وأما خفة وطأني
عليكم بصفين ، فلما استنقلتم حياتي واستبطلتم وفاتي . وأما الجبن فقد علمت قريش أني
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، ولناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر
سبع سنين ، وعلى أن حل عمرو للسمع والطاعة لمعاوية ، وتوثاقا وتماهدا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهدا ،
ثم مضى عمرو بن العاص حل مصر واليا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوافقه مامكث بها إلا متنين
أو ثلاثا حتى مات . (١) ثكى العدو نكبة : قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختيار ، واختمرت المرأة ، لبست الحمار بكسر الخاء
(الطرحه) يضرب الرجل المجرّب .

لسانى طويل فاحترس من شِدَاتِهِ عليك ، وسيفى من لسانى أطول^(١)
وأما وجهائى ولسانائى ، فإنى ألتى كلَّ ذى قدر بقدره ، وأرجى كلَّ ناجٍ بحجره ،
فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جهل قدره كفيقه نفسى ، ولعمري ما لأحدٍ من
قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشمٍ مالى أراكم كأنكم بى اليوم جهالٌ ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى سريعٌ إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعو « نزالٍ » طبيعةٌ جُبِلْتُ عليها ، والطباع هو الجبل^(٢)
وأنى فصَلْتُ الأمر بعد اشتباهه بدوامةٍ إذا عيا على الحكم الفصل^(٣)
وأنى لا أعيا بأمر أريده وأنى إذا عَجَّتْ بكاركم ففعل^(٤)

(المعتمد الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ — عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حجج عمرو بن العاص قرّةً بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هَيِّية
الناس له ، وموقعه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى وليتنى
القَصْرَة^(٥) ، وكان بين عينيك دَبْرَة^(٦) ، وإذا كنت فى ملأ من الناس كنت

(١) الشدة : الحدة ، والشذا والشذا بالذال والذال : حد كل شيء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ،
والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع
فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة
الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال
لعنق الإنسان كله قصرة ، والمعنى وليتنى عنقك لإمرأى عني . (٦) الدبرة : بسكون الباء وفتحها الخزيمة
فى القتال : وهو اسم من الإدهار والمراد بها هنا الإفشاء وعدم الإقبال .

الهُوَاهُةُ^(١) أَلْهُمَزَةً ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللثام الفَجَرَةِ ، وقریشُ السَّكرامِ
الْبَرَّةِ ، لا ينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس أعلاماً ،
وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قریش واست منها ، فأنت الساقط بين فراشين ،
لا في بني هاشم رَحْلُكَ ، ولا في بني عبد شمس راحلتك ، فأنت الأثيم الزَّئِيمُ^(٢) الضَّالُّ
المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بجمله ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو :
أما والله إنى لمسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ،
وحيث سلك قصدنا .
(المقد للفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر
منا ومنكم ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا ، واسنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس
هذا الأمر بمد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون ، وأنت هو .
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زَبَّانِ الْفَزَارِيَّةِ ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أتدريين من معك في حَجَلَتِكَ^(٣) ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

(١) قال صاحب اللسان : وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهُةُ أَلْهُمَزَةً » الهوَاهُةُ : الأحمق ،
وقال أيضا : « رجل هوَاهٍ وهوَاهَةٌ وهوَاهٌ بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هوَهة بضم الأول
جبان أيضا . (٢) الزَّئِيمُ : المستلحق في قوم ليس منهم والدعى . (٣) الحجلة : كالقبة ، وموضع يزين
بالثياب والستور للعروس .

العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : مملك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بنى عبد مناف حَضَرَكَ ، لقال لك خِلاف قَوْلِكَ ، فغضب وقال : الطعام والشراب على حرام حتى أَحْضَرَكَ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطقنتى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك ، فخرج إلى المسجد فرأى حَلْفَةً فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحَصَيْن بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أَحِبُّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته ، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرَحى عليك سِتْرَكَ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فَيَغْدَى^(١) القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتكم لحديثٍ رَدَّته على صاحبةُ السرِّ ، وزَعَمْتُ أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أَقَرُّ لى بما قلت ، وقد حضرتهم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خِدْرِها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردَّت على مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قَصَدْتَ قَصْدِي ، فإن شئت أن أقول قلتُ ، وإن شئت أن أكفَّ كَفَفْتُ . قال : بل قل وماءسى أن تقول ؟ أأست تعلم أن أبى الزبيرَ حوَارِيٌّ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين^(٣) ؟

(١) تغذى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للمفطر) . (٢) الحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عتي » وحوارى من أمى . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهري : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداًداً لزيدهما . وجاء فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمى خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي^(١) ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وغزراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أوتى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ راماهما^(٢) ، أشدكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرُنِي يَا بْنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

= بمكة ناداه وليك يابن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحلك الله ما يقول القوم ، وما يدعونني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتم نعمهم الله ! فإجهلهم ! وأصعب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخر لك عندهم ، قال : وما ذاك يا أماء ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلبها شيئا بربطائها به فاجدها ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاما لقربته . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارحتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتني ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماهما إنا إذا مانفة تلقاها
ترد أولاهم ١ على أخراهم

تم انتزع له بسهم ، فشك به فواده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَائِلِ^(١)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افترقت فرقتان إلا
 كنتُ في خيرهما » فقد فارقناك من بعد قُصَى^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟
 إن قلتَ نعم خُصِمْتُ ، وإن قلتَ لا كُفِرْتُ ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير :
 أما والله لولا تحرُّمُكَ^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت^(٤) جبينك قبل أن تقوم من
 مجلسك . قال ابن عباس : وَلِمَ أَيْبَاطُ ؟ قال باطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق
 لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ،
 فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقْنَعِي بَيْعَلِكِ ، فما أعظمَ الخطرَ ، وما أكرمَ الخبرَ ،
 فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد غمى ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفضحتك غير
 مرة ، فنهض وقال :

أَلَا يَا قَوْمَنَا ارْمَحُوا وَسِيرُوا فلو تُرِكَ الْقَطَا لَفَنَّا ونأما^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أَقْبِلْ هَلِي ، فما كنتَ لَتَدْعَنِي حتى أقول :
 وَأَيْمُ اللَّهِ لقد عَرَفَ الْأَقْوَامُ أَنِي سَابِقٌ غَيْرُ مَسْبُوقٍ ، وابن حَوَّارِيٍّ وَصِدِّيقٍ ، مُتَّبَعٌ^(٦)
 فِي الشَّرَفِ الْأَنِيقِ ، خَيْرٌ مِنْ طَلِيْقٍ^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِفَتْ

(١) الأصائل: جمع أصيل، وهو العشي « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده

عبد العزيز بن قصي (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصي (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه

بحرمة : تمنع وتحمي بذمة . (٤) أى ذكرت لك من المساوى ما يروق له جبينك ويندى خجلا .

(٥) غفا وأغنى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبعك به : إذا افتخروا بمعلم، وأرجح أنه «متبجح»

من تبجح : أى تمكن في المقام والحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع

المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروى

أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ منى للفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهوني ، فقال له صلى الله

عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا .

بِحُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنت سابقاً فإلى من سبقت ؟ وإن كنت فاحراً فبمن فخرت ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَشْكُثُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطليق ، فوالله لقد ابتلي فصبراً ، وأنعم عليه فشكر ، وإن كان والله لوفياً كريماً ، غير ناقض ببيعة بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأمر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجين ؟ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كره ، وحارب فما صبر ، وباع فما تمّم ، وقطع الرحيم ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرّى الكرام وبلداً
وما كان إلا كالمهجين أمامه عتاق ، فجراه العتاق فأجهداً^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبق يابى هاشم غير المشاتمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

(١) الجرة بالضم . والفتح : مصاً تربط إلى حباله ، تغيب في التراب للظبي يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا هملت يده في الحباله انمقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت في حبالتك ، وعاد ما فخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً للنفخ العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت بحجرتك » من رصمه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجبتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكشكث (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة .

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم فكث بيعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

(٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلاً

ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق : أى كريم والجمع عتاق ، وفى الأصل « عتاق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقمناه هناك يا بن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغَب^(١) الظَّمآن ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَغَب^(٢) ، ولا يَرَوِي مِنْ عَطَش ، قُلْ إِنْ شِئْتَ أَوْ فَدَّعْ ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مَرْوَان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتُوضَع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أُحْدِثَتْ تَجَاهُ^(٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إِنْ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ غُلَطًا وَقَلْبَةً وَمُغَالَبَةً ، أَلَا إِنْ شَأْنُ أَبِي بَكْرٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُقَالَ فِيهِ هَذَا ! وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَوْلَا مَا وَقَعَ لَكَانَ الْأَمْرُ لَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَثْبَتَ إِيمَانًا ، وَلَا أَعْظَمَ سَابِقَةً مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَيْنَ هُمْ حِينَ عَقَّدَ أَبُو بَكْرٍ لِعَمْرٍ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا قَالَ ، ثُمَّ أَلْقَى عَمْرٍ حَظَّهُمْ فِي حِظْوِظ ، وَجَدَّاهُمْ فِي جَدُود ، فَقَسَمْتَ تِلْكَ الْحِظْوِظَ ،

(١) الجائع . (٢) جوع . (٣) تجاهه ووجاهه مثلثين : تلقاء وجهه .

فَأَخْرَجَ اللَّهُ سَهْمَهُمْ ، وَأَدْحَضَ جَدَّهُمْ ، وَوَلَّى الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ مِنْ كَانَ أَحَقَّ بِهِ ^(١) مِنْهُمْ ، فَخَرَجُوا عَلَيْهِ خُرُوجَ اللَّصُوصِ عَلَى التَّاجِرِ خَارِجًا مِنَ الْقَرْيَةِ ، فَأَصَابُوا مِنْهُ غَرَّةً ^(٢) فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ قَتَلَهُمُ اللَّهُ بِهَ كُلِّ قِتْلَةٍ ، وَصَارُوا مَطْرُودِينَ تَحْتَ بَطُونِ الْكُوكَبِ .

١١٥ — مقال ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « عَلَى رِسَالِكَ ^(٣) أَيُّهَا الْقَاتِلُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو وَالْخِلَافَةُ ، أَمَا وَاللَّهِ مَا نَالَا وَلَا نَالَ أَحَدٌ مِنْهُمَا شَيْئًا ، إِلَّا وَصَاحِبُنَا خَيْرٌ مِنْ نَالَا ، وَمَا أَنْكَرْنَا تَقَدُّمَ مَنْ تَقَدَّمَ لِعَيْبِ عَيْنَاهُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ تَقَدَّمَ صَاحِبُنَا لَكَانَ أَهْلًا وَفَوْقَ الْأَهْلِ ، وَلَوْلَا أَنْكَ إِنَّمَا تَذْكُرُ حَظَّ غَيْرِكَ ، وَشَرَفَ أَمْرِي سِوَاكَ لَكَلِمَتِكَ ، وَلَكِنْ مَا أَنْتَ وَمَا لَاحِظُكَ فِيهِ ؟ اقْتَصِرْ عَلَى حَظِّكَ ، وَدَعِ تَيْبًا لَتَيْمٍ ، وَعَدِيًّا لَعَدِيٍّ ^(٤) وَأُمِّيَّةً لَأُمِّيَّةٍ ، وَلَوْ كَلْنِي تَيْبِي أَوْ عَدَوِي أَوْ أُمُوِي ، لَكَلِمَتِهِ وَأَخْبَرْتَهُ خَيْرَ حَاضِرٍ عَنْ حَاضِرٍ ، لَا خَيْرَ غَائِبٍ عَنْ غَائِبٍ ، وَلَكِنْ مَا أَنْتَ وَمَا لَيْسَ عَلَيْكَ ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى شَيْءٌ فَهُوَ لَكَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَنَحْنُ أَقْرَبُ بِكَ عَهْدًا ، وَأَبْيَضُ بِكَ يَدًا ، وَأَوْفَرُ عِنْدَكَ نِعْمَةً ، مِمَّنْ أَمْسَيْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ تَصُولُ بِهِ عَلَيْنَا ، وَمَا أَخْلَقَ ثَوْبٌ صَفِيَّةً بَعْدُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ — خطبة عبد الله بن عباس

يُرَدُّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَقَدْ عَابَ بَنِي هَاشِمٍ

لَمَّا كَاشَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَأَظْهَرَ بَعْضَهُمْ وَعَابَهُمْ ، وَهُمْ بِمَا هُمْ بِهِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَلَمْ يَذْكُرْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي خُطْبِهِ ، لَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَا غَيْرَهَا ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضي الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام علي كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرفق والتؤدة . (٤) تيم ردهط أبي بكر الصديق ، وعدي وهط عمر الفاروق .

عانبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءوا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثر منه ، لكنني رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشرأبوا^(١) وانحرفت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سرورًا وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم نارا ، فإني لا أقتل منهم إلا آثما كنفارا سحارا ، لا أنمام الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيرا ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال : « وفكك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : والله ما قلت صوابا ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغه الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضبا ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأعجبا كل المعجب ، لافترائه وتكذيبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

(١) اشرب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال

استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئا ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضا صاحب السر المطلع على

باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالساع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وَحَمَى عِزَّتِ^(١) قَرِيْشَ لَهَا شَيْمٌ ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَمَلَ بَابِ الْكَعْبَةِ

= كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفينة ثريد، ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجل الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يشتم الخبز ثم يصب عليه المرق ويُفْرِغ عليه اللحم — وإنما كانت العجم تصب المرق في الصَّحَاف ثم تأتدم بالخبز — فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجِبَ به، فكان يبعث إليه في كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: «أيها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من أدام الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم» فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، إنما هو أمان الطريق — وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع، فيكفونهم حتملائها، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجرّوزهم؛ يترفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردتهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بغزة، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجرّ إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفَيْض، وهلك برَدَّمان من اليمن، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب، وهلك عبد شمس بمكة فقبّره بالحَجَّجُون، وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافاً ممن مر به من العرب، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسَلْمان، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام» — ذيل الأمل ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة: بلا واحد من لفظها، أو كل ما متير عليه إبلا كانت أو حيرا أو

يفالا وجمعه كمنيات ويسكنه .

ذَهَبًا ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ^(١) وَاللَّهِ لَقَدْ نَشَأْتُ نَاشِئَتًا مَعَ نَاشِئَةِ قُرَيْشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاءَ لَتَهُمْ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وَخَطَبَاهُمْ إِذَا خَطَبَوْا ، وَمَا عُدُّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ مَجْدٌ لغيرنا ، لَأَنهَا فِي كُفْرٍ مَاحِقٍ ، وَدِينٍ فَاسِقٍ ، وَضِلَّةٍ وَضَلَالَةٍ^(٣) فِي عَشَوَاءِ^(٤) عَمِيَاءَ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَانْتَجَبَهُ^(٥) طَيْبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَغِّى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدُنَا وَوَلَدُنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنَّا وَابْنُ عَمَّنَا^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلَحْمَتُنَا^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَخِيرُ النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَحِمًا .

وَاعْجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لَابْنِ الزَّيْبِرِ ! يَعِيبُ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنَّمَا شَرُفٌ هُوَ وَأَبُوهُ وَجَدُّهُ بِمَصَاهِرَتِهِمْ ، أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمُصْلُوبٌ قُرَيْشٍ ، وَمَتَى كَانَ الْعَوَّامُ بْنُ خُوَيْلِدٍ يَطْمَعُ فِي صَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟ قِيلَ لِلْبَغْلِ : مَنْ أَبُوكَ يَا بَغْلُ ؟ فَقَالَ : خَالِي الْفَرَسُ « ثُمَّ نَزَلَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ كَمَا أَعْمَى بَصَرَهُ ، يَزْعُمُ أَنَّ مُتَعَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنْ

(١) قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفونا ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة بحركة : موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف بابا للكعبة ، وضرب في الباب الفزاليين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل للكعبة » تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ «
(٢) القالة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة : ضد الهدى . (٤) أى في جهالة وقتة عشواء ، من العشى (كصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهي عشواء (والعشواء أيضا الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كل شيء ، لأنها ترفع رأسها فلا تتمهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعنى الإمام عليا كرم الله وجهه .
(٧) اللحم : القرابة .

الله ورسوله ، وَ يُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمْلَةِ ، وقد احتمل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون^(٢) النوى ، وكيف أُلُومُهُ في ذلك : وقد قاتل أم المؤمنين وَحَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت أستملكك ، ولكن أخشى أن تستحل لقيء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » ، واستحل لقربائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت بحملا ، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى على كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسعني كتابتك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب على إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حمايك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكتب إليه على : « إنه لا يسعني تركك » حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عمك من أحببت ، فأني ظاعن منه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبذلت الكتب بين على وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله لئن لم تدفني من أساطيرك لأحملته إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه على ، - انظر المقد الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل على حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة منها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يرتضخون أى يكسرون الخبز فإيا كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرتضخ لسكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله عن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١٢٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمه - وكان ابن عباس قد كفّ بصره - استقبل بى وجه ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فحسّر عن ذراعيه ، ثم قال : « يا ابن الزبير :

قد أنصف القارة من رامها إننا إذا مافئة نلقاها
نردّ أولاهها على أخراها حتى تصير حرضا دغواها^(١)

يا ابن الزبير : أما العى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتياى فى القملة والنملة ، فإن فيها حكمين لاتعلمهما أنت ولا أصحابك . وأما حلى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقنا ، وأما المتمة فسل أمك أسماء إذ نزلت عن بُردى عوسجة ، وأما قتالنا أم المؤمنين ، فبنا سُميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك^(٢) إلى حجاب مدّه الله عليها ، فهتكاه عنها ، ثم اتخذاه فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلائلها فى بيوتهما ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفاً ، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا مكان صفية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركتُ لبني أسد بن عبد العزى عظما إلا كسرتة .

(١) الخرض : الفساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبوبكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جعله خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنْهَكَ عن ابن عباس ، وعن بني هاشم ؟ فإنهم كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال : بَلَى وعصيتُكَ ، فقالت : يا بُنَيَّ احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأشْرِها ، فإياك وإياه آخِرَ الدهر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِمِكْرِمَةَ : أقم وجهي نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْفَى نَوْرَها ففى فؤادى وعقلى منهما نور

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خيرَ بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فَإِنْ كَانَ عَلَى مُؤْمِنًا فَقَدْ ضَلَّمتَ بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بُوِّئتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبى طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

(١) كعم البعير كنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يحمل على فاه ، والجمع كعم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخروسة تلجم أقواء مناظرهم .

(٢) بدده يأمر كنعته : استقبله به أو بدأ به . (٣) جاء فى المصباح المنير : « المتعة اسم الفتح ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت فى العقد ، وقال فى العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخل سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل فى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فَاِستمتعتم » فأنكحتم على الشريطة التى فى قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتعتم بكذا وتمتعتم : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعاً » اهـ .

وأول مجمر^(١) سَطَعَ في الْمُتَمَّةِ جَمْرَ آلِ الزَّبِيرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ٤م : ٤٨٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاصِ إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأَنَّهُ اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تظهر لنا من مَنَقَبَتِهِ^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وغَشِبَهُم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهارا غير سائرٍ له وتَلَبَّه تَلَبًّا^(٤) قبيحاً ، فامْتَقِع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكَل^(٦) ، حتى أُرْعِدَت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالقنيق^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أم لك ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم سمى بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتعها بما تعلى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه . »

(١) المجمر : المود ، واستجمر بالمجمر : تبخر بالمود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عفى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلناً ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) تلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكل : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهي لحم الفخذين والعصدين والذراعين ، أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

(٨) القنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حَتَّامٌ تَجَرَّعَ غِيظَكَ ، وإلى كم الصبر على مكروه قولك ، وسيُ أدبك ،
وذمِمَ أخلاقك ، هَبَلَتْكَ الهَبُولُ (١) ، أما يزجرك ذِمَامُ (٢) المجالسة عن القَذَعِ (٣) لجليسك
إذا لم تكن لك حُرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أو اصيرُ (٤)
الأرحام ، أو حاميت على سهمك من الإسلام ، ما أرعيت بنى الإماء المُتَكَ (٥) ، والعبيدِ
السَّكِّ (٦) أعراض قومك ، وما يحبل موضع الصفوة (٧) إلا أهل الجفوة ، وإنك لتعرف
وشائج (٨) قريش ، وصفوة غرائزها ، فلا يدعوك تصويب مافراط من خطئك في سفك
دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذى فيما قد وضع لك الصواب في خلافه ،
فاقصِدْ لمنهج الحق فقد طال عمهك (٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في دَجُور (١٠) ظلمة
الغى ، فإن أبيت أن لاتتابعنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعِفْنَا عن سوء القالة (١١) فينا ،
إذا ضَمَّنَا وإياك الندي (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا
ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما سئرت منى
من خلق . »

(١) هبلته أمه : ثكلته ، والهبول : المرأة لا يعيش لها ولد . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قذعه وأقذعه :
رماه بالفحش وسوء القول . (٤) جمع آصرة ، وهى القرابة وحبل صغير يشده أسفل الخباء . (٥) المتك : جمع
متكاه (كحمراء) وهى البطراء والمفضاة ولقى لاتمسك البول . (٦) السك جمع أسك من السكك (محركة) ،
وهو صغر الأذن وازوقها بالرأس ، أو صغر فوف الأذن وضيق الصباخ . (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .
(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحث فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع والقريب »
وامرأة وشيك : أى سريعة « فلو جعلنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ،
وأراء محرفا عن « وشائج » بالجيم . جمع وشيجة ، وهى عرق الشجرة ، فعنى وشائج قريش أصولها وعروقها
« والعرق أصل كل شيء » أى وإنك يامعاوية لتعرف أصول قريش للكرمية الزاكية التى تأبى الضيم ولا تحتمل
الثلب والإهانة « والوشيج أيضا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق « مشتقة من رسول الله
غيبته » - والنبي : شجر تتخذ منه القسي والسهام . (٩) أئمه محركة : التردد فى الضلال .
(١٠) الديجور : الظلام . (١١) القول فى الخير ، والقال والقليل والقالة فى الشر . (١٢) النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغَيِّر الخطأ ، أقسمت عليك لتَجْلِسَنَّ ، لمن الله من أخرج خَبَّ صدرك من وَجَّارِهِ^(١) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن مُحْتَدِكُ^(٢) ومنصِبِك لكان خُلِقَكَ وَخُلِقَكَ شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما في ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا في المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكأنه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيهُ وَخُلِقَهُ وَخُلِقَهُ ، وإنه لمن مِشْكَاة^(٣) ، لو دِدْتُ أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنك ازدراك واستحقرك ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له جوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن عليّ رضي الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : الكوة التي ليست بنافذة .

(٤) أفه : وصف من الفهامة ، وهي التي ، وفعله فهو كفرح ، وقياس الوصف منه أفه على أفعل لأنه

يدل على خلقته « عيب » كعمور وعمرى وعرج ، ولكن الذي في كتب اللغة : فهو كعذب وفيه وفهفه .

طلبتم ابنا لنبيكم ما بين جابر من إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيري وغير أخى : (وإن أدرى
أقله فتنه لكم وممتع إلى حين) فساء ذلك عمرا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنمت الرطب^(٢) ؟ فقال : « أجل تلقحه الشمال ، وتخرجه الجنوب ،
وينضجه برؤ الليل ، بحرّ النهار^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نعم ، تبعد الممشى في الأرض الصصح^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل
القبلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنجد بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبلى في الماء الراكد »
وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإني أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بآلق ، ولكننا ممشرون بني هاشم ، أفواها عذبة

(١) جابر من : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه
بسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراء أنسى ، وفي العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لايتها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تعجيزا له . (٣) وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرى كسمع
خرارة بفتح الخاء وكسرها : سلح . (٥) الصصح : ما استوى من الأرض . وفي العقد الفريد
« للصحيح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَنَسَاؤُنَا يُتَقَبَّلْنَ عَلَيْنَا بِأَنْفَاسِهِنَّ وَقُبُلِهِنَّ ، وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ بَنِي أُمَيَّةَ فِيكُمْ بَخْرٌ^(١) شديد ، فَنَسَاؤُكُمْ يَصْرِفُنْ أَفْوَاهَهُنَّ وَأَنْفَاسَهُنَّ عَنْكُمْ إِلَى أَصْدَاغِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعُ الْمِذَارِ^(٢) . مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ . قَالَ سُرَوَانُ : إِنْ فِيكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ خَصَلَةٌ سَوَاءٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْعُلْمَةُ^(٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ نِسَائِنَا ، وَوُضِعَتْ فِي رِجَالِنَا وَنُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوُضِعَتْ فِي نِسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأَوِيَّةَ إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْتَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ مَجْلِسَكُمْ » (العقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُغَاضِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ^(٤) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتُكَ ، وَمَا وَصَلَكَ ، وَلَا اصْطَنَعَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلُ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةُ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةُ وَحَفِظَهَا ، وَحَسُنَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُنِمَ وَأَفْسَدْتُمْ وَجُرُؤَتَهُ ، فَا كَفَفَ لَا أَبَالَكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعْزِلٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أَبَا يَزِيدَ ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٍّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) الْبَخْرُ : اللَّتْنُ فِي الْفَمِ وَغَيْرِهِ . (٢) الْمِذَارُ : جَانِبُ اللَّحْيَةِ .

(٣) الْعُلْمَةُ : شِدَّةُ الشَّهْوَةِ كَالشَّبَقِ بِالتَّحْرِيكِ . (٤) وَكَانَ قَدْ قَدَّمَ عَلَيْهِ بِالسَّكُوفَةِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ

يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنَهُ ، قَالَ : وَكَمْ دَيْنُكَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُونَ أَلْفًا ، قَالَ : مَا هِيَ عِنْدِي ، وَلَسْتُ أَصْبِرُ حَتَّى يَخْرُجَ عَطَائِي فَإِنَّهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَأُدْفَعُهُ إِلَيْكَ ، قَالَ : بَيَّوتَ الْمَالَ بِيَدِكَ وَأَنْتَ تَسْوَفُنِي بِعَطَائِكَ ؟ قَالَ : أَتَأْمُرُنِي أَنْ أَدْفَعُ إِلَيْكَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَتَمَّنُونِي عَلَيْهَا ؟ قَالَ : فَإِنِّي آتٍ مَعَاوِيَةَ ، فَأَذْنُ لَهُ فَقَدِمَ عَلَيْهِ « انْظُرْ أَسَدَ الْغَابَةِ ٣ :

٤٢٣ وَالْفَخْرِيُّ ص ٧٦ » أَقْرَأَ أَيْضًا كَلِمَةً فِي هَذَا الصَّدَدِ فِي شَرْحِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ م ٣ : ٨٢ . وَفِي تَرْجُمَةِ عَلِيٍّ

ابْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْمُؤَلِّفِ ص ٨٣ .

أَخِي آثَرَ دِينَهُ عَلَى دِينِي ، وَأَنْتِ آثَرْتَ دِينِي عَلَى دِينِكَ ، فَأَنْتِ خَيْرُ لِي مِنْ أَخِي ، وَأَخِي خَيْرٌ لِنَفْسِهِ مِنْكَ ^(١) .

وَقَالَ لَهُ مَرَّةً : « أَنْتِ مَعْنَا يَا أَبَا يَزِيدَ » قَالَ : « وَيَوْمَ بَدْرٍ قَدْ كُنْتُ مَعَكُمْ ! » .
وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : إِنْ عَلِيًّا قَدْ قَطَعَكَ وَوَصَلْتُكَ ، وَلَا يُرْضِيَنِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ تَلْعَنَهُ عَلَى
عَلَى الْمَنْبَرِ . قَالَ : أَفْعَلُ ، فَأَضْعِدُ فَضْعِدَ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ
إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ أَسْرَفَنِي أَنْ أَلْعَنَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَالْعَنُوهُ ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ثُمَّ نَزَلَ ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّكَ لَمْ تَبَيِّنْ - أَبَا يَزِيدَ - مَنْ
لَعَنْتَ بَنِي وَبَيْتَهُ . قَالَ : وَاللَّهِ لَا زِدْتُ حَرْفًا وَلَا نَقَصْتُ آخِرَ ، وَالْكَلَامُ إِلَى
نِيَّةِ الْمُكَلِّمِ .

وَدَخَلَ عَقِيلٌ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَقَدْ كَفَّ بَصَرَهُ ، فَأَجْلَسَهُ عَلَى سُرِيرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :
« أَنْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ » قَالَ : « وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي أُمَيَّةٍ تُصَابُونَ
فِي بَصَائِرِكُمْ » .

وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : مَا أَبِينَ الشَّبَقَ فِي رِجَالِكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَالَ : لَسَكُنْهُ فِي نِسَائِكُمْ
أَبِينُ يَا بَنِي أُمَيَّةَ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « يَا أَهْلَ الشَّامِ ، هَلْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ : (تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنْ أَبَا لَهَبٍ هُوَ ، فَقَالَ عَقِيلٌ : فَهَلْ سَمِعْتُمْ
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ^(٣)) قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهَا عَمَّتُهُ ، ثُمَّ

(١) وَفِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ : هَذَا أَبُو يَزِيدَ ، أَوْلَا أَنَّهُ عَلِمَ أَنِّي خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَخِيهِ لَمَّا أَقَامَ
عِنْدَنَا وَتَرَكَه ، فَقَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « أَخِي خَيْرٌ لِي فِي دِينِي ، وَأَنْتِ خَيْرُ لِي فِي دُنْيَايَ » . (٢) هُوَ أَبُو لَهَبٍ
ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْإِيْذَاءِ لَهُ ، يَرْمِي الْقَدْرَ عَلَى بَابِهِ .

(٣) هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ أُخْتُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَقِيلَ لَهَا حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ
الشُّوكَ وَالسَّعْدَانَ وَتُلْقِيهِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ ذَاكَ لَهَا وَكَانَتْ جَارَتَهُ ، أَوْ هُوَ الْفَيْعَةُ إِذْ كَانَتْ
تَسْمَى عَلَيْهِ بِالْفَهَامِ وَتَوَقَّعُ بِذَلِكَ نَارَ الْخُصُومَةِ ، أَوْ حَطَبَ جَهَنَّمَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْأَوْزَارَ بِمَعَادَاتِهِ ، وَتَحْمِلُ
زَوْجَهَا عَلَى إِيْذَانِهِ .

قال « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدِلْ ذات الِيسَارِ ، فإنك ستجد عمي أبا لُهب ، مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخَصْلَةً ما تُعجبني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لينٌ فيكم . قال : لينٌ ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعَيِّرُ يا معاوية ؟ أَجَلٌ والله إن فينا لَلِينًا من غير ضَعْف ، وعزا من غير جَبْرُوت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم غَدْر ، وعزكم كُفْر . قال معاوية : ما كلُّ هذا أردنا يا أبا يزيد .
وقال معاوية لعقيل : لِمَ جَفَوْتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إني امرؤ مني التَّكْرُمُ شِيمَةٌ إذا صاحبي يوما على المَوْنِ أَضْمِرَا
ثم قال « وایم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مَهْدَتِكَ مِهَادَهَا ، وأظَلَّتْكَ بِحَذَافِيرِ^(١) أهلها ، ومدَّتْ عليك أَطْنَابُ سُلْطَانِهَا ، ما ذاك بالذي يَزِيدُكَ مني رغبة ، ولا نَحْشًا لرغبة » قال معاوية : « لقد نَعِمْتُ يا أبا يزيد نَعْمَتًا هَشًّا لها قَلْبِي ، وإني لأرجو أن أن يكون الله تبارك وتعالى مارِدًا نِي بَرْداء مَلِكها ، وَحَبَّائِي بِفَضِيلَةِ عَيْشِها ، إِلَّا لِكِرَامَةِ أَدْخَرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإِنَّمَا هو لِلْمِثَالِ يُحْتَذَى عَلَيْهِ ، والأُمُورُ أَشْبَاهُ ، وایم الله يا أبا يزيد ، لقد أَصْبَحْتَ عَلَيْنَا كَرِيمًا ، وإِلَيْنَا حَبِيبًا ، وما أَصْبَحْتُ أَضْمِرُكَ إِسَاءَةً » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٠ — ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) الحذافير : جمع حذفور أو حذفار (كمصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٣٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت عليّ في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النِّسوة من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة جعلت نساؤها يلتدِمْنَ ^(١) ، ويهْتِكُنَّ أَلْجِيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ ^(٢) من المرض - يا أهل الكوفة إنكم تكون علينا ، فنُ قَتَلْنَا غَيْرُكُمْ ؟ وأومات أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهذأتِ الأجراس ^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيّ ^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهلِ الْخَلْرِ ^(٥) والْخَذَلِ ، لا ، فلا رَقَاتٍ ^(٦) الْعَبْرَةَ ، ولا هذأتِ الرِّفَّةَ ^(٧) ، إنما مثلكم كمثَلُ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ^(٨) ، تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا ^(٩) بَيْنَكُمْ ، ألا وهل فيكم إلا الصِّلَفُ ^(١٠) وَالشَّنْفُ ^(١١) ، ومَلَقُ ^(١٢) الإمام ، وَغَمْزُ الأعداء ، وهل أنتم

(١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وغربت صدرها في النياحة ، ويهتكُن : يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص .

(٢) كنع وعلم ونصر وكرم .

(٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدّي سيد المرسلين » .

(٥) الغدر والخديعة ، أو أقيح الغدر .

(٦) رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض . (٧) الرفة : الصوت .

(٨) أنكاثا : جمع نكت كعمل ، وهو مانقض ليغزل ثانية - حال من غزلها ، أو مفعول ثان لنقضت

لأنه بمعنى صبرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه .

(٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخِل من فساد في عقل أو جسم ، والغدر

والمسكر والخديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق

ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمترضى عليه ، أو كالمستعجب

منه ، أو كالسكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتنبكره . (١٢) ملق الجارية : مجامعها ،

أو هو ملق بالتحريك ، والملق : الملقق .

إِلَّا كَمَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفِضَةً عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَابْكُوا ، وَإِنَّا نَكْمُ وَاللَّهِ أُخْرِيَاءَ (٣) بِالْبُكَاءِ ، فَابْكُوا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرَضْنَا بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا (٤) وَلَنْ تُرْحَضُوا (٥) بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتِ تُرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبِيِّ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةِ (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧) نَازِلَتِكُمْ ، فَتَمَعَّسًا وَنُكْسًا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّعْيُ ، وَخَسِرَتِ الصِّفْقَةُ (٩) ، وَبُؤْتُمْ (١٠) بِغَضَبِ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَدْرُونَ أَيْ كَبِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيْ كَرِيمَةً لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيْ دَمَ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ (١٣) ، شَرُّهَا طِلَاعُ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أُنْفَعِجْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ؛ فَلَا سَمْعَفَنَكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفَظُهُ الْمُبَادَرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا لِهَمٌّ لِبَالِ الْمُرْصَادِ (١٦) » ثُمَّ

- (١) اللبنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول جدّها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .
- (٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جذبرون .
- (٤) الشنار : أقبح العيب . (٥) رخصه كنعه وأرخصه : غسله . (٦) دره عن القوم كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر وبضم الراء من روعك - أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تمسا له ونكسا ، بضم النون وقد يفتح ازدواجاً . (٩) البيعة . (١٠) رجعت . (١١) أي فظيماً منكراً . (١٢) يتشققن ، وتخِر : تسقط ، هذا : أي تهد هذا . (١٣) بها أي بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الخرق : وهو ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . (١٤) طلاع الشيء : ملؤه . (١٥) أي لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يقوته منها شيء .

ولت عنهم ، فظلّ الناس حيّاراً ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من بني جُعْفَى - وقد اخضَلَّت (١) لحيقته من دموع عينيه .

كَهُولُهُمْ خَيْرُ الْكُهُولِ وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَحْزَى

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٢٤ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وجّه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينسكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو يقول من أبيات (٢) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهِيدُوا جَزَعَ الْخُرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ (٣)

لَأَهْلُوا وَأَسْتَهْلُوا فَرَحًا ثُمَّ قَالُوا : يَا زَيْدُ لَا تَشَلْ (٤)

فَجَزَيْدَاهُم بِسَدْرِ مِثْلَهَا وَأَقْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاغْتَدَلْ (٥)

فقال زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! (ثم كان عاقبة الذين أساءوا الشؤءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكذاف السماء فأصبحنا نساقي كما يساق

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهو لعبد الله بن الزبير ، قالها في غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخروج : قبيلة من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ، وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست وهي جملة دعائية ، يقال في الدعاء : « لا تشل يدك ولا تكلل » -

والبيت من قول يزيد - . (٥) لاتنس ما قدمناه لك من أن علينا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان ببدر ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الْأَسَارَى ، أَنْ بَنَاهَوَانَا عَلَى اللَّهِ ، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةٌ ؟ وَأَنْ هَذَا لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ^(١) ، جَذْلَانِ فَرِحَا ، حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوْسِقَةً لَكَ ، وَالْأُمُورَ مُتَسِقَةً^(٢) عَلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِيتَتْ وَنُفِستَ^(٣) ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّامًا نُمَلِّى (٤) لَهُمْ خَيْرًا لِأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آيِنِ الْعَدْلُ ، يَا بِنِ الطَّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ^(٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ وَسَوَقُكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ هَتَكَتَ سَتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْنَثَاتٍ تَخْدِي^(٧) بِنِ الْأَبَاغِرُ ، وَيَحْدُو^(٨) بِهِنَ الْأَعَادَى ، مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ ، لَا يُرَاقِبْنَ وَلَا يُؤَوِّقْنَ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ^(٩) الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لِبَسِّ مَعْنٍ وَلِي^(١٠) مِنْ رَجَالِهِنَّ . وَكَيْفَ يُسْتَنْبَطُ فِي بَغَضَتِنَا مِنْ نَظَرِ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ^(١١) وَالشَّنَّانِ ، وَالْإِحْنِ وَالْأَضْغَانِ ؟ أَتَقُولُ « لَيْتَ أَشْيَاخِي يَدْرُسُهُدُوا » غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعْلَمٍ ؟ وَأَنْتَ تَتَكَتَّ ثَنَابًا أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بِمُخَصَّرَتِكَ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ^(١٣) الْقَرَحَةَ ، وَاسْتَأْصَلَتِ الشَّافَةُ^(١٤) ، يَا هَرَاكَ دِمَاءَ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنُجُومِ

-
- (١) أَيْ جَانِبَيْكَ ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ إِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ . (٢) مِنْ اسْتَوْسَقَتْ الْإِبِلُ : أَيْ اجْتَمَعَتْ ، وَتَسَقَّتْ : مُتَسَقَّةٌ . (٣) أَيْ فَسَحَ لَكَ فِي أَمْرِكَ ، مِنْ نَفْسِ اللَّهِ كَرِهَتْ : فَرَجَهَا . (٤) نُمَلِّى . (٥) صَوْتُهُنَّ فِي خِلْوَرِهِنَّ . (٦) أَبْجَحْتَهُ ، صَحَلْ صَوْتَهُ كَفَرَجَ : بَجَحَ . (٧) خَدَى الْبَعِيرَ وَالْفَرَسَ كَجَرَى : أَمْرَعُ وَزَجَّ بِقَوَائِمِهِ ، أَوْ هُوَ ضَرْبٌ مِنْ سِيرِهَا . (٨) يَسُوقُ . (٩) يَتَطَاوَلُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِنَّ . (١٠) قَرِيبٌ أَوْ نَصِيرٌ . (١١) سَبَقَ تَفْسِيرُهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « بِالشَّنْقِ » وَهُوَ تَحْرِيفُ (وَالشَّنْقُ : أَنْ تَكْفُفَ الْبَعِيرَ بِزِمَامِهِ حَتَّى تَلْزُقَ ذِفْرَاهُ بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ ، وَالذَّفْرَى بِكَسْرِ الذَّالِ : الْعَظْمُ الشَّخْصُ خَلْفَ الْأُذُنِ) ، وَالشَّنَّانُ : الْكِرَاهِيَةُ ، وَالْإِحْنُ : الْأَحْقَادُ . (١٢) الْمَخْصَرَةُ : مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يَشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ . (١٣) نَكَأَ الْقَرَحَةَ كَمَنَعَ : قَشَرَهَا قَبْلَ أَنْ قَبُرَ أَفْنَدِيَّتَ ، كُنَايَةٌ عَنْ نَبَشِهِ عَمَّا كَادَ يَنْسَى مِنَ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمِيَّةٍ . (١٤) الشَّافَةُ : قَرَحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ فَتَكْوِي فَتَذْهَبُ ، وَاسْتَأْصَلُ اللَّهُ شَأْنَهُ : أَذْهَبَهُ كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرَحَةُ .

الأرض من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكاً^(١) مَوْرِدُهُمْ ، وَلَتَوَدََّنَّ أَنْكَ عَمِيَّتَ وَبَكِمَتَ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرَحاً » اللَّهُم خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا مِنْ ظَلَمَانَا . وَاللَّهُ مَا فَرَيْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لَحْمِكَ ، وَسَتَرْدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَنُغْمِكَ^(٢) . وَعِزَّتُهُ وَأُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُّسِ^(٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ مَلُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ^(٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَحْزَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَانًا بَلْ أَحْيَا لَهُمْ خَيْرٌ مِنْ رِزْقُونِ) وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَاكٍ^(٥) وَمَكْنَكٍ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمُ اللَّهُ ، وَالْخَصَمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارْحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَيَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَبْشِكُمْ شَرًّا مَكَانًا وَأَضْعَفُ جَنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَاعِدُو اللَّهَ وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصِيرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَعِظُ تَقْرِيْعَكَ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعِيُونَ عَبْرَى وَالصُّدُورَ حَرَى^(٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحَزَبُ الشَّيْطَانِ^(٨) يَقْرُبُنَا إِلَى حَزْبِ السَّفَهَاءِ^(٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكِ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفُ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْلُبُ^(١١) مِنْ لَحُومِنَا ، وَتِلْكَ الْجُثَثُ الزُّوَاكِي يَعْتَامُهَا عَسَلَانُ الْقَلَوَاتِ^(١٢) ، فَلَنْ نَأْخُذَ نَفْسًا مَغْنَمًا لِنَتَّخِذَنَّ مَقْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ^(١٣) : يَا بَنِي صَرْجَانَةٍ ، وَتَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَتَعَاوَى وَاتَّبَاعُكَ

(١) سريعا . (٢) الرغم : الدل . (٣) العترة : رباط الرجل وعشيرته الأذنون ، والحممة : القرابة ، والقدس : الظهر ، - أى فى الجنة - . (٤) التفريق . (٥) أى أهلك فى كرسى الخلافة وهو معاوية . (٦) التقريع : التأنيب . (٧) عين هبرى : جرت عبرتها ، والصُّدُورُ حَرَى : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبيد الله بن زياد ورجاله . (٩) أى إلى يزيد وشيئته . (١٠) نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرح ، وعنى : تطلع بعبير . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . (١٢) الزواكى : جمع زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهى خيار المال ، وعسل الفئب عسلانا كجبرى جريانا : أعنت وأسرع ، والعاسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجميع لا المصدر : أى ذؤبان القلوات ، ولم أجد فى كتب اللغة لعاسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف . (١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاويةً فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ،
فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك كيدك ، واسع سعيك ،
وناصب جهلك^(٢) . فوالله لا يرخص عنك عارٌ ما أثبت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم
بالسعادة والمغفرة لسادات شبّان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم
الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولىٌ قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصرُ الحقَّ مَظَانَّةً^(٣) ، وتؤثرُ اللهَ عند
تَدَاخُصٍ^(٤) الباطل في مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الروية ، وتَسْتَشِفُّ^(٥) جليلَ مَعَاظِمِ الدنيا
بِعَيْنٍ لها حَاقِرَةٌ ، وتُفَيِّضُ عليها يدا طاهرةَ الأطراف ، نَقِيَّةَ الأَسِرَّةِ^(٦) ، وتردَعُ بِأَدِرَةِ
غَرَبِ أَعْدَائِكَ بِأيسرِ المِثْوَةِ عليك . ولا غَرَوَ وأنت ابنُ سُلالةِ النبوة ، ورضيعُ لِبَانِ
الحِكْمَةِ . فَإِلَى رَوْحٍ وَرَيْنَحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ . أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجرَ عليه ، ووهب
لنا ولكم السَّلَوةَ وَحَسَنَ الأَمْنِ^(٧) عنه » (عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « لتباصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

(٤) هى تفاعل من الدخض ، دحض برجله كنعج : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى :

عند تقاطع الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراءه . (٦) الأسيرة جمع سرار

ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأمنى بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم

والكسر أيضا : ما يتعزى به .

١٢٦ — عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمر بن العاص

في مجاس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ على كَرَمِ الله وجهه ، كان في نفس معاوية من يوم صَفِينِ عَلَى هاشمِ ابنِ عُتْبَةَ بنِ أُمَيٍّ وَقَاصِ المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشمٍ إِحْنٌ ؛ فلما استعمل معاوية زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عُتْبَةَ فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعت به إلى » فحمله زياد من البصرة مُقَيَّدًا مَقْلُولًا إلى دِمَشْقَ ، وقد كان زياد طَرَفَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صَفِينِ ^(١) :

إِنِّي شَرِيتُ النَفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَا ^(٢)

أَعُورُ يَبْنِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى بَلَا ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يُفْلَ أَوْ يُفْلَا يَتْلُهُمْ بِذِي الْكُمُوبِ تَلَا ^(٤)

لاخير عندي في كريمٍ وَلَى

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقئت عينه يوم اليرموك بالشام) فقال : يا هاشم ، أعورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يمشي البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم أتى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بعتها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنبا لم يفعله) ، وقاصله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أى لما رمانى عمار بالجبن . (٣) يبني أهله محلا : أى يبني محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبني لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يقل : يهزم ويفلب ، وتله صرعه ، وألقاه على عنقه وخذه (وفى الأصل : أسلمهم بذى الكموب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالتاء ، وأهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانزاعها) ، وذو الكموب : الرمح ، وكموب الرمح : النواثر في أطراف الأنابيب .

فقال عمرو متمثلاً :

وقد يَنْبُتُ الرَّحَى عَلَى دِمَنِ النَّزَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضَّبُّ الضَّبُّ »^(٢) ، فَاشْخُبْ أوداجَهُ^(٣) عَلَى أسْبَاجِهِ^(٤) ،
 وَلَا تَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى النِّفَاقِ ، وَهُمْ أَهْلُ غَدَرٍ وَشِقَاقٍ ، وَحِزْبُ
 إِبْلِيسَ لِيَوْمِ هِجَابِهِ ، وَإِنْ لَهُ هَوًى سَيُودِيهِ^(٥) ، وَرَأْيَا سَيُطْغِيهِ^(٦) ، وَبِطَانَةٌ سَتُقَوِيهِ ،
 وَجَزَاهُ سَيَّئَةٌ سَيَّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهى ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرها ، وهذا البيت
 لزفر بن الحارث السكلابي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راجط ، التى نشبت بعد
 موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزيرية من الضحاك بن قيس
 الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر السكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبرى ،
 ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر
 الشمس كما تتلون الحرياء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أخدع من ضب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
 فيأتى الحارث (حرس الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها
 فيأخذها ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يمد بلذبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر إن جاءه ،
 فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجربا أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه وإلا بقى فى
 جحره ، فهذا هو خدعه — يمتنون به شدة حذره — وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها
 من الألفة والاستعانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وَأَخْدَعُ مَنْ ضَبَّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَهْدَ لَهُ عِنْدَ الذَّنَابَةِ عَقْرِبَا

ويقولون : « فلان ضب ضب » (وأحب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن فى قلبه
 الذى يسرى ضرره ، بخدع الضب فى جحره (ومن أمثاله فيه أيضا) « أعق من ضب » — يريدون الأذى ،
 وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبة إذا باضت حرست بيضها من كل ماقدرت عليه من ورل وحية
 وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وخرجت من البيض . ظننها شيئا يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ،
 فلا ينجو منها إلا الشريد — وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة
 — « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » — أى أطول عمرا .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق فى المتق ، وشخبت أوداج القليل دما من باقى قتل ونفع :
 جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعلنى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمع
 سبجة « كفرصة » وسبجة القميص : لبنته — بنيقته . (٥) أى وإن له ميلا إلى آل على سبيلك .
 (٦) طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أَقْتَلَ فِرْجَلُ أَسْلَمَهُ ^(١) قَوْمُهُ ، وأدركه يومُهُ ، أفلا كان هذا منك إِذْ تَحِيدُ عَنِ الْقِتَالِ ، ونحن ندعوك إِلى النَّزَالِ ، وأنت تَلُوذُ بِشِمَالِ النَّطَافِ ^(٢) ، وعقائِقِ الرِّصَافِ ^(٣) ، كالأَمَةِ السَّوْدَاءِ ، والنعْجَةِ الْقَوْدَاءِ ^(٤) لا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ .

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعتَ فى لَهَازِمٍ ^(٥) شَدَقَمِ الْأَقْرَانِ ذِى لَبِيدٍ ، ولا أَحْسَبُكَ مُنْقَلَبًا مِنْ مَخَالِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فقال عبد الله : « أما والله يابن العاص ، إنك لَبَطِرٌ فى الرَّخَاءِ ، جبانٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، غَشُومٌ ^(٦) ، إِذَا وَلَيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقِيتَ ، تَهْدِرٌ ^(٧) كما يَهْدِرُ الْعَوْدُ الْمَنْكُوسُ ، الْمُقَيَّدُ بَيْنَ مَجْرَمَى الشَّوْلِ ، لا يُسْتَعْجَلُ فى الْمُدَّةِ ، ولا يُرْجَى فى الشَّدَّةِ ، أفلا كان هذا منك ، إِذْ عَمَرَكَ أَقْوَامٌ لَمْ يُعَفِّقُوا صَغَارًا ، ولم يُمَزِّقُوا كِبَارًا . لَهُمْ أَيْدٍ شِدَادٌ ، وَأَلْسِنَةٌ حِدَادٌ ،

(١) خذله . (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافى ، قل أو أكثر ، وفى الحديث « قطعنا لإيهم هذه النطفة » أى البحر وماءه ، وفى حديث علق : « وليهلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائيق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره وسمه عقيق ، والجمع أعقة وعقائيق ، وقيل العقائيق هى الرمال الحمر . (٤) مؤنث الأقود : وهو الذلول المنقاد . (٥) جمع لَهْذَم كجهمر : وهو القاطع من الأَسنة ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبة بالكسر ، ولبدقة الأسد : ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران . (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ، وفى المثل « كالمهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والموذ : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل ما نأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفت لبنها .

يَدْعُمُونَ الْعُوجَ^(١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ^(٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ الْغَلِيلَ ،
وَيُعِزُّونَ الدَّلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تحقّق^(٣) أحشائه ، وتبّق^(٤) أمعائه
وتضطرب أصلاؤه^(٥) ، كأنما انطبق عليه ضمّد^(٦) . »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلّوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذّوباً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجنّد لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَظَ^(٧) إليه عقلك ، ولتلجّج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود^(٨) الذي
أثقله حمّله . »

فقال معاوية : « أيّها^(٩) عنسكا ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
أمرتك أمراً حازماً فعصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه (يامعاوية) الذي أعان عليّاً يوم حزّ الغلام^(١٠)
فلم يثني حتى جرّت من دماننا بصيفين أمثال البحور الخضارم^(١١)
وهذا ابنه ، والمرء يشبه سنخه ويوشك أن تقرّع به سنّ نادم^(١٢)

(١) العوج : بالفتح ، في كل ما كان متصبباً مثل الإنسان والمصا والمود وشبهه ، والعوج
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعمه
(كنهه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجاً : ضاق . (٣) تضطرب .

(٤) تخرج ، بق التثيت بقوقا : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمّد جرحه : شده بالضاد والضمادة (بالكسر)
أي المصابة ، والجمع ضمّد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظاً : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرّد ولم يسلّ لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذي يقتمده الراعي في كل حاجة .
(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة يفتح الغين والصاد ، وهي رأس الخلقوم
— الموضع الثاني في الخلق — أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
العظيم . وإثبات الياء في ينثني مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .

(١٢) قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق قابه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف)
وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل شئ ، (و في الأصل شيخه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله بحبيبه :

مُعَاوِيَ : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ ضَعِيفَةٌ صَدْرٍ غِشًّا غَيْرُ نَائِمٍ
يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَابْنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مَلُوكُ الْأَعَاجِمِ
حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالَمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ^(١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَإِسِ الذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمٍ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي^(٣)

فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشَ وَسَيْلَةٍ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ^(٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنِ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ ثَارِي فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرٍ^(٥)
بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةً عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِيرٍ^(٦)

(١) نعر القوم كنح : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونعر الرجل خالف ، وفي الأصل « نقرة » وهو

تصحييف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قضى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم عصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبي عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهاالك جمع نهبرة بضم النون والهاء وكذا النهابر جمع نهيرة .

١٢٧ — عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنْ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ ؟ » فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
أما الجود : فابتذالُ المال ، والعطيةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراءة على الإقدام ،
والصبر عند ازورار الأقدام ^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
والحماسة عن الجار .
(مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، يَمْ تَطْلُبُونَ مَا قَبِيلِي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ، كثيرا
مع عليٍّ ، ولقد قَلَّتمْ حَدَّيْ يومَ صِفَيْنَ ، حتى رأيت المنايا تَلْظِي ^(٢) في أَسِنَّتِكُمْ ،
وهجوتموني في أسلافي بأشدَّ من وقع الأسيِّنة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم مَيْلَهُ ،
قَلَّتمْ أَرْعَ فِينَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيئات يأبى الحقير الفَذْرَةَ » .

(١) أى عند انحرافها وتزلزلها . (٢) تَلْظِي : أى تلهب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة

والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم .

١٣٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمتُّ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرمه كان منا . وأما فلنا حدك يوم صفين فإننا كما مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يأبى الحقير العذرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية . »

فقال معاوية يمؤه : « ارفعوا حواجكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صفصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري ورجالاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلفاء رأيتمونى ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولسكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ، قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ، تحمل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد

الأمل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأهل العراق ،
المنتهكين لحارم الله ، والمُحِلِّين ما حَرَّمَ الله ، والمُحَرِّمِينَ ما أَحَلَّ الله . فقال عبد الله
ابن الكواء : « يابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن
كنت تُطْلِقُ السُّنْتَنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بالسنة حِداد ، لا يأخذها في الله لومة لائم
وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطْلَقُ
لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فَأَبْلَغْتَ ، ولم تُقَصِّرْ عما
أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أئني يكون الخليفة مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ،
ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك في يوم بدر
مَضْرَب ولا مَرْنَمِي ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قَالَ القائل : « لَأَحِلِّي وَلَا سِيرِي » ،
ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنَّفير ^(٣) ممن أَجْلَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى
تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب
حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أي مالك ضرب ولا رمى . (٣) العير : الإبل تحمل
الميرة ، والمراد بها هنا عبر قريش التي كان يقودها أبو سفيان بن حرب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد تحين انصرافها من الشام - فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم
ترصده ساحل بعيده (أنى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يبعث إلى قريش حين فصل من الشام
يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أي
حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل متصرفين إلى
مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابني زهرة لا في العير ولا في النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى
قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبي وأغفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب
وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .
(٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرْبٌ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَتَلْتَكُمْ» (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجملها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والجل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(١) العرب ، وَمُنْتَهَى الشرف والسُّودَد ، وم أهل الخِطَط ^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات ^(٣) العرب كدَوْرَان الرّحى على قُطْبها » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبَّةُ الْإِسْلَام ، وَذِرْوَةُ الْكَلَام ، وَمَهْصَانُ ذَوِي الْأَعْلَام - إلا أن بها أجلافاً ^(٤) تَمْتَنِعُ ذَوِي الْأَمْرِ الطّاعَةِ ، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذَوِي الْهَيْئَةِ والقناعة » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أسرعُ النَّاسِ إلى فتنَةٍ ، وأضْمَفُهُمْ غِنَاهَا ، وأقلُّهُمْ غِنَاءً ^(٥) فيها ، غير أن لهم ثَبَاتًا في الدين ، وَتَمَسُّكَاً بِعُرْوَةِ الْيَقِينِ ، يتبعون الأئمةَ الأبرار ، وَيَخْلَعُونَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّار » فقال معاوية : مَنْ الْبَرَّةُ وَالْفَسَقَةُ ؟ فقال : « يا بن أبي سُفْيَان ، تَرَكَ الْخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْغِنَاعَ ، على أصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك » ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القُبَّةِ الحمراء في ديار مُضَرَ ^(٦) ، قال :

(١) هو على التشبيه بواسطة المقد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة

بالكسر : وهي الأرض تنزل من قبر أن ينزلها فازل قبل ذلك ، ومنه خطاط الكوفة والبصرة . وقد خطها لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروءة

في شرف ، سرو فهو سري وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والمرأة بالفتح اسم جمع وجمعه سرورات .

(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) غناء : كفاية . (٦) ذكرُوا أن نزار

لبن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإبادة ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يابني ، هذه القبة الحمراء =

« أُسَدُ مُضَرِّ بُسْلَاةٍ بَيْنَ غِيلَيْنِ »^(١) ، إِذَا أُرْسِلَتْهَا افْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكْتَهَا احْتَرَسَتْ .
 فقال معاوية : « هنالك يابن صوحان ، العز الراسى ، فهل فى قومك مثله هذا ؟ قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان ، ومن أحب قومًا حُشِرَ معهم » قال : فأخبرنى عن ديار ربيعة ،
 وَلَا يَسْتَحْفِنُكَ الْجَهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ،
 ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب فى الدين والميل ، لن تُغْلَبَ
 رايتهما إِذَا رُشِّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فَلَجَّ^(٣) ، ومن خذلوه
 زَلَجَ^(٤) » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنَانَةُ^(٥) العرب ، ومَعْدِنُ العز والحسب ،
 يقذف البحر بها آذِيَةً^(٦) ، والبرَّ رَدِيَّةٌ » ثم أمسك معاوية ، فقال له صمصة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصاهم لخلق ، عُصَاةُ
 الجُبَّار ، وخِلْفَةُ^(٧) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدهم والحياه الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء
 - لإياد ، وهذه البدره (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فاتوا الأفي الجرهمى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 فى ميراثه ، فاختصموا إلى الأفي الجرهمى ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والحياه الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الدهم ، فقيل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشمطاء فهو لإياد ، فصار له الماشية للبلق من الحبلق والنقد
 (الحبلق : بفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غنم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودماها ، والنقد كسبب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصعدوا من عنده على ذلك . - مجمع الامثال ١ : ١٠٠ . (١) بسلاة جمع باسل : وهو الأسد والشجاع
 والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة . (٢) وكان صمصة من بنى عبد القيس
 ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن زرار . (٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة فى الأصل : جعبة السهام . (٦) الآذى : الموج . (٧) الخلفة فى الأصل :
 ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مديتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يردُّ عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قَدَرًا مقدورًا » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابنُ عباس : ما السُّودْدُ^(٢) فيكم ؟ فقال : إطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، وبَذْلُ النِّوَال ، وكفُّ المرءِ نفسه عن السؤال ، والتَّوَدُّدُ للصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، وأن يكونَ الناسُ عندك شَرَعًا^(٣) . قال : فما المَرْوَةُ ؟ قال : « أَخَوَانِ اجتمعَا ، فَإِنْ لَقِيََا قَهْرًا ، (وإن كان)^(٤) حَارِسُهُمَا قَلِيلٌ ، وصاحبُهُمَا جَلِيلٌ ، محتاجان^(٥) إلى صِيَانَةٍ ، مع نزاهَةٍ وديانةٍ » . قال : فهل تحفظُ فى ذلك شمرًا ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قولَ مُرَّةَ بنِ ذَهْلٍ بنِ شَيْبَانَ حيث يقول :

إِنَّ السِّيَادَةَ وَالْمَرْوَةَ عُلُقًا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ^(٦)
وَإِذَا تَقَابَلَ مُجْرِبَانِ لِنَايَةِ عَتَرِ الْهَجِينِ وَأَسْلَمَتَهُ الْأَرْجُلُ^(٧)
وَيَجِي الصَّرِيحُ مَعَ الْعِتَاقِ مُعَوِّدًا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجْنِهِ الْأَفْكَلُ^(٨)

(١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسُّودد بضم الدال

مهموزا والسيادة والسودد . (٣) شرعا بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان

عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالبقياه عظيماء

ولعله زيادة من خطأ النساخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » . وهو تحريف .

(٦) السما كان الأعزل والرامي : نجمان . نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من السكواكب

كالأعزل الذى لاسلاح معه كما كان مع الرامح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقا كريما ، وأسلمته : خذلته .

(٨) لم يجنه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيبا من عيوب القافية وهو الإقواء ،

لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان

ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباطاً^(١) إبله ، مُنَرِّقاً وَمُغَرِّباً
لَفَانْدَةً هذه الأبيات ما عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحان لَنَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ واستنباط ما قد عَفَا^(٢)
من أخبار العرب ، فن الحلِيمُ فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبُهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُئِيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ
أَوْ بَاطِلٍ فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بَن
عَبَّاس . » قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً
لا تجدهم إلا خاشعين راهبين ، لِلَّهِ مُرِيدِينَ ، يُبْنِيُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ
سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفِرَ بِبُغْيَتِهِ) حين الحفيظة^(٣) مَنْ كَانَ ،
بعد أن يُدْرِكَ زَعْمَهُ ، وَيَقْضَى بُغْيَتُهُ ، وَلَوْ وَتَرَهُ أَبَوْهُ لَقَتَلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخُوهُ لَقَتَلَ أَخَاهُ ،
أما سمعت إلى قول رِيَّانَ بنِ عَمْرِو بنِ رِيَّانٍ ، وذلك أن عمرأً أَبَاهُ قَتَلَهُ مَالِكُ بنِ كُؤْمَةٍ ،
فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِسَا ، فَأَتَاهُ فِي مَائَتِي فَارِسٍ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ،
فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، — وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ — وذلك أنه كان جَاوَرَمَ ،
فَقِيلَ لِرِيَّانِ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُنِّي نَفَقْتُ بِمَيْتٍ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقٌ صَبِيبٌ^(٤)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةٌ أُخْتُ عَمْرُو بِهِذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
شَهَرْتُ السِّيفَ فِي الْأَذْنَيْنِ مِثِّي وَلَمْ تَعْطِفِ أَوْاصِرَنَا قُلُوبٌ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارسُ فيكم ؟ حَدَّثَ لِي حَدَّثًا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ
مَوَاضِعَهَا يَا بَنَ صُوحَانَ ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَغَمَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ
بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٧) الْحَرْبُ ،

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس واحي . (٣) الحمية والغضب .

(٤) ثقفه كسمه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصبيب : أي مصبوب .

(٥) أواصر جمع آصرة : وهي القرابة ، وحبل ضفير يشد به أسفل الجباء . (٦) ضغمه كنع : عضه .

(٧) وقدت النار (كوقد) توقدت .

واشدت بالأفْس السُكُوب ، وتَدَاعَوْا لِلزَّال ، وَتَزَاحَفُوا لِلْقِتَال ، وَتَخَالَسُوا الْمُهْج ^(١) ،
 واقْتَحَمُوا بِالسُّيُوف اللُّجَج ، قال : أَحَسَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَن صُوحَانَ ، إِنَّكَ أَسَلِيلُ أَقْوَامٍ
 كِرَامٍ ، خُطْبَاءُ فَصَحَاءَ ، مَا وَرِثْتَ هَذَا عَنْ كَلَالَةٍ ^(٢) ، زِدْنِي ، قال : « نعم ، الفارس
 كثير الحَذَر ، مُدِيرُ النَّظَر ، يَلْتَفِتُ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَدِيرُ خَرَزَاتِ صُلْبِهِ ^(٣) » . قال : أَحَسَنْتَ
 وَاللَّهِ يَا بَن صُوحَانَ الْوَصَفَ ، فَهَلْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ شَعْرٍ ؟ قال : نعم ، لَزْهَرِ بْنِ
 جَنَابِ السَّكَلَبِيِّ ^(٤) يَرِثُنِي ابْنُهُ عَمْرًا حَيْثُ يَقُول :

فَارِسٌ تُسَكَّلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ ^(٥)
 لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعَى فِي مَجَالٍ يُفْعِلُ الصَّرْبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقٍ
 مَنْ يَرَاهُ يَحْنَلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضْلَّ الطَّرِيقِ ^(٦)

فِي أَيْبَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَيْنَ أَخْوَاكَ مِنْكَ يَا بَن صُوحَانَ ؟ صِفْهُمْ لِي لِأَعْرِفَ
 وَرِثَتَكُمْ ، قَالَ : أَمَا زَيْدٌ فَكَمَا قَالَ أَخُو غَنَى ^(٧) :

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوها اختلاسا واستلها .

(٢) تقول العرب : لم يرثه كلاله أى لم يرثه من عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورِثْتُ قَنَاةَ الْمَلِكِ غَيْرَ كَلَالَةٍ عَنْ ابْنِ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ

والكلالة : ما لم يكن من النسب لحًا ، وبنو العم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثه
 كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلاله موروثه . (٣) أى فقرات
 ظهره . (٤) شاعر جاهلي ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرسه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله فى أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأفباء تنسى »
 ومثل : « كأنك لم ترى قبل أسيرا يمانية » . . . الخ ، وقد قال النحويون فى ذلك إن إثبات حرف الملة مع
 الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجازم . وعندى أنه ربما
 كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الغنوى
 (شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثى بها أخاه أبيا المغوار وأوطا :

نقول سليحي ما جسمك شاحبا كأنك يجميك الطعام طيب

(انظرها فى الأمالى ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَقِيَ لَا يَبْلِي أَنْ يَكُونَ بوجهه (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبُ^(١)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فلم ينطقوا العوزاء وهو قريب^(٢)
 حَلِيفُ النَّدَى ، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(٣)
 يَبْدِئُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيعةً إِذَا لم يكن في المنقيات حَلُوبُ^(٤)
 كَانَ بِيُوتَ الْحَيِّ (مالم يكن بها) بَسَائِسُ مَا يُنْفَى بِهِنَ غَرِيبُ^(٥)
 في أبيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة^(٦) ، شريف الأخوة ، جليل
 الخطر ، بعيد الأثر ، كَمِيش^(٧) العروءة ، أليف الندوة^(٨) ، ساهم جوانح الصدر ، قليل
 وسواس الدهر ، ذا كبراً لله طرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً^(٩) مِنَ اللَّيْلِ ، الجوعُ وَالشَّبَعُ عنده
 سَيَّانٍ ، لَا يَنْفَيسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَقْلُ أَصْحَابِهِ مَنْ يَنْفَيسُ فِيهَا ، يُطِيلُ السَّكُوتَ ، وَيَحْفَظُ السَّكْلَامَ ،
 وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِعَقَامٍ^(١٠) يَهْزُبُ مِنْهُ الدُّعَارُ^(١١) الْأَثَرَارُ ، وَيَأْلَفُهُ الْأَحْرَارُ الْأَخْيَارُ .
 قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيداً ، فأين كان عبد الله
 منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيداً شجاعاً ، يُؤَلَّفَا^(١٢) مُطَاعاً ، خَيْرُهُ وَسَاعُ^(١٣) ، وشره

-
- (١) خلّات جمع خلة بالفتح : وهي الخصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وغنى شعوباً : تغير من هزال أو جوع أو سفر . (٢) العوزاء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .
 (٤) المنقيات : ذوات النقي (بالسكر) وهو الشحم ، ناقة منقية أى سمينة .
 (٥) بسائس جمع بسيس كجعفر : وهو الفقير الخالي (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .
 (٦) مسهل عن المروءة . (٧) يقال رجل كيش الإزار : أى مشمر جاد ، ورجل كيش : عزوم ماض سريع في أموره . (٨) الندوة والنادى والمنتدى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفي الأصل البدوة « وأراه مصحفاً ، أو هو فملة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظاهر حسن يؤلف ولا يبعج .
 (٩) جمع زلفة بالضم : وهي الطائفة من الليل . (١٠) داء عقام : لا يبرأ ، أى نطق بقوارص من الكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . (١١) جمع دامر وصف من الدهارة بفتح الدال وكسرهما : وهي الخبث والفسق . (١٢) ألفته وآلفته : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والشيء العظيم يدفع به مثله وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه . »

حُفَّاعٌ ، قَلْبِي النَّحِيزَةُ ^(١) ، أَحُوذِي ^(٢) الغريزة ، لَا يَنْهَنِي ^(٣) مُنْهَنِي عَمَّا أَرَادَهُ ،
وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا عَتَادَهُ ^(٤) ، سِمَامُ عِدَا ^(٥) ، وَبَازِلُ قَرَى ^(٦) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ،
جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَرْمُجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَفْنَانَ :
سِمَامُ عِدَا ، بِالنَّبِيلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمَحِ الرَّدِّيُّ يَشْعَبُ ^(٨)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنُّوَالِ مُعَوَّدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَلِلْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
فِي أَبْيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٩) عِلْمُ الْعَرَبِ .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ — صمصعة بن صوحان ورجل من بني فزارة

ووقف رجل من بني فزارة على صمصعة ، فأسمه ، كلاماً (منه) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَيْتُنِ شِئْتُ لَا كَوْنَنَّ لَكَ
إِصَاقًا ^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقُ إِلَّا جَدَدْتُ ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(١٢) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ، بَعْضُ قَوِيٍّ ،
وَلِسَانٍ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ صَمِصْعَةُ : « لَوْ أَجِدُ

(١) القلب : محض كل شيء ، والنحيزة : الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صافيا . (٢) الأحوذى :
الخفيف الحاذق ، والمشمز للأُمُور القاهر لها لا يشذ عليه شيء . (٣) نهني : كفه وزجره .

(٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السنين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى

هولاءعداء سم قاتل . (٦) قرى الضيف (كرى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

(٧) رفده (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من

أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الردى نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،

وكانا يقومان الراح بخط هجر ، ويشعب : أى يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : أنفتح والشق

والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقر العلم وعرف

أصله واستنبط فرعه . (١٠) الإصاق : ما يعلق به . والمعنى لا يكون لك ملاصقا ملازما .

(١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد ، من ذرب كفرج صار حديدا ماضيا ،

غَرَضًا^(١) منك لميت ، بل أرى شَبَعًا ، ولا إخال مِثَالًا إِلَّا كَسْرَابٍ^(٢) بَقِيعَةٍ ،
يَحْسَبُهُ الظَّامَنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفْئًا لَمِيتُ
حَصَائِلُكَ^(٣) بِأَذْرَبَ مِنْ ذَلِيقِ^(٤) السَّنانِ ، وَلرَشَقْتُكَ بِنِبالٍ ، تَرْدَعُكَ عَنِ النَّضالِ ،
وَلخَطَمَتُكَ بِخِطَامٍ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزِّمَامِ^(٦) . فَاتَّصَلَ الْكَلَامُ بِابْنِ عَبَّاسٍ ،
فَاسْتَضْحَكَ^(٧) مِنَ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَرَّازَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شَمَامٍ^(٨) إِلَى الْهَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ
أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ وَقُوَّاهُ الْمَرِيرَةَ^(٩) ! نِم تَمَثَّل :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمِّمٍ . إِنْ الشَّقَاءُ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مَصْبُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يحجبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغِلظة^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بني مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون

(١) الغرض : الهدف . (٢) المراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطمئة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .

(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والامم الحصيلة ، قال ليبيد :

وكل امرئ يومًا سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : أرميت ما حصلته من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرح : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقْتاد

به ، وخطمه بالخطام جملة على أنفه ، أو جرَّ أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لا ينبس .

(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزمة (ككتابة) والزمام : ما يزِم به . (٧) استضحك

الرجل وتضاحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مريز أى قوى

ذو قوة « والمرة بالكسر القوة » . (١٠) الأُم : القرب . (١١) جبهه كقطعه : لقيه بما يكره .

(١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعظون ولا تنهون » .

ولا تمنعظون . أفنتدى بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأتى وكيف ؟ وما الحجة ؟ وما المصير من الله ؟ أفنتدى بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا^(١) ، وعبيده خولا^(٢) ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقلوا العظة ممن سمعتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم في دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقلمها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرردتموه في البلاد ، ومزقتموه في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانهضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، إن لكل قائم قدرا لا يمدوه ، ويوما لا يخطوه ، وكتابا بعده يقلوه : (لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) ثم التمس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ — وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : « ميز لي أصحاب عليّ وأبدأ بأل صوحان ، فإنهم مخاريق الكلام^(٥) » . قال :

(١) جمع دولة بالضم : أي جملوه متداولاً بينهم . (٢) الخول : ما أعطاك الله تعالى من النعم (محركة) والمبيد والإماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أي من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) مخاريق جمع غزاق بالكسر : وهو السيف ، والسيّد والمتصرف في الأمور الذي لا يقع في أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى غزاقاً لأن الكلاب تطلبه فيفلت منها ، وفلان غزاق حرب أي صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَّا مَصْعَمَةُ فَعَظِيمُ الشَّانِ ، عَضْبُ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُرسَانٍ ، قَاتِلُ أَقْرَانٍ ،
يَرْتُقِي ^(٢) مَا فَتَقَ ، وَيَفْتُقِي مَا رَتَقَ ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَإِنَّهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصُبُّ فِيهِمَا الْخُلُجَانُ ^(٣) ، وَيُنْعَاثُ بِهِمَا الْبُلْدَانُ ، رَجُلًا جِدًّا لَا لَعِبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بَنُو صُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَدُوُّ فَإِنْ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ الْنَفُوسَا ^(٤)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ — وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دَخَلَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ ، بَنُ عَالِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، بَنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، عَلَى
عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَوْصِنِي ، قَالَ :
« أَوْصِيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا ، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا ، وَكَبِيرَهُمْ أَبًا ، فَارْحَمَ
وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبَّهُ ^(٦) » .

(الأمال ٢ : ٣١٢)

(١) العَضْبُ : القاطع . (٢) للرتق : ضد الفتق . (٣) الخليج : نهر فشق من النهر الأعظم .

(٤) خلس الشيء كضرب خلسا : استلبه . (٥) توفي سنة ١١٣ هـ . (٦) أى أدبه ، يقال

رَبَّ بِالْمَكَانِ وَأَرَبَّ : أَقَامَ بِهِ وَدَامَ .

خطب الزبير بين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوما على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان وعند معاوية جماعة من قریش ، فيهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢) فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فعلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فن بن أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلود بن أسد بن عبد العزى ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاى ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طَلَقَ اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطقَ نطق بعلم ، وإن صمتَ صمت بحلم ، غير أنه كفَّ الكلام ، وسبق إلى السَّنام ، فأقرت بفضلِهِ الكرام ، وأنا الذى أقول :

فيمَ الكلامَ لِسَاقِي في غايةٍ والناس بين مُقَصِّرٍ ومُبَلِّدٍ^(١)
إن الذى يَجْرِي لِيُذْرِكَ شَأُوهُ يُنَمَى لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ وَمُسَدِّدٍ^(٢)
هل كيف يُذْرِكُ نورَ بَذْرِ ساطعٍ خيرِ الأنامِ وَفَرَعِ آلِ محمد

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله فى موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله^(٣) سكت وتكلم مولاة ، ولو تكلم لأجنبناه ، أو لكففنا عن جوابه إجلالا له . ولا جوابَ لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأء ، وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني است أجيِب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أَعْيَاكَ^(٤) وأبْغَاكَ ! أُنْفَخِرُ بين يَدَيَّ أمير المؤمنين وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعمد لَطَوْرِكَ ، الذى لاتعرف قدرك ، فقس شِئْرَكَ بِفَتْرِكَ^(٥) »

(١) بلد تبليدا : لم يتجه لشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشَّو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما أعجزك .

(٥) الفتر : ما بين الإيهام وطرف العبابة .

ثم تَرَفَّ كيف تقع بين عَرَانين^(١) بنى عبد مناف ، أما والله انَّ دَفَعْتَ في بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَقَطَعَنَّكَ بأمواجها ، ثم لَتَوْهِنَنَّ^(٢) بك في أجاجها ، فابقاؤك
في البحور إذا غَمَرَتْكَ ، وفي الأمواج إذا بَهَرَتْكَ^(٣) ؟ هنالك تَعْرِفُ نفسك ، وتندم على
ما كان من جُرْأتِكَ ، وَتُتَمَسَّى^(٤) ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العير
والنزوان^(٥) . فأتى ابن الزبير مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ — مقال ابن الزبير

« أسألكم بالله : أتعلمون أن أبي حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

(١) جمع عرنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفي الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .
(٢) أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .
(٤) مساه تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ما كنت فيه من أمان
فإذا ما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بخذف إحدى التاءين أى وتمنى ، أو الأصل « ويتمنى » من
تمنى : إذا تقطع أى يمحى ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ،
والنزوان : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ،
وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكتمش إبليس ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فطعن أبو ثور الأسد صخرًا
طعنة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامراته سلمى : كيف بعلك ؟
فقال : لحي فيرجو ، ولا ميت فيمنى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى : فرض زمانًا حتى ملته
امراته ، وكان يكرها فر بها رجل وهي قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكذل ؟ فقالت : نعم عما
قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله انَّ قدرت لأقدمك قبلى ، ثم قال لها : ناويلنى السيف
أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فناولته ، فإذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ومليت سليمي مضجعي ومكافئ
فأى امرئ ساوى بأمر حليمة فلا عاش إلا في شقا وهوان
أهم بأمر الخزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد تنأت قطعة من جنبه في موضع الطعنة ، قيل له لوقطعها لرجونا أن تبرأ ، فقال
شأنكم ، وأشفق عليه قوم فنهوه فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فأت .

وأمة هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجده المشدوخ^(١) بدر، ورأس الكفر وعمتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حمالة الخطب؟ وجدّتي صفية^(٣) وجدته حمّامة^(٤)؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، سيّئ نارا ذات لَهَبٍ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته أشقى الأشقيين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية.

- (١) هو جد معاوية لأمه عتية بن ربيعة قتله على يوم بدر، والمشدوخ: المسكور: أي المقتول.
(٢) القدر، أو المنزلة وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمة أبيه، وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٣) هي صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمّة الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٤) روى ابن أبي الحديد (م ١: ص ١٥٧) قال:

« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله، فقال: يا أبا يزيد: أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: «أخبرك: مررت والله بمسكر أخى، فإذا ليل قليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، مارأيت إلامصليا، ولا سمعت إلا قارئا، ومررت بمسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين من نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة» ثم قال: من هذا عن يمينك يامعاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذي اختصم فيه ستة نفر، فغلب عليه جزار قريش، فن الآخر؟ قال الضمّالك بن قيس الفهري: قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعصب التيوس «وكان يبيع عصب الفحول في الجاهلية، والعصب كعذب: السكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل، أو ضرابه، أو ماؤه، وعصب الرجل كضرب: أعطاه السكراء على الضراب، وفي الحديث: «هى النبي صلى الله عليه وسلم عن عصب الفحل فإن إعاره الفحل مندوب إليها» فن هذا الآخر؟ قال أبو موسى الأشعري، قال: هذا ابن السراقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءا، فأحب أن يسأله ليقول فيه مايلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد فاقول في؟ قال: دعني من هذا، قال لتقولن، قال أتعرف حمّامة؟ قال: ومن حمّامة يا أبا يزيد؟ قال: قد أخبرتك، ثم قام فضى، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه، فقال: من حمّامة؟ قال: ولى الأمان؟ قال نعم، قال حمّامة جدتك أم أبي سفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتكم وزدت عليكم. فلا تغضبوا.»

١٤٠ — مقال معاوية

فقال له معارية :

« وَيُنْحِكُ يَابْنَ الزَّبِيرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْخُضُورُ كَيْفَ لَمَوْنَ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفَجَارِ^(١) عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرَ مُنْكَرِينَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا طَامِعِينَ فِي عِزِّهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا فَانْزِلْ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَعِزَّ الْوَلَايَةِ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسببها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق صكاظ في كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له يثمن ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم للبراض بن قيس — وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد — وعروة الرحال بن عتبة — وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا — فقال ، من يجبرها ؟ قال البراض : أنا أجبرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجبرها على أهل نجد ونهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجبرها لك على أهل الشيع والقيصوم من أهل نجد ونهامة ، فقال للبراض : أعلى بني كنانة يجبرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد ووالد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أي فسقنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أفجرة أخرى — انظر للسيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ .

فانتخبه من خير خلقه ، من أُمِرْتِي لَا أُمِرْتِكَ ، وبنى أبى لا بنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشاً وقادم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ، ورئيس الهدى منا ، ورئيس الضلالة منا ، فهدىكم تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلاص الله أبا سفيان بن حرب بفضل من عظيم شره ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان فى الجاهلية عظيماً شأنه ، وفى الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح مالم يُعطَ أحد من آبائك ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لا دارك ولا دار أيبك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، فى الجاهلية عظيمة الخطر ، وفى الإسلام كريمة الخير ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمى صديقاً ، لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدى ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو كُزّت إليه أنت وأبوك ما بارزوك ، ولا رأوكم لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفاؤهم من بنى أيبهم ، ففضى الله منايهم بأيديهم ، فنحن قُتلنا ، ونحن قُتلنا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبما شُرُفت ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صغية فهى أدنتك من الظل ، ولولا هى لكنت ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أيبك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وغرهم وإرهم لى دونك ، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم .

(١) ضحا كسمى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة

للعوام لبني هاشم ، وزواجه بصغية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن

ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أيبه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أينما أجود في الإِزَم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع لِجُرْم ، لا والله ما أراك منهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طألمهم الذُّحُولُ^(٢) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدعهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السُّجُوفَ^(٣) ، وأبرزتم زوجته للحتُوف ، ومُقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا ، فلم يُنْجِه ذلك أن طحنه أبو الحسين بِكَلْكَلِهِ طحن الحَصِيدِ^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن خَشَيْتُكَ^(٥) بَرَائِيْنُهُ ، ونالتك مغاليبه ، وإيم الله ليقوم منك بنو عبد مناف بِثِقَافِهَا^(٦) أو لتصبحن منها صباح أهلك بوادي السُّباع^(٧) ، وما كان أبوك المذَّهَنَ حَدَّهُ^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تَنَادَل سِرْحَانٌ فَرِيَسَةً ضَيِّفَمٍ ففَضَّقْضَهُ بِالْكَفِّ مِنْهُ وَحَطَمًا^(٩)

(المقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضًا

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لَا تَدْعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جَاهِدَ قَرِيْشٍ بِمَشَاقِصِهِ^(١٠) ، ويضرب صَفَافَتَهُمْ بِمِوَالِهِ ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ، وأقلَّ

(١) الأزيمة (بالفتح ويحرك) اللشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجع (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحصود . (٥) خشه : خدشه . (٦) الثقاف : ماتسوى به الرماح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بمثلته شائبة خور ولكنه . . . الخ « وفى الأصل » المدهن خده « بالخاء وأراء مصحفا » . (٩) السرحان : الذئب ، والضيغم : الأسد ، وقضقضه فتضققض : كسره ودقه ، والنضيقضة : صوت كسر العظام . وفى الأصل ففضقضه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كنبر ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرى به الوحش .

في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(١) ، وإِنَّمُ اللهُ لَنْ مَلَكٍ أَعِنَّةٌ خَيلَ تَنقَادَ لَهُ ، لَتَرْ كَبْنٌ مِنْهُ طَبَقًا^(٢) تخافه . فقال معاوية : « إِنْ يَطْلُبُ مروانَ هذا الأمرُ ، فقد طَمِعَ فيه من هو دونه ، وَإِنْ يَتْرَكَه يتركه لمن فوقه ، وما أَرَأَاكُمْ بِمُنْتَهَيْنَ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ عَلَيْكُمْ من لا يَعْطِفُ عَلَيْكُمْ بَقْرَابَةً ، ولا يَذْكُرُكُمْ عِنْدَ مُلْكَةٍ ، يَسُومُكُمْ خَسْفًا^(٣) ، ويسوقكم عَسْفًا^(٤) » . فقال ابن الزبير : « إِذْنُ اللهِ يُطَلِّقُ عِقَالَ الحَرْبِ بَكْتَابَ تَمُورٍ^(٥) كَرَجَلِ الجِرَادِ ، حَافَاتُهَا الْأَسْلُ ، لها دَوَىٌّ كَدَوَى الرِّيحِ ، تتبع غُطْرِيْفًا^(٦) من قَرِيشٍ ، لم تَكُنْ أُمُّهُ رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٧) » . فقال معاوية : « أَنَا ابنُ هِنْدٍ ، أَطْلَقْتُ عِقَالَ الحَرْبِ ، فَأَكَلْتُ ذِرْوَةَ السَّنامِ ، وَتَمَرِيتُ عُنْفُوانَ الْمَكْرَعِ^(٨) ، وليس لآكلِ بَعْدَى إِلَّا الْفِلَذَةُ^(٩) ، ولا للشَّارِبِ إِلَّا الرَّنْقُ^(١٠) » . فسَكَتَ ابنُ الزَّبيرِ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والبيان ٢ : ٤٤)

١٤٢ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عبدُ اللهِ بنُ الزَّبيرِ على معاويةَ وافداً ، فَرَحَّبَ بِهِ وأَدْنَاهُ ، حَتَّى أَجْلَسَهُ على سَرِيرِهِ ، ثُمَّ قالَ : حاجتكَ أبا حَبِيبٍ^(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثُمَّ قالَ لَهُ : سَلْ غيرَ ما سألتَ قالَ :

« نَعَمْ ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عَلَيْهِمْ فيهِمْ ، وتحفظُ وصيةَ نَبِيِّ اللهِ فيهِمْ ، تَقْبَلُ

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاء ، وهي حشرات الأرض والعصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرْ كَبْنٌ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أي يوليكم ذلاً . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الفطريف : السيد الشريف . (٧) الثلة : جماعة الغنم

أو الكثرة منها . (٨) عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمكراع : المورد ، فمفعول من كراع في الماء أو في الإناء . (٩) الفلذة : اللقطة من اللحم . (١٠) ماء رنق كمدل وكثف وجبل : كدره

(١١) هي كنية ابن الزبير كنى بابه خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وتجاوز عن مُسِيئَتِهِمْ « فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن
 النجمة الذئبَ وقد أكل أَلْيَتَهَا (١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة
 لَتَدِرُ (٢) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصارع ولده الذي خرج من
 صُلْبِهِ ، وما تدور الرِّحاء إلا يَقْطِبُهَا (٣) ، ولا تَصْنُحُ القوسُ إلا بِمَجْبِهَا (٤) » فقال : « يا أبا
 خُبَيْبٍ ، لقد أَجْرَزْتَ الطَّرُوقَةَ قبل هِبابِ الفحل (٥) ، هيهات ! وهى لا تَصْنُطُكَ لحياها
 اصططاكك القُروم السَّوامى (٦) » . فقال ابن الزبير : « العَطَنُ بعد العَلِّ ، والعلُّ بعد
 النَّهْلِ (٧) ولا بد للرِّحاء من الثَّفال (٨) ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العِشاء أخذت قریش
 مجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحكم
 يا بنى أمية ! أفیکم من يَكْفِينِى ابن الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أ كفيك يا أمير المؤمنين قال :
 ما أظنك تفعل ، قال : « بلى ، والله لا زِيدَنَّ (٩) وجهه ، ولا خَرِسَنَّ لسانه ، ولا رُدَّتْهُ
 ألین من خِمِيلَةٍ (١٠) » . فقال : دونك فاعْرِضْ له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير - وكان قد
 بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نُصِبَ عَيْنِى عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :
 وإنى لنارٌ ما يُطَاقُ اضْطِلَاوُهَا لَدَيَّْ كَلَامٌ مُعْضِلٌ مُتَفَاقِمٌ (١١)
 فأطرق ابن الزبير ساعة ينفكت في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال :

(١) الآية : ماركب المعز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابى ضرب وقتل ، ودرت
 الناقة بلبنها أدوته . (٣) قطب الرِّحاء : مائدور عليه ، والرِّحاء ممدود الرِّحاء . (٤) العجب : مؤخر
 كل شيء . (٥) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسنه : جعله يجره ، وهب
 الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبيا : أراد السقاد . (٦) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم
 بالفتح وهو الفحل ، والسَّوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع
 جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبها لُقحاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعلل :
 الشرب الثانى ، والنَّهْل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نحوه ييسط تحت الرحى ليقع عليه الطحين .
 (٩) أى لأصيرنه أربد ، من الرَبْدَة بالضم : وهى لون إلى الغبرة . (١٠) الخميعة : القطيفة ،
 وفى الأصل : « ولأوردنه » وهو تحريف . (١١) تفاقم الأمر : عظم .

وإني لبحرٌ ما يُسَامَى عِبَابُهُ متى يَلْقَى بحرى حرّ نارك تحمُدُ

فقال عمرو : والله يابن الزبير إنك ما علمتُ لمُجَلِّبِ جَلَالِيبِ الفتنَةِ ، مُتَأَزِّرِ بَوَصَالِ (١)

التيهِ ، تتعاطى الذُّرَى الشاهقة ، والمعالى الباسقة ، وما أنت من قريش في لباب جَوهرها ولا مؤنق (٢) حَسَبِهَا . فقال ابن الزبير : « أما ما ذكرت من تعاطى الذرى . فإنه طال

بى إليها وسما مالا يطول بك مثله ، أنف حَمِي ، وقلب ذِكِي ، وصارم مَشْرِفِي ، في تَلِيدِ فارع (٣) ، وطرِيفٍ مانع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِك (٤) ، وَوَجِيب (٥) قلبك ، وأما

ما ذكرت من أنى لست من قريش في لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتنى وإياك الأَكْفَاء ، العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك . فقال القوم : قد أنصفك

يا عمرو . قال : قد فعلت . فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكننى الله منك فَلَارِ بَدَنٍّ وجهك . ولا خَرِسَنَ لسانك ، ولترجعن في هذه الليلة ، وكان الذى بين منكيبك مشدود إلى

عروق أخذ عيك (٦) ، ثم قال : أقسمتُ عليكم يا معاشر قريش ، أنا أفضلُ في دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبى أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حَوَارِيُّ رسول الله

صلى الله عليه وآله وابن عمته ، قال : فأبى أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وذات النطّاقين ، قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سلمى بنته العوّام

صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : فخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : سجدتنى أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية

بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سجدتى أفضل أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَصَّتِ الْغَطَارِفُ من قريش بيننا فاصبر لفضل خِصَامِهَا وقَضَائِهَا

(١) الوصائل : جمع وصيلة ، وهى ثوب مخطط يمان . (٢) آتفتى الشيء إينافا : أعجبتى ، فهو مؤنق وأنيق : أى حسن معجب . (٣) فارع عال . (٤) السحر ويحرك ويضم : الرثة ، وانتفخ سحره :

عدا طوره وجاوز قدره . (٥) خفقان واضطراب . (٦) الأخدعان : عرقان في موضع الحجامة .

وَإِذَا جَرَيْتَ فَلَا تُجَارِ مُبَرِّزًا بَذَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِفَالِ جِرَاسِهَا^(١)
أَمَّا وَاللَّهِ يَا بَنِي الْعَاصِ . لَوْ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا وَاجْهَنِي بِمِثْلِهِ لَقَصَّرْتُ إِلَيْهِ مِنْ سَامِي
بَصَرِهِ ، وَلَتَرَكْتَهُ يَتَلَجَّاجُ لِسَانَهُ ، وَتَضَطَّرَمُ النَّارُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَقَدْ اسْتَعَانَ مِنْكَ بِغَيْرِ وَافٍ ،
وَلَجَأَ إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمَ مَقْتَلَهُ ،
وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَلَامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ اللَّهَ وَأَتْنَى
عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنِّ أَهْلَ الْعِرَاقِ غُدُرٌ فُجِّرَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَإِنِّ أَهْلَ الْكُوفَةِ شِرَارٌ أَهْلَ الْعِرَاقِ ،
وَلَهُمْ دَعَاؤُا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : إِمَّا
أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتْ بِكَ إِلَى ابْنِ زِيَادٍ بِنِ سُمَيَّةَ سِلَاقًا ، فَيُمِضِيَ فِيكَ حُكْمَهُ ،
وَلِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهُ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ . وَإِنِّ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ
يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا . أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ الْمِيتَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الدَّمِيمَةِ ،
فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ . لِعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ
مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَاعِظْ وَنَاهِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ مَا حَمَّ^(٢) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا
لَنْ يُدْفَعَ .

أَفْبَعَدَ الْحُسَيْنَ نَظْمُنْ^١ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنَصَدَّقْ قَوْلَهُمْ ، وَنَقْبَلْ لَهُمْ عَهْدًا ؟
لَا ، وَلَا نَزَاهِمَ لَذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهُ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي النَّهَارِ

(١) برز تبريزا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة :

(٢) ما قدر .

مصدر جارى .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن النِّناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصيام شربَ الحرام ، ولا بالجلّاس في حلق الذكر الركضَ في تَطْلَابِ الصيد (يعرّض بيزيد) فَسَوْفَ يَتَّقُونَ غَيًّا^(١) .

فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهِرْ بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازحك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عاِئذ بالبيت .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ — مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وصار إليه مسلم ابن عَقْبَةَ المُرِّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأتِ البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسُرَّ بمقدّمهم ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم آتَى بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أميس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى بالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر

(١) أى شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف

أى جزاء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أى يلقى جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر، وبرى من عثمان وعلى، وكفر أباه وطلحة بايعناه، وإن تكن الأخرى،
ظهر لنا ما عنده، فتشاغلنا بما يُجدي علينا.

فدخلوا على ابن الزبير وهو مُبتذل^(١)، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جئناك
لتخبرنا رأيك، فإن كنت على الصواب بايعناك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى
الحق، ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً. قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحى^(٢) الحى،
وآوى الطريد^(٣)، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي معيط^(٤)
رقاب الناس، وآثرهم بنى المسلمين، وفي الذي بعده، الذي حَكَمَ في دين الله الرجال،
وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعاً علياً وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجنا عائشة تقاتل،
وقد أسرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلنى^(٦) عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعثمان والتوكل
في السنين الست التي أحلت دمه، ونقضت أحكامه، وأفسدت إمامته، خذلك الله

(١) المبتذل: لابس البذلة (بالسكر) أو المبتذلة: وهى الثوب الخلق ومالا يصابن من الثياب.

(٢) أحى المكان: جملة حى لا يقرب، وكان من المطاعن التي وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه حى
الحى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكلا، ولما سئل في ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبيل الصدقة، وقد أطلقته الآن، وأنا أستغفر الله. وروى الواقدي أن عثمان كان يحى
الربة والشرف والبقيع. فكان لا يدخل الحى بعير له ولا فرس ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان، فكان
يحى الشرف لإبله وكانت ألف بعير وإبيل الحى بن أبي العاص، ويحى الربة لإبيل الصدقة. ويحى البقيع
لحبل المسلمين وخيله وخيل بنى أمية. شرح ابن أبي الحديد م ١: ص ٢٣٥

(٣) هو الحى بن أبي العاص — انظر ص ١٠٤. (٤) من ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط
ولاه الكوفة، وهو أخو عثمان لأمه. (٥) من قر بالمكان يقر (بالسكر والفتح) قراراً أى استقر.
أصله يقرن حذفت الأولى من الراعين ونقلت حركتها إلى القاف. (٦) الزافة والزلى: القرية والمنزلة.

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة
أَكفر الكافرين ، وأهق العتاة ، بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله
عليهما : « أذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ
أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى .
فنهى عن سبِّ أبى جهل من أجل عِكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ،
والمقيم على الشرك ، والجاد في الحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل
الهجرة ، والحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول
الذى سميت فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كانا منهم دخلا
في عُمار (١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُخَفِظُونِي (٢) بسبِّ أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون
أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدِّنْيَا مَفْرُوفًا » ، وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا »
وهذا الذى دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصریح (٣) ،
ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجب ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل
صاحبه من عدوه ، فرُوحوا (٤) إلى من عشيقتكم هذه ، أكَشِفَ لَكُمْ ما أنا عليه
إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نبذة (٥)
قال : هذا خروج منايد (٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل
من خلافته ، ثم وصلهن بالسنين التى أنسكروا سيرته فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبر أنه

(١) بالضم ويفتح جماعتهم . (٢) تفضيوني . (٣) تبين الأمر .

(٤) الرواح : العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحاً . (٥) هو نبذة بن عامر الحنفى من

كبار زعمائهم . (٦) قابضة : كاشفة بالمداوة .

أرى الحكم بن أبي العاص يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِجَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعتبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مُصِيباً ، ثم أعتبهم بعد ذلك محسنًا ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضمن لهم العُتْبَى^(١) ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفنوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢) ، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف قلى حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا ولي وليه ، وعدو عدوه ، وأبى وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عز وجل يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : « سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أَوْجَبَ طَلْحَةُ^(٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذاك يوم كُله أو جُلّه لطلحة » . والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصَفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، فقال جل وعز : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقًا ، فأهل ذلك مُهم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأنكم بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى آب

(١) العتبى : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولاً من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمراً ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حيناً سمع بذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) الموجهة من الحسنات التي توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أمّا نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للبرد ٢ : ١٧٣ ، والمقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، ونشغل بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هُدَيْلٍ ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهوَاهُ في بنى أمية ، فنعمه عطاءه ، فقال : عَلَامَ تمنعني حقالي ؟ وأنا امرؤٌ مُسْلِمٌ ما أحدثُ في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً . قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاطًا ^(١) أَكْفُهُمْ ، سَمَحَةً أَنْفُسُهُمْ ، بُذْلَاءَ لَأُمُوَاهُمْ ، وَهَابِينَ لِمُجْتَدِيهِمْ ^(٢) كَرِيمَةً أَعْرَاقُهُمْ ، شَرِيفَةً أَصُولُهُمْ ، زَاكِيَةً فُرُوعُهُمْ ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نُسِبُوا بِأَذْنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ ^(٣) وَلَا أَتْبَاعٍ ، وَلَا مِمْ فِي قَرِيشٍ كَفَقَعَةِ الْقَاعِ ^(٤) ، لَمْ السُّودَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاللَّكُّ فِي الْإِسْلَامِ لَا كُنْ لَا يُعَدُّ فِي عِيرِهَا وَلَا نَعِيرِهَا ^(٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي نَعِيرِهَا وَلَا قِطْمِيرِهَا ^(٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتدي : طالب الجدوى ، وهي العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أى حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائط » وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من السكأة وجمعه فقعة كعنبية ، والقراع : أرض سهلة مطبنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع في الذل ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في النعير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب الرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النعير : النكتة في ظهر النواة ، والقطير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة .

من أحلافها (١) المطيعين ، ولا من سادتها المطيعين ، ولا من جودائها (٢) الوهابين ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوذين ، وكيف نقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النصل من الجفن (٣) والسنان من الزنج (٤) ، والدُّنَابِي (٥) من القُدَامَى (٦) وكيف يُفَضَّلُ الشحيح على الجواد ، والشوكة على الملك ؛ والجامع بخلا على المطيع فضلا ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرنه إلى قدمه ، وامتعق لونه ، ثم قال له : يا بن البوالة على عقيها ، ويا جلف (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرُمات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ، وحرمة الشهر الحرام . لأخذت الذى فيه عيناك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خثولة في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما ولي عبد الملك ، أمر له بما فاتته من العطاء ، ومثله صلة من ماله وكساه وحمله .
(الأغاني ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ في المسجد الحرام في يوم جمعة ، فسلموا عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف في قریش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجميع ، وسهم ، ومخزوم ، وعلى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، فقد كل قوم على أمرهم حلقا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعتُها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند السكبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلقا آخر مؤكدا فسموا الأحلاف ، وقوله المطيعين : لغمس أيديهم في الطيب . (٢) جوداء : جمع جواد ، وهو السخي ، ويجمع أيضا على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديد في أسفل الرمح . (٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح . (٧) جمع فريصة ، وهى اللحمة بين الجنب والسكرتف . (٨) الجلف : الرجل الجافى .

وَأَقْضَاهُ بِحَقِّ ، وَأَعْدَلُهُ فِي حَكْم ، فَصَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بِالنَّاسِ الْجُمُعَةَ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبِرَ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ،
وَأَتْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي مِنْ غُلُوتَيْنِ وَمِنْ الْمِثْنِ (١)

حَتَّى إِذَا شَابُوا وَشَيَّبُونِي خَلَّوْا عَنَّا نِي ثُمَّ سَيَّبُونِي (٢)

أَيُّهَا النَّاسُ : « إِنِّي قَدْ سَأَلْتُ هَذَا الْوَفْدَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، عَنْ عَامِلِهِمْ مَصْعَبَ بْنِ
الزَّيْبِرِ ، فَأَحْسَنُوا الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ، وَذَكَرُوا عَنْهُ مَا أَحِبُّ . أَلَا إِنَّ مَصْعَبًا أَطَبَّي (٣) الْقُلُوبَ ،
حَتَّى مَاتَ عَدِلَ بِهِ ، وَالْأَهْوَاءَ حَتَّى مَاتَ حَوْلَ عَنْهُ ، وَاسْتَمَالَ الْأَلْسُنَ بِثَنَائِهَا ؛ وَالْقُلُوبَ بِنُصْحِهَا .
وَالنَّفُوسَ بِمَحَبَّتِهَا . فَهُوَ الْمَحْبُوبُ فِي خَاصَّتِهِ . الْحَمُودُ فِي عَامَّتِهِ . بِمَا أَطْلَقَ اللَّهُ بِهِ لِسَانَهُ مِنَ
الْخَيْرِ . وَبَسَطَ يَدَهُ مِنَ الْبَذْلِ » . ثُمَّ نَزَلَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأمال ١ : ٢٨٦)

١٤٧ — خطبته لما بلغه قتل مصعب

لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مُصْعَبَ بْنَ الزَّيْبِرِ (سنة ٧١ هـ) وَانْتَهَى خَبَرُ مَقْتَلِهِ
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، أَضْرَبَ عَنْ ذِكْرِهِ أَيَّامًا ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ إِمَاءُ مَكَّةَ فِي الطَّرِيقِ ،
ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبِرَ فَجَلَسَ عَلَيْهِ مَلِيًّا لَا يَتَكَلَّمُ ، وَالْكَأَبُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَبِينُهُ يَرْتَشِّحُ عِرْقًا . فَقَالَ
رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ : مَا لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ ، أَتُرَاهُ يَهَابُ الْمَنْطِقَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِلْبَيْبُ
الْخَطْبَاءُ . قَالَ : لَعَلَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَذْكَرَ مَقْتَلَ مَصْعَبِ سَيِّدِ الْعَرَبِ ، فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَغَيْرُ
مَلُومٍ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ اخْلَاقُ وَالْأَسْرُ ، وَمُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ،
وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّهُ لَمْ يُعِزَّ اللَّهُ

(١) الغلوة: الغاية ، وهى رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هى قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركونى . (٣) أطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طُرًّا^(١) ، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُفَرَّدًا ضَعِيفًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبَرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِلَدِ الْقَدَّرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَ مَا وَسَّرْنَا ، أَتَانَا أَنْ مَصِيبًا قَتَلَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لِفِرَاقِ الْحَجِيمِ لَذَعَةً وَلَوْعَةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدُ ذَوِ الرَّأْيِ وَالْهَدِينِ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ . وَأَمَّا الَّذِي سَرَّنا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةٌ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الطَّغَامُ^(٢) ، النَّصْمُ الْأَذَانُ ، أَهْلُ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامُ النَّصْمِ الْمُخْطَمَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَمُوتُ حَتَّى آفَانَا^(٥) ، وَلَسَكُنْ قَعَصًا^(٦) بِالرَّمَاكِ ،

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جمعه على أنفه ، والخطام ككتاب : ما وضع في أنف البعير ليقْتاد به . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجبل ، انصرف إلى وادى السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعني بعمه عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كاقبلنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : مالهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر من شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرو صاحبها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ — تاريخ الطبري ٧ : ١٤ — . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القمص : الموت الوحي (أي السريع كفتي) ومات قصصا : أصابته ضربة ، أو رمية فأت مكانه ، وفي الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله نأمنوت حبيبا » وزاد الكامل « كيتة آل أبي العاص » والحجج محرقة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجففر) ، وربما قتله ذلك ، يمرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالانتخمة .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط ؛ ألا وإنا الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأثر البطر^(١) ، وإن تُدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق الممين^(٢) . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .
ثم نزل .

(الأغاني ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والمقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال : « إن مصعباً قدّم أثره ، وآخر خيرته ، وتشاغل بشكاح فلانة وفلانة^(٣) ، وترك حلبة^(٤) أهل الشام ؛ حتى غشيت في داره ، ولئن هلك مُصعب إن فى آل الزبير خلفاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

(١) الأثر : البطر . (٢) من الخرق محرقة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحاً عينيه ينظر ، والممين : الحقيق ، ويرى : « بكاء الخرف المهتر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (يضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول (٣) كان تحت عقيلتا قریش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذبَّان^(١) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ^(٢) ، كَذَلِكَ نُؤَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمَّه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وَلَدَنِي^(٣) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَاْمُضْ لَهُ ، فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ ، وَلَا تَمَسْكَنَّ مِنْ رَقَبَتِكَ يَتَلَعَّبُ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا ، فَبُئْسَ الْعَبْدُ أَنْتَ ، أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ مِنْ قُتِلَ مَعَكَ ، وَإِنْ قُلْتَ كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلِمَا وَهَنَ أَصْحَابِي ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهُ لَضَرْبَةُ السَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ فِي ذِلٍّ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمَثِّلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلْخُهَا بَعْدَ ذُبْحِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَتَلَ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

(١) الذبَّان : الذباب ، والعرب تكنو الأبحر « أبا دباب » وبعضهم يكتبه « أبا ذبان » وقد غلب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب .

(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال الوزير الكاتب ابن عبدون في مراثيته المشهورة لدولة بني الأفطس بالأندلس التي مطلعها :

« الدهر يفجع بعد العين بالآثر فإل بكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبَّان قاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمختصر

(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حزة وخبيب فأخذاهما منه لأنفسهما أماناً .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللَّهُ أَنْ تُسْتَحْلَ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيِكَ ، فَزِدْتَنِي بِصِيرَةٍ مَعَ بَصِيرَتِي ، فَانْظُرِي يَا أُمُّهُ ، فَإِنِّي مُقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُّ حَزَنُكَ ، وَسَلَّمِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنِ ابْنُكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانُ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ فِي أَمَانٍ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهَدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظُلْمٌ عَنْ عَمَالَى فُرُضِيَّتٍ بِهِ ، بَلْ أَنْكَرْتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَا رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً لِنَفْسِي - أَنْتَ أَعْلَمُ بِي - وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَعْزِيَةً لَأُمِّي لَتَسَلِّوْا عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لَا أَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمَ مَتْنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمَ مَتْنُكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَّا مَا يَصِيرُ أَمْرُكَ . قَالَ : يَا أُمُّهُ جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدَّعِي الدَّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ : لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَمِنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّحِيبِ وَالظُّلْمَا فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبِرَّهَ بِأَبِيهِ وَيَّيْ ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيْتِ بِمَا قَضَيْتِ ، فَأَثْبِتِي فِي عَبْدِ اللَّهِ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ - خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ تَمَشَّقَ كَمَا سَحَابُهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد تفرُّق ، وارجعن بعد تمشق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَعْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقَّهُ ^(٤) »

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجعن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست المياه : رعدت شديداً وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائِد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غَرَضًا ، واستمعينوا عليها بالصبر .
وتمثل بأبيات ، ثم افتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساق^(١)
(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبري قال :

لما كان يوم الثلاثاء صَدِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ
الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبَّتم لى نفسًا عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب
اضْطَلَمْنَا^(٢) فى الله ، لم تُصَبِّنا زَبَاءَ بَيْتَةٍ^(٣) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرُغْمُ وقع
السيوف ، فإنى لم أحضر موْطِنًا قَطُّ إلا ارْتُنْتُ^(٤) فيه من القتل ، وما أجد من دواء
جراحها أشدَّ مما أجد من ألم وقْعِها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأ
كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزلٌ ، غَضُّوا
أبصاركم عن البارقة^(٥) ، وليدشغل كل امرئ قِرْنَه ، ولا يُلْهِمَنَّكم السؤالُ عني ، ولا
تقولنَّ : أين عهد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلًا عني فإنى فى الرِّعيل^(٦) الأول :

أبى لابن سلمى أنه غيرُ خالد مَلَأَ المنايا أى صَرَفَ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أى استوصلنا . (٣) الزبَاء من الدواهي :
الشديدة ، ويقال لأفعله البتة ، وبتة ، اسكل أمر لارجعة فيه . (٤) ارتث (مبنيًا للمجهول) حمل
من المعركة رثيًّا أى جريحًا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل
القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلماً
احملوا على بركة الله « ثم قاتل حتى أُنحِنَ بالجراحاتِ وقتل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ — خطبة مصعب بن الزبير

بعت عبد الله بن الزبير أخاه مُصعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنَمَكِّنَ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدِم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلَقَّاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرَك ، وأعلى كعْبَتَك ، فما رد عليهم شيئًا حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنِّي والله ما وُلِّيتُها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرةٍ بولايَتِي ، ولكني جالَدْتُكم بسيفي هذا مُجَالِدَةً ، ولقد رُضْتُ ^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحافة ، وأردتها على عمل عمر ، ففقرت من ذلك نِفَارًا شديدًا ، وأردتها على سُنَيَات ^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلةً حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنِّي خير لكم ولأيةٍ ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرًا ^(٣) أذني ،

(١) من راض المهر : إذا ذلَّه . (٢) سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يعرج عليه .

وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحكمكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإيا كم والفئنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة » ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رَضُوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يَسْخَطُونَ ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت مُحَمَّدٌة ، فلا بد من مَذْمَةٍ ، فلوَمَا هَوْنَا إذا ذكر غفر ، وإيا كم والتي إن أخفيت أُوْبقت ، وإن ذُكرت أوثقت » ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خَلَقًا كَخَلَقِ العراق ، يَعْيِيون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعَةٌ نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنْكَرٌ زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرَّثَقُ خير من الفَتَق ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مُقَام على الرِّبَاية » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ — خطبته حين ولى المغيرة بن شعبه الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبه الكوفة فى جمادى سنة ٤٠ هـ دعاه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن لى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا ^(١) ، وسال الناس :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمًا

وقد يجزى ^(٢) الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضينى ، ويسعد سلطانى ، وتصلح به رعييتى ، ولست تاركاً إيصاءك بمصلحة : لا تتحم ^(٣) عن شتم على وذمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له ، والعيب على أصحاب على ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإبطاء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم » .

فقال المغيرة : « قد جربتُ وجربتُ ، وحميتُ قبلك لغيرك ، فلم يُذمَّ بى دَفْعٌ ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فستَبَلُّو ^(٤) فتحمد ، أو تَذمُّ » قال : « بل نحمد إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لى الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ، وأول من قرعت له العصا عاصم بن الظرب العدوانى ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ، وقيل عمرو بن حمة الدوسى ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب المهورين : لا تملأ بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكما ، فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه : إنه قد كبرت سنى ، وعرض لى سهو ، فإذا رأيتونى خرجت من كلالى ، وأخذت فى غيره ، فاقرعوا لى المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا البيت .

(٢) يجزى سهل من يجزى أى يفنى ، يقال : أجزأت منك مجزا فلان : أى أغنيت عنك مغناه .

(٣) احتنى وتحمى : امتنع . (٤) أى تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عزَّ وجلَّ خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهنكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم (المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصَد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى ملَّيتكم ومللتُموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقِي ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر مني ، كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحْبِبْ لِقَائِي » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات^(٢) . (الآمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذي يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصَد الزرع وأحصَد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد في موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عَنُود^(١) ، وزمن شديد^(٢) يُمَدّ فيه الحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوءاً ، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٣) حتى نحلّ بنا ؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا ينفعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلال حدّه ، ونَضِيضُ وَفَرِهِ^(٤) ومنهم المَصْصَاتُ^(٥) لسيفه ، المُجْجِبُ بخيله ورجله ، المعلن بشره ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لُحْطَامٌ ينتهزه^(٦) ، أو مِقْنَبٌ^(٧) يقوده ، أو منبر يفرّعه^(٨) ، ولبئس الملتجر أن تراهما لنفسك ممناً ، وعمالك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطّوه ، وشتر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمله . فتحلى باسم القناعة . وتزين بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مراح ولا مَعْدَى ، وبقي رجال غَضَّ أبصارهم ذكر كُرِّ المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المَحْشَر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع^(٩) ، وساكت مكهوم^(١٠) ، وداع مخلص ، ومُوجَع تَبْكَلَان ، قد أحلتهم التَّيَقُّة^(١١) ، وشملتهم الذلّة ، فهم بحر أجاج^(١٢) ، أفواهم ضامرة^(١٣) ، وقلوبهم قرحة ، قد وَعْظَوْا حتى مَلَوْا ، وقَهَرُوا حتى ذَلَّوْا ، وقتلوا

(١) جائز . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التي تفرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سلّه . (٦) هيأها وأعدّها (من الشرط (محركة) وهو العلامة) أي هيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله مانكسر من البيس . (٧) المقنب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثائة . (٨) يعلوه . (٩) مقهور . (١٠) من كمم البعير كنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، وفي البيان والتبيين مكهوم ، من عكم المتاع يكمه : شده بثوب . (١١) التقيّة : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكتة من ضمير كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجتر .

حتى قَلَّوْا ، فلتسكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُمْلَةِ الْقَرْظِ^(١) وقُرْاضَةِ الْجَلَمَيْنِ ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافرضوها ذميمةً فإنها قد رفضت
من كان أشغف بها منكم .

(البيان والتبيين ٢: ٢٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١ : ونهج البلاغة ١ : ٤٠ وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ — وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسلمَ بن عُقبةَ المرِّيَّ ،
والضَّحَّاكَ بن قيسِ الفِهْرِيَّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفيْتُكَ الشَّدَّ والتَّرَحُّالَ ، ووطَّأتُ لك الأمورَ ، وذَلَّلتُ لك الأعداءَ
وأخضعتُ لك رِقَابَ العربِ ، وجمعتُ لك مالم يجمعهُ أحدٌ ، فانظر أهلَ الحجازِ ، فإنهم
أصلُكَ وعِزَّتُكَ^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرِمْهُ ، ومن قعد عنك فتمهِّدْهُ ، وانظر أهلَ العراقِ ،
فإن سألوك أن تعزلَ عنهم كلَّ يومٍ عاملاً فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلِّ
مائة ألف سيفٍ ، ثم لاندري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم
الشُّعَارَ^(٣) دون الدُّنَّارِ ، فإن رَأيتَ من عدوك رَيْبٌ ، فارمِهِمْ^(٤) بهم ، فإن

(١) القَرْظُ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب — في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعما هم عليه
من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف — أشبه بكلام علي وبمعاويه ، وبجاله منه بجال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب المباد ، وإنما نكتب لكم
ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

(٢) عَمْرَةَ الرجل : عشيرته الأدنون . (٣) الشُّعَارُ : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدُّنَّارُ :

الذي يلبس فوق الشُّعَارِ . (٤) الرَّمْيُ للعدو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يشئ
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا
بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينافذك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَّذَهُ ^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُهُ بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفِيَكَ الله بمن قَتَلَ أباه وخذله
أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصفح عنه ،
فإن له رَحِمًا ^(٢) مأساة ، وحقًا عظيمًا ، وقراءة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همةٌ إلا في النساء
واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَحْسِمُ لك جُثُوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقذه : صرعه وغلبه ، وتركه عليلاً كأوقذه . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها
في صفحة ١٤١ . (٤) أي عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفف ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبْلاً من حبال الله ، مدّه ما شاء أن يمدّه . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيراً ممن يأتي بعده . ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فيذنبه . وقد وليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(١) بطلب علم ، وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيره ، وإذا أحب شيئاً يستره . »

(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاً لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعذاراً وإنذاراً ، لئلا يكون

(١) في المقد الفريد : ولا آتى على طلب علم ، ولا أتى من طلب علم .

لناس على الله حجةً بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذى ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرف دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها خلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأبغت بالفانى ، ونحبت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْخَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلَّاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (المعقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفى سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودى بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنى قد نظرت فى أمركم فضعت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى

(١) أى همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أى عنتكم (مشقتكم) .

(٤) استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ، ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوماً .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاخترأوا له من أحببتم ، فاكنت لأنزودها ميقا ، وما استمعت بها حيا .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيا ولا توصه ، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشيّة فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعظم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستين لك فاكذب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقيّ الجرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ، ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » .

(لعقد الفريد ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوما : وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإزّلتهم تزدادون في الذنب ، وتزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

(١) المأفون : الضعيف الرأي والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق (يفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضى . يتلو الثريا) والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجملؤا سلفكم لمن ثبّر منكم عظة ، ولا تكؤنؤا أغفالا^(٢) من حسن الاعتبار ، فتؤزل بكم جائحة^(٣) السطؤات ، وتؤوس خلالكم بؤادر الفقمات ، وتطأ رقابكم بشقلها العقوبة ، فتجعلكم همدارفا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمؤانا ، فلبلى من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فإنما بينى وبينكم أن أسمع النفوة^(٥) ، فأصمم تصميم الحسام المطرور^(٦) ، وأصول صيال الحنق الموتور^(٧) ، وإنما هى المصاحفة والمسكافة ، بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتأب تأب ، وهديل خائب^(٨) ، والتؤب مقبول ، والإحسان مبدؤل ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، وانحاز الضحالك بن قيس الفهرى عن مروان ابن الحكم ، واستمال للناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فتأل الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لى ولك ، فتأل مروان : وماهو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك . فتأل مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبأيع مروان بعده خالد بن يزيد ، وعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يؤخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تؤخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من يلاقى معه مالم يخف عليك ، فأجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يوجب عبد الملك لى شئ ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غير : بقى ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجؤوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال . (٤) الهامد : البالى من كل شئ ، والرفات : الخطام . (٥) النفوة والنفية : أول الغبر قبل أن تستثبتته . (٦) المشؤوءة : من الطر : وهو تحديد السكبن وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثأر . (٨) هدله يهداه كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أى ضعف الخائب وخار ، ولعله حائب من الحؤب بفتح الحاء وضدها وهو الإثم . حاب بكذا أثم جؤبا أى ضعف الأثم المذنب . (١٣ - جمهرة خطب العرب - ثان)

لمن عرف رُشدَه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حفظكم ، وليكن أهل
الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديووا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشتها ،
ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيائين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء
والثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغهِ^(١) ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ،
انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكذرة عليكم .
(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير^(٢)

لما قتل عبد الملك مُصْعَب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السِّلَمَ أَمْنٌ وَمَسْرَّةٌ ، وقد زَبَنْتُنَا
الحرب وزَبَنْتَاهَا^(٣) ففرقناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على
سُبُلِ الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُرْدِيَّةَ ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا
أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ،
ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لثناها
فليعدْ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعَةَ الأنصاري :

مَنْ يَصِلْ نَارِي بِلَا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ يَصِلْ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَارٍ^(٤)
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنْ مِجَاهَرَةٍ كَى لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنذَارٍ

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها
بصيفين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القائل في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو مازجه لما يدل
عليه سياق الخطبة . (٣) أى دقتنا ودقمتها ، والزبن : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبينة
أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضاً حرب زبون بفتح الزاي .
(٤) الترة والبوتر : النار .

فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرًا الْعَارَ
لَتَرْجُمَنَّ أَحَادِيثًا مُلَمَعَةً لَهُوَ الْمُقْسِمُ وَلَهُوَ الْمُدْلِجُ السَّارِي^(١)
مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَاجًا يَطْلُبُهَا عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَسْحَارِ^(٢)
أَقِيمَ عَوَاجِثِهِ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ كَمَا يَقُومُ قِدْحُ النَّبْعَةِ الْبَارِي^(٣)
وَصَاحِبِ الْوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرَ مَدْرَكَهُ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَدِرَّكَ بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بذرة^(٤) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفىء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلْنَا وَمِثْلَكُمْ أَنْ أَخَوِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خُرْجًا مَسَافِرِينَ ، فَتَزَلَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَاةٍ^(٥) ، فَلَمَّا دَنَا الرِّوَّاحُ خَرَجْتَ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَاةِ حَيَّةٌ تَحْمِلُ دِينَارًا ، فَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِمَا ، فَقَالَا : إِنْ هَذَا لَيْنَ كَنْزٍ ، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، كُلُّ يَوْمٍ تَخْرُجُ إِلَيْهِمَا دِينَارًا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا وَنَحْفِرُ هَذَا الْكَنْزَ فَنَأْخُذَهُ ، فَنَهَاءَ أَخُوهُ ، وَقَالَ : مَا تَدْرِي لِمَا لَكَ تَعَطَّبَ وَلَا تَدْرِكُ الْمَالَ ، فَأَبَى عَلَيْهِ

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والسارى : الذى يسير بالليل .
(٢) الحوَجَاءُ : الحاجة . وقوله بأصحار : أى لا أستبرهه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، من أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والفتح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قذاح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر التسي والسهم .
(٤) البذرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

وأخذ فأَسأَمه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها . فنارت الحية فقتلتها . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربني ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشَّجَّة^(١) ، وأنشدهم شعر النابغة :

فَقَالَتْ أَرَى قَبْرًا تَرَاهُ مُقَابِلِي وَضَرْبَةً فَأَسَ فَوْقَ رَأْسِي فَاغْرَهُ

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمِعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مُسَلِّمًا »^(٢) يوم الحرَّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرَّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ — خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج يذبحه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أعادوك وهذا أثر فاسك » .

(٢) هو مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرَّة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد ابن معاوية وخلصوه وحسروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم ، فوجه إليهم مسلم بن عقبة فحاصرهم من جهة الحرَّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول يزيد يحكم في دماهم وأموالهم وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : قتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرَّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدْرى ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ — وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيَّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب السكَّيس الذى إن وجد ربحاً اتَّجر ،
وإلاَّ تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك أشدَّ حذرًا من احتيالك على عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ — وصيته للشَّعبى

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تافت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمة غير الشَّعبى ، فلما حُلَّ إليه ونادمه ،
قال له :

« يا شَّعبى ، لا تساعِدنى على ما قَبَّح ، ولا ترُدْ على الخطأ فى مجلسى ، ولا تسكِّفنى
جواب التَّشميم^(١) ، والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما استَطعمُك ، واجعل بدل المدح لى صواب
الاستماع منى ، واعلم أنَّ صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعْتنى أتحدث
فلا يفوتنَّك منه شىء ، وأرِنى فهمك من طَرَفك وسمِّعك ، ولا تُجهِد نفسك فى نظَر^(٢) »

(١) التَّشميم : الدعاء للمات . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

صوابى . ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكد^١ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه . وعند إصااته وفرصته .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ — وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاه مصر فقال :
« ابسُط بِشْرِكَ ، وَأَلِنْ كَفَنَكَ . وَآثِرِ الرِّفْقَ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ بِكَ . وَانْظُرْ حَاجِبَكَ ، فَلْيُمْكِنْ مِنْ خَيْرِ أَهْلِكَ ، فَإِنَّهُ وَجْهَكَ وَلِسَانُكَ ، وَلَا يَبْقَيْنَ أَحَدٌ بِيَابِكَ إِلَّا أَعْلَمَكَ مَكَانَهُ ، لِتَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تَأْذِنُ لَهُ أَوْ تَرْؤَدُهُ ، وَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى مَجْلِسِكَ فَايْأَسِرْ بِالسَّلَامِ ، يَا نَسُوا بِكَ ، وَتَثَبَّتْ فِي قُلُوبِهِمْ مَحَبَّتُكَ ، وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكَ مُشْكِلٌ ، فَاسْتَظْهَرِ عَلَيْهِ بِالْمُشَاوَرَةِ ، فَإِنَّهَا تَفْتَحُ مَغَالِيقَ^(١) الْأُمُورِ ، وَإِذَا سَخِطْتَ عَلَى أَحَدٍ فَأَخِّرْ عَقُوبَتَهُ ، فَإِنَّكَ عَلَى الْعُقُوبَةِ بَعْدَ التَّوْفِيقِ عَنْهُ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّهَا بَعْدَ إِمْضَائِهَا . »

(للنفخري : ١١٣)

١٧٥ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :
« يَا هَذَا أَحْنَيْنَ الْحَمَامَةَ ؟ إِذَا أَنَا مِتُّ فَشَمِّرْ وَانْتَزِرْ ، وَالْبَسْ جِلْدَ نَمْرٍ ، وَضَعْ سَيْفَكَ عَلَى عَاتِقِكَ ، فَنِ ابْدِىْ ذَاتَ نَفْسِهِ لَكَ ، فَاضْرِبْ عُنُقَهُ ، وَمَنْ سَكَتَ مَاتَ بِدَائِهِ ،

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو مايفلق به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلاكِ قصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المآد ، وهي أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بحمائل الأمور . وإياكم والبغى والتحاسد ، فهما هلاك الملوك الماضون ، وذو العزم المكين يا بَنِي : أخوكم مسألة نابكم الذي تَقْرُونَ^(١) عنه ، وَجَحْنُكُمْ^(٢) الذي تستجئون به ، اصدُرُوا عن رأيهِ ، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ أسكم هذا الأمر ، كونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام » .
(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ — خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفي سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى في الناس بالصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدَّم الله ، ولا مقدم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملته عرشه من الموت موتُ ولي هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذي كان عليه من الشدة على المريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحيَّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القد ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غُرُور ، ومنزلٌ باطل ، تُضحكُ باكيًا ، وتُبكي صاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفًا ، وتُفقر مثرىً ، وتُثري مُقترا^(١) مَيَّالَةَ غَرَّارَةٍ ، كَعَابَةٍ بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إمامًا ، وارثوا به حَكَمًا ، واجعلوه لكم قائدًا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنْسَخْه كتاب بعده . واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفَسَ ظلامَ الليل إذا عَسَسَ^(٢) . »

(العقه الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

(١) من أقتَر ، أى افتقر . (٢) تنفَسَ الصبح : أسفر ، وعَسَسَ الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتَيْبِيُّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصليحوا سرائركم ، تصالح لـكم علائقكم ، وأصلحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمُـرِق في الموت » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفي سنة ٨٧ هـ وتي الوليد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من فقهاءها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتسكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم
عن عامل لى ظلّامة فأحرّج^(١) الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى » .
فخرجوا يحزنونه خيرا .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦١)

(١) التحريج . التضييق ، أى فأشدد عليه بآله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى السعدي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(١) فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع
كل جرعة شرقي^(٢) ، وفي كل أكلة غصص ، لا يبالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعمر مُعمرٌ منكم يوماً من عمره إلا يهدم آخر من أجله » .
وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجزع مما لا بد منه ، وما الطمع فيما لا يُرجى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نُهب المصائب ، مع كل جرعة شرقي ،
وفي كل أكلة غصص ، لا يبالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر مُعمرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المهرب مما هو كائن ؟
وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالي ٢ : ١٠٢ ، وصيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت في الرى .

(٢) شرق بريقه : غصص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأَرْضِ رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الخِلافةِ يا أمير المؤمنين ، قُرِّبَتْ إِلَيْكَ لتركبها ، فقال : مَالِي وَلَهَا ؟ نَحْوُهَا عَنِي ، قُرِّبُوا إِلَيَّ بَغْلَتِي ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الثُّرَاطَةِ يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عَنِي ، مَالِي وَلَاك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ ابْتِغَيْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِ رَأْيٍ كَانَ مِنِّي فِيهِ ، وَلَا طَلِبَةَ لَهُ ، وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي ، فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ » .

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، قَلَّ أَمْرُنَا بِالْيَمْنِ وَالْبَرَكَةِ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَصْوَاتُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَرَضِيَ بِهِ النَّاسُ جَمِيعًا ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَلَفَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ عَزٌّ وَجَلٌّ خَلَفَتْ ، وَعَمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَ دُنْيَاهُ وَأَصْلَحُوا سَرَائِرَكُمْ ، يُصْلِحَ اللَّهُ الْكَرِيمَ عِلَالَئَتَكُمْ ، وَأَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَحْسِنُوا الْاسْتِعْدَادَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ، فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَاتِ ، وَإِنْ مِنْ لَا يَذْكُرُ مِنْ آيَاتِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا حَيٍّ لَمُعَرِّقٍ فِي الْمَوْتِ ، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَمْ تَخْتَلَفْ فِي رَبِّهَا عَزٌّ وَجَلٌّ ، وَلَا فِي نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا فِي كِتَابِهَا ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا بَاطِلًا ، وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا حَقًّا ، إِنِّي لَسْتُ

بخازن ، ولكنى أضع حيث أُمِرْتُ . أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاية تَجْتَرُونَ^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أمرتُ الله فيكم ، فإذا عصيتُ الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم»

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمسة ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بمجده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يقتاتن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه . »

فانقش عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله كُلَّ لسانٍ نبيه . فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذُ الله ، ولست بمبتدع ، ولكني متّبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حِملًا . يأيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتُم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يأيها الناس ، إنه من يقدّر له رزق برأس جبل ، أو بحضيرة أرض يأتيه ، فأجبلوا في الطلب » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨٥ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتبَ الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظنن ، فكم عامرٍ مؤثّقٍ عما قليلٍ يخرب ، وكم مُقيمٍ مُغْتَبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما يحضرُكم من الثقلة : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كفيّءٍ ظِلَالٍ قَلَصَ^(١) فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا منافس ، وبها قريبر عين ،

(١) القيء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إِذْ دَعَا اللَّهَ بِقَدَرِهِ وَرَمَاهُ يَوْمَ حَتِفِهِ ، فَسَلَبَهُ آثَارَهُ وَدْيَارَهُ وَدَنِيَاهُ ، وَصَيَّرَ لِقَوْمِ آخِرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ^(١) ، إِنْ الدُّنْيَا لَا تَسْرُ بِقَدَرِ مَا تَضُرُّ ، إِنَّهَا تَسْرُ قَلِيلًا ، وَتَجْرُ حَزَنًا طَوِيلًا .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ — خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْزُّ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي — وَإِنْ لِمِ امْرَأَةٍ مَنَى لَحَقًا^(٢) — لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتُلِيَ بِسَعَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَحْمِلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلَ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تسكلم بها حين نزل : « لَوْ لَا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدْعَةٌ أَمُتُهَا ، لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فُوقًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ — خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطْلُوَنَّ عَلَيْكُمُ الْآمَدُ ، وَلَا يَبْعُدَنَّ عَنْكُمُ الْقِيَامَةُ ، فَإِنْ مِنْ زَاوَتْ^(٤) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَعِزُّ بِشَيْءٍ ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنِ ،

(١) المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمعنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القسم خاصة تخفيفا ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كقرباب ويفتح : ما بين الخلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الفرع . (٤) من زافت الحماسة : إذا نشرت جناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته » .

ألا لا سلامةَ لامرئٍ في خلافِ السُّنةِ ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الله ، ألا وإنكم تَعُدُّونَ الهاربَ مِنْ ظُلْمِ إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى أعالجُ أمراً لا يُعِينُ عليه إلا اللهُ ، قد فني عليه الكبير ، وكبرُ عليه الصغير ، وفصحُ عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حَسِبُوهُ دِيناً ، لا يَرَوْنَ الحقَّ غيرَه . ثم قال : « إنه لحَبِيبٌ إلى أن أوفرُ أموالكم وأعراضكم إلا بحَقِّها ، ولا قوَّةَ إلا بالله . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٨ — خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إنما يُرادُ الطَّيِّبُ للوَجعِ الشديدِ ، ألا فلا وَجَعَ أَشدُّ من الجهل ، ولا داءٌ أخْبَثُ من الذنوب ، ولا خوفٌ أخوفُ من الموت . » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

١٨٩ — خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطوا نا عَطَايَا^(١) ، والله ما كان لهم أن يُعْطَوْناها ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسبٌ ، ألا وإنى قد رَدَدْتُهَا ، وبدأتُ بنفسى وأهل بيتي » اقرأ يا مُزَاحِم — وكان مولاه —

وقد جيء قبل ذلك بسَقَطَ فيه تلك السكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آياه وما ورثوه إياه .

عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جِلْمٌ^(١) ، فجعل يَقْصُهُ ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودِيَ بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩٠ — خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من أَلَمَ بذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ عز وجل وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّفة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩١ — خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرُونَ ، فوجدت المصدّق به أحقُّ^(٢) ، والمكذّب به هالكاً » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ — خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، واتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا . وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ

(٢) أي أحق بثواب الله ونعيم جنته .

(١) مقص .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَرٍ زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرَغِبُوا وَرَهَبُوا ، ولا يَطُولَنَّ عليكم الأمد ،
فتنقسوا قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بُسِطَ أمل من لا يدري لعله لا يُصْبِحُ
بعد إمسائه ، ولا يُنْسَى بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَاتُ المنايا ، فكم رأينا
ورأيتم مَنْ كان بالدنيا مغترّاً ، فأصبح في حبال خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تَقَرَّ عَيْنُ^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ آمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كَلَمٍ إلا أصابه جراح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن أَمُرَّكم
بما أنهى عنه نفسه ، فَتَخَسَّرَ صَفْقَتِي ، وتظهر عورتِي ، وتبدو مَشْكَنَتِي ، في يوم يبدو
فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنيَتْ به
النجوم لانكدرت ، ولو عُنيَتْ به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

(١) قوت عينه : بردت وانقطع بكائهما ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

١٩٤ — خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فأتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزَمُّوها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجملوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سَعَةً وَبُلْغَةً ، وكِفَافًا ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فسكان لم يكن وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابنتم تعجيل إخراجهِ ، وقِسْمة تراثهِ ، ووجهه مفعود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمُر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحَقَّر فيه مثقال ذرة في الموازين . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ — خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يعدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يفدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم .

(وهو أيضا السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع في نزاع الروح .

(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ — خطبة له

وحدّث شبيب بن شَيْبَةَ ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكُنّا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كَتَّان ، وِعِمَامَةٌ عَلَى قَانِسُوَّةٍ لَاطِئَةٍ^(١) ، فَثَلَّنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَهْ أَنْتُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَا وَاحِدٌ ، السَّلَامُ عَلَيَّ ، وَالرَّدُّ عَلَيْكُمْ ، وَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا ، وَقَرَّبْتُ لَهُ دَابِقَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَمَشَى وَمَشِينَا ، حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

« وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِيَ نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونَ أَنَا أَوَّلَهُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَسْكُمُ فَارَقٌ : حَتَّى يَكِيَ النَّاسُ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثُمَّ قَطَعَ كَلَامَهُ وَنَزَلَ ، فَدَنَا مِنْهُ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلِمَتِ النَّاسِ بِمَا أَرَقَ قُلُوبَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، ثُمَّ قَطَعْتَهُ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا رَجَاءُ إِنِّي أَكْرَهُ الْمِبَاهَاةَ .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ — آخر خطبة له

وخطب بَخَنَاصِرَةٍ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدًى ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادًا بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهِ بَيْنُكُمْ ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بِكَثِيرٍ

(٢) خناصرة : بلد بالشَّام من عمل حلب .

(١) لاطئة : لازقة .

وفانيًا بياق ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعُّون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَحْبُه^(٢) وبلغ أجله ، ثم تَتَيَّبُونَه في صَدْع^(٣) من الأرض ، ثم تَدَعُونَه غير مُوسَّد ولا مُمَهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وَوَاجِه الحساب ، مرتَهَنًا بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيمُ الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سَدَدْنَاهَا ، ولا أحد منكم إلا ودِدْتُ أن يده مع يدي ، ولحُتِي^(٤) الذين يَلُونَنِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضَارَة^(٥) لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقي دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يَرُ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والبيان ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٧٠ ، والآغا ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس . اَلْحَقُّوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجلاً ، لا أقولُ مُمَّ خِيَارُكُمْ ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فلا إذنَ له عليّ^(٦) ، ألا وإني مَنَعْتُ نفسي وأهل بيتي هذا

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو ما يسلب . (٢) للنحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .

(٣) شق . (٤) اللحمة : القرابة . (٥) الغضارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .

(٦) أي يدخل على بلا إذن ، لا يحول بيني وبينه حاجب .

المال ، فإن صَدَنَتْ به عليكم إني إذن لضمن ، والله لولا أن أنعش^(١) سُنَّة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فَوْاقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٩ — كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسَلَمَةُ بن عبد الملك في المَرَضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين «إنك قَطَمْتَ أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عَالَةً^(٢) ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مَثْوُ نهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أبا الله تخوفني يا مَسَلَمَةُ ! أما ما ذكرت من أني قَطَمْتُ أفواه ولدي عن هذا المال ، وتركتهم عَالَةً ، فإني لم أمنهم حقًا هو لهم ، ولم أعطهم حقًا هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوَصَاة إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نَزَلَ الكتاب ، وهو يَتَوَلَّى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره بُسْرًا ، وَرَزَقَهُ من حيثُ لَا يَحْتَسِب . ورجل غَيَّرَ وَفَجَّرَ ، فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني ، فدعَوم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلامًا ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبُ به ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فِتْيَةٌ تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا مُعَاهِدٍ إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله ، يا بني مَمْلُتٌ^(٣) رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوك النار ، فكان

(١) نمشه كنع وأنمشه : رفعه . (٢) فقراء جمع عائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أي افتقر .

(٣) التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عَصَمَكُمُ اللهُ ورزقكم » . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ — مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شَوْذَبُ الخارجي - واسمه بِسْطَام من بني يشكر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك
منى فهاهم إلى أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بِسْطَام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثت إليك
رجلين يدارسانك وينظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشياً اسمه عاصم ،
ورجلاً من بني يشكر ، فقدما على عمر بخفاصة ، فأخبر بمكانهما ، فقال : فتشوها
لا يكن معهما حديد وأدخلوها ، فلما دخلا قال : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما الذي أخرجكم منخرجكم هذا ؟ وما نعتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نعتما سيرتك ،
إنك لتتحرى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وعهد إلى رجل كان قبلي ، فعمت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتروني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتنا
فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتنا فلست منا ولنسأ منك ، فقال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلعتهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يفرق ، فتكلم عمر ، حميد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لئانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدَهُ » : وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لمن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أليس لك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حديثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورُدُّ أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تقوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الدراري ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهر وان أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قذبة ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب

ابن الأَرْت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا
حيّاً من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
الصبيان في قدور الإِقط^(١) وهي تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك . قال : فهل يرى
أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا . قال : فهل
تبرهون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا . قال : رأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالوا
بل واحداً . قال : فهل يسمعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف يسمعكم أن
توايتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسمعون
فيما زعمتم إلّا لئن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَيَحْكُم إِنْكُمْ قوم جهال ، أردتم أسراً
فأخطأتموه ، فأنتم ترُدُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمِن عنده . قالوا : مانحن كذلك . قال عمر :
بل سوف تُقَرُّون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث إلى
الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فن فعل ذلك حَقَّقَ دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمَتُهُ ، وكانت له أُسْوَةٌ
للمسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : أفليست أنتم تَلَقَّوْنَ من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال الإشكري : رأيتم
رجلاً وَلِيَ قوماً وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أترأى
الحق الذي يلزمه الله عزّ وجلّ ؟ أو تراء قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفقتلتم هذا الأمر
إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيري ،

(١) الإقط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من المخيض الغنمى .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظرَ ابنى^(١) ثلاثاً فخرجا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر للشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفقات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وخُصِمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاء سمّاً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والمقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ — تأييده ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداها عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بنى ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أثراً ولا بَطْراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي بإطراء نفسي ، وإني لأفلوم لها إن لم يرحمني الله ، واسكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدِيتَ مَعَالِمُ الْهُدَى ، وأُطْفِئَ نُورُ أَهْلِ التَّقْوَى ، وظهور الجَبَّارِ الْعَنِيدِ^(٢) ، المستَحِلُّ لِكُلِّ حُرْمَةٍ ، وَالرَّاءِبُ لِكُلِّ بَذْعَةٍ ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابنُ عَمِّي في النسب ، وكَفِيعِي^(٣) في الحَسَبِ ، فلما رأيت ذلك استَحَرَّتْ الله في أمره ، وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك مَنْ أَجَابَنِي مِنْ أَهْلِ وَلَايَتِي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطَهَّرَ مِنْهُ الْبِلَادَ ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي .

أيها الناس : إن لكم على ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لَبِنَةً على لبنة ، ولا أكرِي^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرمان الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انغماسا في اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وتوفي هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فالاً في المصحف فخرج « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أنومد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لا قيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

(٣) كفيته وكفوّه بضم الكاف وكفاؤه بكسرهما : مثله . (٤) كرى النهر : استحدث حفرة .

بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة^(١) أهله ، فإن فَضَلَ فَضْلٌ ، نقلته إلى البلد الذى يليه ، ولا أُجْرِكُ^(٢) فى بيوئكم ، فأَمْتِنَكُمْ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ، ولا أَغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ ، فَيَأْكُلَ قُوَّيْكُمْ ضَعِيفَكُمْ ، ولا أَحْمِلُ عَلَى أَهْلِ جَزَيْتِكُمْ مَا أَجْلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَأَقْطَعُ بِهِ نَسْلَهُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى إِذْرَارِ الْمَطَاءِ فى كُلِّ سَنَةٍ ، وَالرَّزْقِ فى كُلِّ شَهْرٍ ، حتى يَسْتَوِى بِكُمْ الْحَالُ ، فَيَكُونَ أَفْضَلُكُمْ كَأَدْنَاهُمْ ، فإن أَنَا وَفَيْتُ لَكُمْ ، فعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَحَسَنُ الْمَوَازَرَةِ وَالْمَسْكَنَةِ^(٣) ، وَإِنْ لَمْ أَفِ لَكُمْ ، فعَلَيْكُمْ أَنْ تَحْلَعُونِى إِلَّا أَنْ تَسْتَيْبُونِى ، فإن أَنَا تَبْتُ قَبْلَتَهُمْنِى ، وَإِنْ عَرَقْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي ، مِمَّنْ يُعْرِفُ بِالصَّلاحِ ، يُعْطِيَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ الَّذِى أُعْطَيْتُكُمْ ، فَأَرْدْتُمْ أَنْ تَبَايَعُوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ ، وَدَخَلَ فى طَاعَتِهِ .

أيها الناس : إنه لا طاعة للخلق فى معصية الخلاق ، ولا ولاء بنبقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يُعَصَى وَيُقْتَلَ ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،

الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاء

لَمَّا وَلَّى يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ سَلَمَ بْنَ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ عَلَى خُرَاسَانَ قَالَ لَهُ :
« إِنْ أَبَاكَ كَفَى أَخَاهُ (يَعْنِى مَعَاوِيَةَ) عَظِيماً ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَقْصِرْ عَنِّى عَلَى عَذْرِ مَنْ لَكَ ، فَقَدْ اسْتَكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ ، وَإِيَّاكَ مَنِ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إِيَّايَ مِنْكَ ، فَإِنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مِنْكَ أَخْلَفَ مَنِ فِيكَ ، وَأَنْتَ فى أَدْنَى حَظِّكَ فَاطْلُبْ أَقْصَاءَهُ ، وَقَدْ اتَّعَبْتُكَ أَبُوكَ ، فَلَا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكَنْ لِنَفْسِكَ تَكُنْ لَكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ يَوْمَكَ أَحَادِيثَ غَدِكَ تَسْعَدَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفاهم . (٣) المعاونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعنان ، أرجوان يوليني نسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نجح^(٤) قول ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة الشئ ، فأطأكم الله وطاة ، لا رَمَق^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشفوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين^(٦) ، وما تخفي الصدور .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٨)

-
- (١) ولله أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان » . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « ومنه » . (٤) من نجم الشيء : إذا ظهر وطاق . (٥) الرمق : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حَامِلِ أَلَمِ أَنْوَفِ رُكَّبتَ بَيْنَ أَعْيُنِ ، إِنَّمَا قَلَّمْتُ أَظْفَارِي عَنْكُمْ ، لِيَمْلِئَنَّ مَسْئِي إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُكُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ ، إِذْ كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعاً عَلَيْكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا أُبَيِّتُمْ إِلَّا الظُّلَمَ عَلَى الْأَسْرَاءِ ، وَالْعَتَبَ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَا قُطْعَانَ بَطُونِ السَّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكُمْ ، فَإِنْ حَسَمْتَ مُسْتَشْرِى^(١) دَائِكُمْ ، وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، فَكَمْ مِنْ عِظَةِ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجَرَةٌ مَنَاقِدُ تَجْنِهَا قُلُوبُكُمْ ، وَلَسْتُ أَبْجُلَ عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ إِذَا جَدْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مُؤَيِّساً لَكُمْ مِنَ الْمَرَاةِ إِلَى الْحَسَنِ ، إِنْ صَرْنَمَ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْرَ وَأَتَقَى . » (صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ؛ والعقد للفرید ٢ : ١٥٩ ، والآمال ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أَهْلَ مِصْرَ بِمَوْتِهِ ، ثُمَّ وَرَدَ كِتَابُهُ بِسَلَامَتِهِ ، فَصَعِدَ عَتَبَةَ الْمَنْبَرِ ، وَالْكِتَابُ فِي يَدِهِ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ : قَدْ طَالَتْ مَعَانِبُنَا إِيَّاكُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاتِ السِّيفِ ، حَتَّى صَرْنَا شَجَى فِي لَهْوَانِكُمْ ، مَا تُسَيِّغُنَا^(٢) حُلُوفَكُمْ ، وَأَقْدَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ ، مَا تَطْرَفُ^(٣) عَلَيْهَا جَفُونُكُمْ ، أَخْفِينِ أَشَقْدَتَ عُرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَخَتْ عُقْدَ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَاً ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخُلَيْفَةِ ، وَأَرَدْتُمْ تَوْهِينَ^(٤) السُّلْطَانِ ، وَخَضَعْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَأَقْدَمْتُمْ عَهْدَكُمْ بِهِ

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، واللهوات جمع لهاة : وهى اللحمه المشرفة على الخلق ، وأسافه : ابتلعه . (٣) جمع قذى : وهو ما يقع في العين والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بعيته : حرك جفניה . (٤) إضعاف .

حديث ؟ فارتجوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ،
والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا مظهر ،
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمررتكم شراً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد
وليككم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن ردّدتم ترادّكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم
ترادّكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئبنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
ألسنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم فاجزاً بناجز^(٢) ،
ومن حذر كمن بشر ، فنادوه سمعاً وطاعةً ، فناداهم عدلاً عدلاً . (المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يظنون على الولاية ويميّبون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : ترادد البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) الناجز والنجيز : الحاضر ،

ومن أمثالهم : ناجزاً بناجز ، أى حاضراً بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعاجلاً بماجل ، وقالوا أبيمكة
الساعة ناجزاً بناجز : أى معجلاً .

تأتونه ، كالجار يحمل أسفارا ، أفعله حملا ، ولم ينفعه علمها ، وإيمُ الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلّحتُم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرّة ، ولا أبطئ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوم سبها بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب

(المقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضَاعَفُ فيه المحسن الأجر ، وعلى المسمى فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تَمُدُّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍّ حتْفُهُ في أمنيَّتِهِ ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوّا ، فإن لوّا قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلّاً على كلّ » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقّكم باستئمانه ، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقربُ إليكم بالخُثُولَةِ ، وقد كثر عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

(١) العيال جمع عيل كجديد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بفنك ، فليت إسماعنا إليك يقوم بإطاعتنا عنك .

(الأمال ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علمته التي مات فيها

ولما اشكى شكاياه التي مات فيها تحمل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهرّب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنيائى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقّ من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عادداً إليكم » ، فلم يعد .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكون أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسن ، والقبيح عندهم ما استقبح ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِههم عليه فيمْلوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوْهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكّموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم ، وتهدّد ذمّ بى ، وأدّبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، وروّهم سير الحكماء ، واستزدنى

بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تفعل كل عذر منى لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برى إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما وُلد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيّه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يَا بَنِيّ ، قد عرفتم خيرةَ الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذو همةٍ وإعدةٍ^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشدّد شكيمة^(٥) ، وإني آمركم إن نزل بي من الموت مالا تحيى عنه ، أن تظاهروه وتوازرّوه وتُعزّزّوه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللثام ، ويُلْبِسكم عزّاً لا تُنهيجه^(٧) الأيام . »

فقالوا جميعاً : « إنك تُؤثّرهُ علينا ، ونحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ماستره

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزل ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصغر . (٣) من قولهم شجرة واعدة : إذا ظهر لرائتها أن تسحق ثمارها ، وأرض واعدة : إذا رجع خيرها من الثبت ، وظهر لرائتها أن قد قرب إمكان المرمى بها ، وفرس واعد : يملك جرياً بعد جرى ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكية : الألفة ، وفي اللجام : الحديدة الممتدة في فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة في الأمور والمضاء فيها .

(٦) أى يبعد ويطرده . من خسأ الكلب كنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أى لا تبليه . لنهج الثوب ونهجه (كنهه) : أخلقه وأبلّاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البنى عنكم» ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهم^(١) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يلحف^(٢) في مسألتي مالى ، فأحش غيلة^(٣) لصغره ، وأحسبه^(٤) بالشئ دون الشئ من مالى ، إلى أن استثبت أن أمه باعته^(٥) على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وهذا تخرجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة^(٦) ، كأن لا ولد لى غيره ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بني ، والله ما آثرته دونكم بشئ من مالى قط ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقا تساهلت فيه ، لما أملت من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المخذع^(٧) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمين) . (٢) يلح . (٣) العيل والعيلة : الانتقار والفاقة ، وأحش : أى أقطع وأحور ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بمطافى إياه والأول أحسن) . (٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بغاه الشئ : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبينى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمرائه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدي لابنه الهادى فدعا به بعد ماولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبذهم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمت من أجل ، وفى السيف هوى ، ثم بحث إليه الهادى ، فاشتري منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركى ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى سرح الميون ، ص ٣١٢ ، والأغاني ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ » . (٧) المخدع بضم الميم وكسرها : الخزاقة - بيت صغير يحرز فيه الشئ - .

« يا بَنِيَّ : إني عليك حَدِيبٌ ^(١) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمَنُ بِمَقَّةِ الأجل ، ولي كَنْزٌ أدخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فَاكْتُمُ أَمْرَهُ . »

فقال : « يا أبت ، طال مُعْمَرُكَ ، وَعَلَا أَمْرُكَ ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ عَنْكَ الدَّفَاعَ ، وَيُطِيلَ بِكَ الإِمْتَاعَ . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعْجِبُنِي أَنْ أَقْطَعَ دون إخوتي أمراً ، وأزرع في صدورهم غمراً ^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بني ، فإِذَاكَ أبوك ، فوافقه مَالِي من كنز ، ولكنني أردت أن أُبْلُوَ رَأْيَكَ فِي إِخْوَتِكَ وَبَنِي أَبِيكَ » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من الخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَمَهُمْ على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠) .

(١) متعطف شفيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة :

لم يره أهلاً له . (٣) الفمر محركة والفمر بكسر الفين : الحقة والفضن .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميرًا ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد عليه وَغَمَضَ عَيْنَيْهِ وعليه جُبَّة خَزَقِرْمِز^(٢) ، وَمُطَرَف^(٣) ، خَزَقِرْمِز ، وعمامة خَزَقِرْمِز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجابًا بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضرّبونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فعلتم ما فعلتم ففعلنا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتُمْ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا^(٥) مناريفًا ، قد فني غضبه وبقي حلمه ، اغتبنوا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أفقم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » وقد ولي معاوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبر أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مريع ذو أعلام . (٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثار ، ووافقتم : أي وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من الصفر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئن شديد ، رقيق
كثيف ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورعى الدهر ببصره ،
واستقبله بأشهره ، فهو إن عَصَّ نَهَس^(٢) ، وإن سطا قَرَس^(٣) ، لا يُقَلِّقْ له الحصى ،
ولا تُقَرِّعْ له العصا^(٤) ، ولا يمشي السَّهْمَى^(٥) ، فما في بعد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قَصَمَهُ اللهُ .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ — خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يَلْقَهُ قرشى ولا أموى إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حارِ ، ما الذى منع قومك أن يلقونى كما لقيتنى ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتنى
به ، والله ما كُنَيْتُنِي ، ولا أتممت اسمي ، وإنما أنهارك عن التشذُّر^(٦) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يضعهم لك ، قال : وافق ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذى رأيت منى تَخْلَقُ^(٧) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ، ولذلك
كنا إذ ارفعت لنا الآهوت^(٨) بعد الأهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شَرَجَ^(٩) أمر

(١) رجل حديد يكون في السن والفهم والغضب ، وحده عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه
بمقدم أسنانه ونشفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقه . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن للعصا
قرعة لدى الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٨٤ . (٥) السهمى والسهمى : الباطل والكذب ،
يقال : ذهب في السهمى أى في الباطل : وجرى فلان السهمى : أى جرى إلى غير أمر يعرفه .
(٦) تشذر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالى ،
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الأهوة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزؤها .
(٩) من الشرج بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريج : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين أسرين ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا ، فوالله ما نَزَعْنَا وَلَا نَزِعَ عَنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ، وَأَكَلَ
اللَّحْمَ لَحْمًا ، وَقَرَعَ العَظْمَ عَظْمًا ، فَوَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ ،
وَاخْتِيَارَهُ لَهُ ، ثُمَّ وَلَّى أَبُو بَكْرٍ لِسَابِقَتِهِ وَفَضْلَهُ ، ثُمَّ وَلَّى عُمَرُ ، ثُمَّ أُجِيلَتْ قِدَاحُ نَزِغِنٍ مِنْ
شِعَابٍ ^(١) جَوْلَةً سَعَةً ، فَفَازَ بِحَظِيمِهَا ^(٢) أَصْلُهَا وَأَعْتَقَهَا ، فَكُنَّا بَعْضُ قِدَاحِهَا ، ثُمَّ شَرَجَ
أُسْرَيْنِ أَمْرَيْنِ فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا ، فوالله ما نَزَعْنَا وَلَا نَزِعَ عَنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ،
وَأَكَلَ اللَّحْمَ لَحْمًا ، وَقَرَعَ العَظْمَ عَظْمًا ، وَعَادَ الحَرَامُ حَلَالًا ، وَأُسْكِتَ كُلُّ ذِي حِسٍّ
عَنْ ضَرْبِ مُهَيَّذٍ ، عَرَّ كَأَنَّ عَرَّ كَأَنَّ ، وَعَشَفَا عَشْفًا ، وَخَزَا وَهَسًا ، حتى طَابُوا عَنْ حَقْنَانَفَسًا ،
وَاللَّهُ مَا أَعْطَوْهُ عَنْ هَوَادَةٍ ، وَلَا رِضْوَانٍ فِيهِ بِالْقَضَاءِ ، أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : حَقًّا غَلِبْنَا عَلَيْهِ ،
فَجَزَيْنَاهُ هَذَا بِهَذَا ، وَهَذَا فِي هَذَا . يَا أَهْلَ مَكَّةَ : أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَسُفْهَاءَكُمْ سَفْهَاءَكُمْ ،
فَإِنْ مَعِيَ سَوْطًا نَكَالًا ، وَسَيْفًا وَبَالًا ^(٣) ، وَكُلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحي ^(٤) الوليد بن عقبة ، وعمر بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ، فتكلم
الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذَبْتَ ^(٥) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليق اللسان ،
منزوع الحياء ، وبأ أَلَمَ أَهْلَ بَيْتِهِ ، فلمعمرى لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ،
فساءت خلائقك لبخلك ، قَنَعْتَ الحَقُوقَ ، وَلَزِمْتَ العُقُوقَ ، فَأَنْتَ غَيْرَ مَشِيدِ البَنِيَانِ ،
وَلَا رَفِيعِ المَكَانِ ، فقال له عمرو : والله إن قریشًا لتعلم أنى غير حُلُو المَذَاقَةِ ، وَلَا لَقِيذِ

(١) الشعاب جمع شعبة بالضم : وهى ما بين الفصتين وطرف النصف . يشير إلى أصحاب الشورى السعة .

(٢) الحظي : ذو الخطوة أى المكانة . (٣) أى سوطًا ذا نكال . وسيفًا ذا وبال .

(٤) تنازع . (٥) كذب الرجل : أعبر بالكذب .

الْمَلَائِكَةِ^(١) ، وَإِنِّي لَكَالشَّجَا^(٢) فِي الْخَلْقِ ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي سَاكِنُ اللَّيْلِ ، دَاهِيَةَ
النَّهَارِ ، لَا أَتَّبِعُ الْأَفْيَاءَ ، وَلَا أَتَمْنَى إِلَى غَيْرِ أَبِي ، وَلَا يُجْهَلُ حَسْبِي ، حَامٍ لِحَقَائِقِ
الذَّمَارِ^(٣) ، غَيْرَ هَيُوبٍ عِنْدَ الْوَعِيدِ ، وَلَا خَائِفٍ رِعْدِيدِ^(٤) ، فَلِمَ تُعَيِّرُ بِالْبَخْلِ وَقَدْ جُبِلَتْ
عَلَيْهِ ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ أَوْرَثْتُكَ الضَّرُورَةَ لَوْثًا ، وَالْبَخْلَ فُحْشًا ، فَقَطَعْتَ رَحِمَكَ ، وَجُرُتَ
فِي قَضِيَّتِكَ ، وَأَضَعْتَ حَقَّ مَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ ، فَلَسْتَ تُرْجَى لِلْعِظَامِ ، وَلَا تَعْرِفُ بِالْمَكَارِمِ ، وَلَا
تَسْتَعِيفُ عَنِ الْمَحَارِمِ ، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى التَّوْقِيرِ ، وَلَمْ يُحْكَمْ مِنْكَ التَّنْذِيرُ ، فَأُفْخِمَ الْوَلِيدُ ؛ فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :
— وَسَاءَ ذَلِكَ — كُفَّا لَا أَبَا لَكَا ، لَا يَرْتَفِعُ بِكَ الْقَوْلُ إِلَى مَا لَا نَزِيدُ ، ثُمَّ أَنْشَأَ
عَمْرُو يَقُولُ :

وَلِيدُ إِذَا مَا كَفْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
وَلَا يَبْدُرُنَ الدَّهْرَ مِنْ فَيْكَ مَنْطِقُ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالِ^(٥)
(الْأَمَالُ ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْقَ ، صَعِدَ الْمَذْبَحَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ مِنْ قَرِيشٍ قَبْلِي عَلَى هَذَا الْمَذْبَحِ ، إِلَّا زَعَمَ أَنَّ لَهُ جَنَّةَ
وَنَارًا ، يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَالنَّارَ مَنْ عَصَاهُ ، وَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ
بِيَدِ اللَّهِ ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ إِلَهٌ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ عَلَى حُسْنِ الْمُوَاسَاةِ وَالْعَطِيَّةِ » .
(تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٧ : ١٧٦)

(١) الرُّوكُ : أَلْهَوْنَ الْمَضْغِ أَوْ مَضْغِ صَلْبِهِ . (٢) مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظَمٍ وَنَحْوِهِ .

(٣) مَا تَجِبَ حَاجَتُهُ . (٤) جَبَانٌ . (٥) يَبْدُرُ : يَفْطُرُ وَيَسْبِقُ .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممتُ اليوم يا أخى أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بدس والله ما هممتُ به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرّت به فعبيتُ بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبيتُ بها وأصغره ، وكان عبد الملك مُطْرِقًا فرفع رأسه وقال :

(إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فدمرناها تدميرًا) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تسكمني ؟ والله لقد دخل أمسٍ عليّ فما أقام لسانه لحنًا ، فقال خالد : أفعل الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تمعدتُ في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غير جدّى أبي سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النفير^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيّات وحبيبات والطائف ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب السكامل ١ : ٣٠٢ وجميع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص «جد عبد الملك» إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فكان يرمى غنيّات اتخذا يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيلة «مصغر حيلة كفرصة : وهى السكرمة» وقوله رحم الله عثمان : أى لرده إياه ، وقد أبى أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عليه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا مانع لهذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٢) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى برذونين حطمين^(٤) ، فإن استعملتكم ضيعتكم ، وإن عزلتكم قلم استخف بنا ، وقطع أرحامنا .

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهل رجلان : سامع مطيع مُناصح ، وعدو مُبغض مُكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإنما جزيناه ، ليزداد ودّاً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيعته ، وسَلَلنا حِقْدَه ، وكثَرنا لك المودة في صدور رعيّتك ، وإن هذا جَبَى الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال » .

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاه أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وأطه : جحدته . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فعزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم كحكتف : إذا هزل وأسن فضعف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمرك العدواة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ — نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّ سَمْعُكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَلَا ، كَمَا تَنْزَعُ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرُ إِلَى شَرٍّ مِثْلِي وَعَائِيهِ فَأَفَرَّغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةُ جَاهِلٍ فِيَّ فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ — تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةُ لِلْأُحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأُحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَهُ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهَا ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا تَمَلِّكَ أُمُورُكَ ، تَمَلِّكَ تَأْدِيبُكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَعَرْنَاكُمْ كُرْهًا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ — كلام معاوية وقد سقطت ثناياه

وَلَمَّا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهُهُ بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أَبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتُلِيَ الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَنْ

(١) وجد : غضب .

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوقِبَ الْخَاطِئُونَ قَبْلِي ، وَمَا آمَنْ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَئِنْ سَقَطَ عُضْوَانُ مِنِّي ، لَمَّا بَقِيَ أَكْثَرُ . وَلَوْ أَتَى عَلَى نَفْسِي لَمَّا كَانَ لِي عَلَيْهِ خِيَارٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا دَعَا بِالْعَافِيَةِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ عَتَبَ عَلَيَّ بَعْضُ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِّبًا^(١) عَلَى عَامَّتِكُمْ .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديداً ليقظة ، كثير التعاهد لولائه ، فبلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أَقْبِلْتَ هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيّتك على أفضل حال » قال : « أَجِبْ فِيمَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، أَقْبِلْتَ هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوّض إنك للثيم ، ولئن أنلت مذهبك لامن مالك ، أو استكفيتَه ما لم يكن يُستَكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوّض المهدى إليك من مالك ، وقبلت ما اتهمك به عند من استكفأك ، وبسط لسان عائبك ، وأطع فيك أهل عملاك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يَحُلْ فيه من دناءة ، أو خيانة ، أو جهل ، مُضْطَنَعٌ ، نَحْيَاهُ عَنْ عَمَلِهِ . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعْطَى الأقارب ، ويُدَانِي الأباة ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك^(١) ، إن أخاك مَن صدَّقَكَ ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تدم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التقدم فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعلمت السَّجَاعَةَ^(٢) عند الكبر ، في دون ما سَجَّعت به على ابن أخيك ما يكفيك » . ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلىَّ رشداً من نفسك سوى نفسي ، وإن يزيد أصبح غنياً في المال ، وَسَطاً في الحَسَب ، وإن الله سائلٌ كلَّ راجعٍ عن رعيته ، فأتق الله ،

(١) ناجيته : سارته . (٢) وفي العقد « السَّجَاعَةُ » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد في كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » . (٣) هكذا ورد في العقد الفريد ، وفي مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان ستة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد في الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفي حياة الحسن بن علي رضي الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفي الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر مَنْ تَوَلَّى أَمْرَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ « فَأَخَذَ مُعَاوِيَةَ بِهَرَّةٍ ^(١) حَتَّى تَنْفَسَ الصُّعْدَاءُ ^(٢) ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُحَمَّدُ : إِنَّكَ اسْرُؤْ نَاصِحٌ ، قُلْتَ بِرَأْيِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ إِلَّا ذَاكَ . قَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنِي وَأَبْنَاؤُهُمْ ، فَأَبْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، أَخْرَجَ عَنِّي » .

ثُمَّ دَعَا الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ الْفَهْرِيَّ ، فَقَالَ لَهُ : إِذَا جَلَسْتُ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَفَرَّغْتَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِي وَكَلَامِي ، فَاسْتَأْذِنِي لِلْقِيَامِ ، فَإِذَا أُذِنْتَ لَكَ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى . وَاذْكُرْ يَزِيدَ . وَقُلْ فِيهِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ . ثُمَّ ادْعُنِي إِلَى تَوَلِيَّتِهِ مِنْ بَعْدِي . فَأَبْنِي قَدْ رَأَيْتُ وَأُجْمَعْتُ عَلَى تَوَلِيَّتِهِ . فَاسْأَلُ اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ الْخَيْرَ ^(٣) وَحَسَنَ الْقَضَاءِ . ثُمَّ دَعَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَانَ التَّمَقِّيَّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودَةَ الْفَزَارِيَّ ، وَثَوْرُ بْنُ مَعْنٍ السَّلَمِيُّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِصَامٍ الْأَشْعَرِيُّ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا إِذَا فَرَغَ الضُّحَّاكُ ، وَأَنْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى يَزِيدَ .

وَجَلَسَ مُعَاوِيَةُ فِي أَصْحَابِهِ ، وَأَذِنَ لِلْوُفُودِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فخطبهم ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِهِ ، وَهُوَ لَاءُ النَّفَرِ فِي الْمَجْلِسِ قَدْ قَعَدُوا لِلْكَلَامِ — قَامَ الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ .

٢٣٣ - خطبة الضحّاك بن قيس الفهري

لحمدا لله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، إِنَّا قَدْ بَلَوْنَا ^(١) الْجَمَاعَةَ وَالْأَلْفَةَ ، فَوَجَدْنَاهَا أَحَقَّنَ لِلدَّمَاءِ ، وَآمَنَ لِلْسَّيْلِ ، وَخَيْرًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَلَا خَيْرَ لَنَا أَنْ نُتْرَكَ سُدًى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ؛ خاربه

على غيره خيرة بكسر الخاء مع سكون الياء وفنحها : فضله وخار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) شبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدَى عَلَيْهَا وَيُرَاحُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به الْعَصْرَانِ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، كَمَا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَخُلَفَائِهِ ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِكَ الْمَتَاعَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ دَعَةِ يَزِيدَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَيُمْنِ نَقِيبَتِهِ^(٤) ، مَعَ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَالشَّيْبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي عَقْلِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَشِيمَتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، مَا دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ فِي أُمُورِنَا ، وَالْقَنُوعِ بِهِ فِي الْوَلَايَةِ عَلَيْنَا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلَهُ لَنَا مَلْجَأً وَمَقَرّاً بَعْدَهُ ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا مِنْهُ ، فَاعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ ، عَزَمَ اللَّهُ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَفَقَكَ فِي أُمُورِنَا » .

٢٢٤ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

نَمِّ قَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ الثَّقَفِيِّ ، فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ أَهْوَاؤُهُ ، قَدْ اخْتَدَوْدَبَتْ عَلَيْنَا سِيَاسَاؤُهُ^(٦) ، وَاقْطَوْطَبَتْ^(٧) عَلَيْنَا أَدْوَاؤُهُ ، وَأَنَاخَتْ عَلَيْنَا أَنْبَاؤُهُ ، وَنَحْنُ نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جمع عابجة أمم فاعل من عاج إذا رجع : أى أن الأيام تعوج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش . (٢) العصر : اليوم واليلة والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيبة : النفس ، وهى أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأى ، والطبيعة . (٥) أى إن حدث حدث . (٦) السياء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سياء الحق أى على حده ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لَقَدْ حَمَلْتُ قَيْسَ بْنَ عِيْلَانَ حَرْبِنَا عَلَى يَابَنِ السَّيَاءِ مَحْدُودِبِ الظَّهْرِ

يقول : حملناهم على مركب صعب كسياء الحمار ، أى حملناهم على مالا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعول من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيهِ : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكبت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها « اقطوطى » أى قارب فى مشيه إسرعا .

عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأثبتتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين ، والمحبة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضيّق به ذرعاً^(٣) ، فالله تعالى يُقيم به الأود^(٤) ، ويردّع به الألد^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغِب^(٦) ، وظلّه ذاهِب^(٧) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبدلنا عرفاً^(٨) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجمله لنا بعدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كفافاً^(٩) ، وأقدمنا سلفاً ، وهورثك لما فُتق ، وزمام لما شعث^(١٠) ، ونكال لمن فارق وفاق ، وسلم لمن واظب . وحافظ للحق . أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد . ثم جلس .

(١) لعله « وأثبتنا » . (٢) بسط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المرة . (٣) ضاق بالامر ذرماً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . (٤) الاعوجاج . (٥) الالد : الخصب الشحيح الذي لا يرغب إلى الحق . (٦) صاحبه يعني به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم معمول من الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) السكف : الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرج شعثا : انتشر وفتق .

٢٢٦ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ، وأهواء منجذمة ^(١) ، نخاف حَذَّهَا ، وننتظر حِدَّهَا ، شديدٍ مُنْحَدِرُهَا ، كثيرٍ وَعَرُهَا ، شاحخةٍ مَرَّاقِبُهَا ^(٢) ، ثابتةٍ مراتبُها ، صعبةٍ مراكبُها ، فالموتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لا يخلدُ في الدنيا أحد ، ولا يبقى لِمَا أَمَدٌ ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأعلى عيناً بحُسنِ الرأى لأهل الطاعة ، وقد هُدِيت ليزيدَ في أكمل الأمور ، وأفضلِها رأياً ، وأجدها رِضاً ، فاقطع بيزيدَ قَالَةً ^(٤) الكلام ، ونَحْوَةً ^(٥) المُبِطَل ، وشَمَتَ المنافق ، واكْبَتَ ^(٦) به الباذخ ^(٧) للمعادي ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلَمٌ لِلشَّعَثِ ، وأسهل للوَعَثِ ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون . »

٢٢٧ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آتَرَكَ بِخِلَافَتِهِ ، واختَصَّكَ بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأنعمِهِ جَدِلاً ،

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراقب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ، يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقال ، والقليل . (٥) الكبير والمعظمة . (٦) كبته : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . (٧) بلخ كفرج ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال . (٨) وعث الطريق من بابي تمب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون المين وكسرها) .

وَلَمَّا حَمَلَكَ مُحْتَمِلًا ، يَكْشِفُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَ الْعَمَى ^(١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْعِدَا ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ لِلنَّاسِ بِرِعَيْتِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقُّهُمْ بِالْخِلَافَةِ بِعَدِكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ وَأَحْكَمَتِ الدَّهَوْرَ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْفَهْمِ ^(٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّفِيهِ ، قَدْ احْتَجَنَ ^(٣) الْمَكَارِمَ وَارْتَجَى لِحْلِ الْعِظَائِمِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعَدُوِّ نَكَايَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوَلَايَةِ ، وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْفَظَ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزَ أَنْفُسَكَ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ فِي غَيْرِ جَهْدٍ ^(٤) ، وَالنِّعْمَةَ فِي غَيْرِ تَغْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَقَامَ فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَنْثَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : فَإِنْ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، طَوِيلَ الْبَاعِ ، رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَضَقْتُمْ إِلَيَّ حِلْمَهُ وَسِعْكُمْ ، وَإِنْ اخْتَجْتُمْ إِلَيَّ رَأْيَهُ أَرْشَدَكُمْ ، وَإِنْ افْتَقَرْتُمْ إِلَيَّ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَذَعٌ ^(٥) قَارِحٌ ^(٦) ، سُوْبُقٌ فَسَبَقَ ، وَمُوجِدٌ فَمَجَّدَ ، وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمُهُ ، فَهُوَ خَلَفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلَفَ مِنْهُ . » فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ .

قَالَ مُعَاوِيَةُ : « أَوْ كُلُّكُمْ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى هَذَا رَأْيِهِ ؟ » فَقَالُوا : « كُلُّنَا قَدْ أَجْمَعَ »

(١) الْعَمَى هُنَا : ذَهَابُ بَصَرِ الْقَلْبِ . (٢) الْفَهْمِ وَالْفَهْمُ : الْعَيْسَى ، فَهُوَ كَفَرَحُ فَهَاهُ .

(٣) احْتَجَنَ الْمَالُ : ضَمَّهُ وَاحْتَوَاهُ . (٤) الْمَشَقَّةُ . (٥) الْجَذَعُ : الشَّابُّ الْخَدَثُ .

(٦) أَيْ شَدِيدُ الْجَرْبِ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ وَصْفٌ لِلْفَرَسِ ، قَرِحَ الْفَرَسُ قَرُوحًا : إِذَا أَلْقَى أَقْصَى أَسْنَانِهِ

() وَلَهُ أَرْبَعُ أَسْنَانٍ يَتَحَوَّلُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، يَكُونُ جَذَعًا - ذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ - ثُمَّ ثَنِيًا « بِفَتْحٍ فَكسرٍ مَعَ تَشْدِيدِ الْيَاءِ » - فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ - ثُمَّ رُبَاعِيًا « بِفَتْحٍ أَوَّلُهُ وَثَانِيَةٌ وَتَحْفِيفُ الْيَاءِ » - إِذَا سَقَطَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ، وَنَبَتَ مَكَانُهَا سَنٌ وَذَلِكَ إِذَا اسْتَمَّتْ الرَّابِعَةُ - ثُمَّ قَارِحًا - إِذَا سَقَطَتْ السَّنُ الَّتِي تَلَى رُبَاعِيَّتَهُ وَنَبَتَ مَكَانُهَا نَابَةٌ ، وَهُوَ قَارِحُهُ الَّتِي صَارَ بِهِ قَارِحًا ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْقُرُوحِ سَقُوطُ سَنٍ ، وَلَا نَابَاتُ سَنٍ ، وَذَلِكَ إِذَا اسْتَمَّتْ الْخَامِسَةُ وَدَخَلَ فِي السَّادَةِ .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابته ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرٍ زمانٍ قد سَكَفَ ،
ومعروفٍ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ اِخْلَافٍ ، فإن تَوَلَّاهُ عهدك ،
فمن غير كِبَرٍ مُقْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضْنٍ ، وقد حَكَبَتِ الدهور ^(٢) ، وجَرَبَتِ الأمور ،
فَاعْرِفْ من تُسْنِدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، وَاَعْصِرْ رأى من يأمرك ،
ولا يقدِّر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظرُ للجِماعَةِ ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان
الحسن ^(٣) حيا . »

٢٣٠ - خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق من أهل العراق ، مُرُوءَتُهُمْ في أنفسهم
الشقاقُ ، وَأُلْفَتُهُمْ في دينهم الفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الحق على أهوائِهِمْ ^(٤) ، كما نأمنوا ينظرون

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر اشطره »
وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشاركل
خلفين من أخلائها ، والخلف (بكسر الخاء) لها كالفرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره بدل
من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميولهم .

بِأَقْفَانِهِمْ . اخْتَالُوا جَهْلًا وَبَطَرًا . لَا يَرْقُبُونَ مِنْ اللَّهِ رَاقِبَةً ، وَلَا يَخَافُونَ وَبَالَ عَاقِبَةٍ ،
اتَّخَذُوا لِإِبْلِيسَ لَهُمْ رَبًّا ، وَاتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسَ حِزْبًا . فَمَنْ يُقَارِبُوهُ لَا يَسْرِوْهُ ، وَمَنْ يَفَارِقُوهُ
لَا يَضُرُّوهُ . فَادْفَعْ رَأْيَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَحْوِزِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ ، مَا لِلْحَسَنِ
وَذَوِي الْحَسَنِ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي اسْتَخْلَفَ بِهِ مَعَاوِيَةَ فِي أَرْضِهِ ؟ هِيَئَاتِ لَا تُورِثُ
الْخِلَافَةَ عَنْ كِلَالَةٍ . وَلَا يَحْجُبُ غَيْرُ الذِّكْرِ الْعَصْبَةَ . فَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ
عَلَى الْمَنَاصِحَةِ لِإِمَامِكُمْ . وَكَاتِبِ نَبِيِّكُمْ ^(١) وَصَهْرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمُ لَكُمْ الْعَاجِلُ ، وَتَرْجُوهُ
مِنْ الْآجِلِ .

٢٣١ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا ^(٣) عَنْكَ قَرِيبًا ، فوجدناك أَكْرَمَهَا زَنْدًا ،
وَأَشَدَّهَا عَقْدًا ، وَأَوْفَاها عَهْدًا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَفْتَحِ الْعِرَاقَ عَفْوَةً ^(٤) ، وَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهَا
قَمْعًا ^(٥) ، وَلَسْتُكَ أُعْطِيتَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، لِيَكُونَ لَهُ الْأَمْرُ
مِنْ بَعْدِكَ ، فَإِنْ تَفَّ فَإِنَّتِ أَهْلُ الْوَفَاءِ ، وَإِنْ تَغْدِرَ ^(٦) تَعْلَمْ وَاللَّهِ أَنْ وِراءَ الْحَسَنِ خِيُولًا
جِيَادًا ، وَأَذْرَعًا شِدَادًا ، وَسِيُوفًا حِدَادًا ، إِنْ تَدُنْ لَهُ شِبْرًا مِنْ غَدَرٍ ، تَجِدْ وِراءَهُ بَاعًا
مِنْ نَصْرِ ، وَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَحْبَبُوكَ مِنْذُ أَبْغَضُوكَ ، وَلَا أَبْغَضُوا عَلِيًّا وَحَسَنًا
مِنْذُ أَحْبَبُوهُمَا ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي شَهَرُوهَا عَلَيْكَ
مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفِّينَ لَعَلَّى عَوَاتِقِهِمْ ، وَالْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضُوكَ بِهَا ، لَتَبْنَ جَوَانِحِهِمْ ، وَإِيمَ اللَّهِ
إِنَّ الْحَسَنَ لِأَحَبُّ إِلَيَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مِنْ عَلِيٍّ . »

(١) وكان معاوية من كتاب الوحي . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد عنوة : أي قهرا . (٥) مات قمعا : أصابته ضربة أو رمية فأت مكانه .
(٦) غدره وغدر به كنصر وضرب وسم .

٢٣٢ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ،
 لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
 لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها لحمل الرعية ،
 فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حِلماً وعلماً ، وأوسعنا
 كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصّدت به سُبُل المذاهب ، فلا يصرفنك
 عن بيعته صارف ، ولا يَقِفَنَّ بك دونها واقف ، ممن هو شاسِعٌ ^(١) عاصٍ ، يَنُوصُ ^(٢)
 للفتنة كل مناصٍ ، لسانه ملتوٍ ، وفي صدره دلاء دوى ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن
 سكت فداء غائب ^(٣) ، قد عرفنا مَنْ هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبية للتوفيق ،
 والتكلف للتفريق ، فاجلُ بيعته عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تتحد عنه
 إذ هُديت له ، ولا تنبش عنه إذ وقفت له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحق علينا
 وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه » .

٢٣٣ — خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخُلَائناً ، بهم يستعدُّ ، وإياهم يستعين
 وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جَفَوا ^(٤) وإن استغنى عنهم أَرَجَفُوا ^(٥) ،

(١) من شمع المنزل كنع : بعد . (٢) ناص مناص : تحرك . (٣) من غاله : أى أهلكه .

(٤) أصرعوا ، وجف الجعر والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أمهته ، قال تعالى :

« كَفَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ » أى ما أعلمهم .

(٥) أرجف القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمَرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفِتْنِ بِالْفُجُورِ ، وَيَشَقُّونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عَيَّابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوَّا عُرُوءَ أَمْرِ حَنَفِيَّوَا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَبَسُوا أَوْلَئِكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا مَتَّعَيْنَ ، حَتَّى تَصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ، نَجْعَتْ^(٤) أَصُولُهُمْ كَاجْتِنَاثِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوَّلَى لِأَوَّلِكَ ثُمَّ أَوَّلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النُّذُرُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المنقع

ثُمَّ قَامَ يَزِيدُ بْنُ الْمُنَقَّعِ ، فَقَالَ :

« أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا — وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ — ، فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا — وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ — ، فَمَنْ أَبَى فَهَذَا — وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ » ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : اجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ .

٢٣٥ - خطبة الأحنف

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنْتَ أَعْلَمُنَا بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسَرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَدْخَلِهِ وَخُرْجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ اللَّهُ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

(١) فِي الْأَصْلِ « يُلْحِقُونَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَصَوَابُهُ : « يُلْقِحُونَ » مِنْ أَلْقَحَ النَّاقَةَ وَالنَّخْلَةَ .

(٢) جَمْعُ صَاعِقَةٍ : وَهِيَ الْمَوْتُ وَكُلُّ عَذَابٍ مُهِلِكٍ . وَأَرْضٌ وَبَيْلَةٌ : وَخِيْمَةُ الْمَرْتَعِ .

(٣) جَمْعُ قَارِعَةٍ ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْفَاجِئَةُ . قَالَ تَعَالَى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَغَفُوا قَارِعَةً » .

(٤) تَقْتَلَعُ ، وَالتَّقَعُّعُ بِالْفَتْحِ وَيَكْسَرُ : الْبَيْضَاءُ الرَّخْوَةُ مِنَ السَّكَاةِ .

(٥) النَّذْرُ : الْإِنْذَارُ . قَالَ تَعَالَى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أَيْ إِنْذَارِي . وَفِي الْإِمَامَةِ

وَالسِّيَاسَةِ عَقِبَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ : وَفَدَا مُعَاوِيَةُ لِفُسْحَاكِ فُلُوَاهِ السَّكُوفَةَ ، وَفَدَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فُلُوَاهِ الْجَزِيرَةَ .

منه غير ذلك ، فلا تزودّه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدّمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم مَنْ هُما ، وإلى ما هُما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شرِّ معاوية » فقال له معاوية : « تعوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَمَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَحْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٣٣٦ — خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبير سنِّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وأوشكتُ أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حَسَنًا وحُسَيْنًا إلا أنهم ما أولاد أيهما ، على حُسْنِ رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذي ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمت فأنصت بنا . وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرّفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنيبها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العالم الخبير ، وأستغفر الله لي ولكم . »

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهَاهُ ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً^(١) ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه أئلفة إن أخذ فيها بالقرآن : « أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأُولُو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأئ الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وإيم الله لو ولوه بعد نبينهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه وصدق ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيته ، فإنك مسئول عنها غداً ،

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج : أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تُحْضِرَهما ، فوالله ما أصبتَ الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معَدِنِ العلم والكرم ، فقلْ أودعْ ، وأستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمدَه على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بآثارها السَّنيَّة ، وأفعالها المَرْضِيَّة ، مع شرف الآباء ، وكرَم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصِف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسنةً وحُسَيْنًا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك . »

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرَّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بِهَرَقْلِيَّة ، ولا قَيْصَرِيَّة ، ولا كِسْرَوِيَّة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قریش خاصة ، لِمَن كَانَ لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، مَن كَانَ أتقى وأَرْضَى ، فإن كنت تريد الْفِتْيَان من قریش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أَنَّهُ لا يُغْنِي عنك من الله شيئاً .

٢٤١ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحبُّ إلىَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قارلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَّى الناس أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد ولَّى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مغاضبا في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قاول : فاعل من القول ، كجاءت وخاطب وكالم . (٢) أعطيات : جمع عطية ، وهو جمع عطاء .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يَقْدِرُ ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم لدعائهم دينه أوتاداً . هم رُقَبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخَلَقَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أَسْفَرَ ^(٢) بِهِم الظلم ، وَأَلْفَ بِهِم الدينَ ، وَشَدَّدَ بِهِم اليقينَ ، وَمَنَحَ بِهِم الظَّفَرَ ، وَوَضَعَ بِهِم من استكبر ، فَسَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خَلْقَانَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكُنَّا نَكُونُ لَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرِّعْيَةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتَ وَجْوهٍ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُحْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَأِ الرِّحَالِ ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا ^(٦) ، وَتَمْتَقُ أَحْلَابُهَا ^(٧) ، فَالْنَا لَانِسْتَأْمَرَ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْنُمُ اللَّهُ لَوْلَا هَهُؤُ ذِمَّةٌ مَوْكَدَةٌ ، وَمَوَاتِيْقُ مُعَقَّدَةٌ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّهَا ، فَأَنَّمِ الْأَمْرُ بَيْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدَلَ عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نَظْرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .
فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ مِنْ كَلَامِهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، ثُمَّ كَظَمَ غِيْظَهُ بِجِلْدِهِ ، وَأَخَذَ بِيَدِ مَرْوَانَ ، ثُمَّ قَالَ :

- (١) قدره من باب نصر وضرب وقدره تقديرًا : عظمه ، قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أي ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر : أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سمرت الحرب أي ولت ، وصمرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار : المشاورة . (٤) في الأصل « مستخيرة » أي مستخير صاحبها ، من استخار الله في أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها « مستحيرة » بالحاء : أي مستحير صاحبها أي متحير ، من استحار : إذا نظر إلى الشيء ، ففتش عليه ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أي مستغلقة مبهمة ليست مستقيمة . (٥) جلس البعير كضربه : فشاه يجلس (بكسر الحاء) وهو كساة على ظهر البعير تحت البرذعة « وفي الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بجيمين وهو تصحيف » . (٦) الجزور : البعير ، أو خاص بالناقة المجزورة . (٧) امتق الفصيل ماني الضرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتح الحين) وهو اللبن المحلوب . (٨) اسم مفعول من عقد بالثدي مضعف عقد الحبل والبيح والعهد : إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعل في الكرم مني مَحْتِداً ^(١) ، والعزيم مني والداً ، اخْتِزَتْ من قُرُومٍ ^(٢) قادة ، ثم اسْتُلِّتَ سَيِّدَ سَادَةٍ ، فأنت ابن يَنَابِيعِ الكرم ، فَمَرَّ حَبَابُكَ وَأَهْلًا من ابن عم ، ذكرت خلفاء مَفْقُودِينَ ، شهداء صِدِّيقِينَ ، كَانُوا كَمَا نَمَتْ ، وَكَفَتْ لَهُمْ كَمَا ذَكَرْتَ ، وقد أَصْبَحْنَا في أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ، ذَاتِ وُجُوهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أَوْدِيهَا ، وذُلُولَ ^(٣) صَعُوبَتِهَا ، وَسُقُورَ ظُلُمَتِهَا ، حَتَّى يَتَطَاطَأَ ^(٤) جَسِيمُهَا ، وَيَرْكَبَ بِكَ عَظِيمُهَا ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وَعُدَّتْهُ في كُلِّ شِدِيدَةٍ وَعُضْدَةٍ ، والثاني بعد وليّ عهدِهِ ، فقد وَلَّيْتُمْ قَوْمَكَ ، وَأَعْظَمْتُمْ في الْخِرَاجِ سَهْمَكَ ، وَأَنَا مُجِيرٌ وَفَدَّكَ ، وَحَسَنٌ رِفْدُكَ ^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غِنَاكَ ، والنزول عند رضاك ^(٦) . »

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سِنَتُهُ ، وَدَقَّ عَظْمُهُ ، وقد خاف أن يَأْتِيَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَدْعَ النَّاسَ كَالْغَنَمِ لَارَاعِي لَهَا ، وقد أَحَبَّ أَنْ يُعْلِمَ عِلْمًا ، وَيَقِيمَ إِمَامًا » ، فقالوا : وَفَّقَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَدَّدَهُ ، لِيَفْعَلَ ، فكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ سَمَّ يَزِيدَ ،

(١) المَحْتِدُ: الْأَصْلُ . (٢) جَمْعُ قَرَمٍ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ السَّيِّدُ . (٣) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَفِي

كُتُبِ اللَّغَةِ : « الذَّلُّ بِالْكَسْرِ وَالضَّمُّ اللَّيْنُ وَهُوَ ضِدُّ الصُّوْبَةِ ، ذَلٌّ فَهُوَ ذُلُولٌ ، يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ وَالْأَدَابَةِ . »

(٤) طَاطَأَ رَأْسَهُ : خَفَضَهُ نَطَاطَأَ . (٥) الرِّفْدُ : الْمَعَاةُ وَالصَّلَةُ . (٦) قَالَ الْمَسْعُودِيُّ :

« وَجَعَلَهُ وَلِيَّ عَهْدِ يَزِيدَ : وَرَدَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَزَلَهُ عَنْهَا ، وَوَلَّاهَا الْوَلِيدَ بْنَ عَتَبَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَلَمْ

يَفِ لِمُرَرَّانٍ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ وَلَايَةِ عَهْدِ يَزِيدَ » ، وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : « فَكَانَ أَوَّلُ مَا رَزَقَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ

هَلَالٍ ، وَفَرَضَ لَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ مِائَةَ مِائَةِ » .

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فحفصهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدي رضى دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تتحدثوا علينا سنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لِّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعث ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : الابن الصديق يقول هذا ؟ استرونى فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون فى هذه الآية : « والمراد (بالذى قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو فى الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعمت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت فى عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأنف بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذى قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرماية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يأبى الناس هو الذى قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أبأك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ . (وقولها فضض كجبل ويروى كمتق وخراب أى قطعة منها) .

وجاء فى السيرة الحلبية (١ : ٢ . ٣) : « من الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منكم - وقليل ما هم - ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم فى الآخرة من خلاق » ، وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأق إلى به مروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، المملون بن المملون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتى بما فى صلب هذا » .

« يابن الزرقاء^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتسكلم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك . قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجاً ، ثم أرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وليّ النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالي عما يقول الملحّدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافّة ، لينذّرهم بقرآن : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، فأدّى عن الله ، وصدّع^(٢) بأمره ، وصبر على الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأعزّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخّر له ، زهادة واختياراً لله ، وأنفة واقتراراً على الصبر ، وبقياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلّفه رجالان محفوظان ، وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوَض طالما عاجباه ، مشاهدة

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لعبد الرحمن ابن الحسك ، فقال :

إِنَّ الْعَيْنَ أَبُوكَ فَارْمِ عِظَامَهُ إِنْ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لاجابة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ « ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحسك بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضمهها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعبيه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها .

(٢) قوله تعالى : « فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ » أى شق جماعاتهم ، بالتوحيد أواجه بالقرآن ، أو أظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَئَةً، وَمَعَابِنَةً وَسَمَاعًا، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَعْلَمَانِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِلَى تَجْوِيزِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا أَحَاوَلَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ، مِنْ سَدِّ الْخَلَلِ، وَلَمْ يَصْدَعْ
بَوْلَايَةَ يَزِيدَ، بِمَا أَيْقَظَ الْعَيْنَ، وَأَتَّخَذَ الْفِعْلَ، هَذَا مَعْنَايَ فِي يَزِيدَ، وَفِيكَامَا فَضْلُ الْقِرَابَةِ،
وَحِظْوَةُ الْعِلْمِ، وَكَالِ الرُّوْمَةِ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَظَرَةِ وَالْمَقَابَلَةِ،
مَا أَعْيَانِي مِثْلُهُ عِنْدَكُمَا، وَعِنْدَ غَيْرِكُمَا، مَعَ عِلْمِهِ بِالسَّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ
بِالصُّمِّ^(١) الصَّلَابَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الرُّسُولَ الْحَفُوظَ بِمِصْنَمَةِ الرِّسَالَةِ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِيقِ
وَالْفَارُوقِ، وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ، وَأَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ
السَّلَاسِلِ^(٢)، مَنْ لَمْ يَقَارِبِ الْقَوْمَ، وَلَمْ يَمَانِدْهُمْ^(٣)، بِرَبِّيَّةٍ فِي قِرَابَةِ مَوْصُولَةٍ، وَلَا سُنَّةٍ
مَذْكُورَةٍ، فَقَادَهُمُ الرَّجُلُ بِأَمْرِهِ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ، وَقَالَ وَلَمْ
يُقَلِّمْ مَعَهُ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَلَا بَنَى عَبْدُ الْمَطْلَبِ، فَإِنَّا
وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفْعٌ وَجِدٌّ، وَمَا زِلْتُ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكُمَا، فَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا
بِفَضْلِ قَوْلِكُمَا، فَرُدًّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِتَابِكُمَا، وَأَسْتَغْفِرُ
اللَّهَ لِي وَلِصَلَامَتِكُمَا .

فَتَيْسَّرُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلْكَلَامِ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْمُخَاطَبَةِ، فَأَشَارَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكَ، فَأَنَا الْمُرَادُ، وَنَصِيحِي فِي الشَّهْمَةِ أَوْفَرُ، فَأَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَامَ الْحُسَيْنُ :

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهي وراة وادي
القرى من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل-وبذلك سميت تلك الغزوة .
غزوة ذات السلاسل - خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة
ابن الجراح في المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تتخلفا ، فخرج
أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مددا لي ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا
عليه ، وأنت على ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلا ليئا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا - فقال له عمرو : بل
أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تتخلفا ، وإنك إن
عصيتني أطمعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوئك : فصلى عمرو بالناس .
(٣) المعاندة : المفاوكة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

٢٤٦ - خطبة الحسين

لحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدَّى القائلُ - وإن أظنَّ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما ألبستَ ^(١) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجاز الصفة ، والتكُّب عن استبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضح الصبحُ فحمة الدُّحى ، وَهَرَّتْ ^(٢) الشمسُ أنوارَ الشُّرُج ، ولقد فضَّلْتَ حتى أفرطت ، واستأثرتَ حتى أجهفتَ ، ومنعتَ حتى بخلت ، وَجَرْتَ حتى جاوزت ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أتمِّ حقِّه بنصيبٍ ، حتى أخذَ الشيطانُ حظَّه الأوفر ، ونصيبه الأكل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ بحجوباً ، أوتعتُ غائباً ، أو تُخبر عما كان مما احتويتهُ بعلم خاص ، وقد دَلَّ يزيدُ من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أَخَذَ به من استقرائه ^(٣) الكلابَ للمهارشة ^(٤) عند التجارش ، والحمامَ الشُّبْقَ لأثرائِهِنَّ ، وَالْقَيْنَاتِ ^(٥) ذواتِ المعازِفِ ، وضروبِ الملامى ، تجذَّه ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناكَ أن تلقَى اللهَ بِوِزْرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحتَ تقدِّمُ باطلاً في جَوْر ، وَحَقّاً في ظلم ، حتى ملأتَ الأسْفِيَةَ ، وما بينك وبين الموتِ إلا عَمَضَةٌ ، فَيَقْدِمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومٍ مشهودٍ ، ولات حين مناصٍ ، ورأيتُكَ عَرَضْتَ بنا بعد هذا الأمر ، وَمَنَعْتَنَا عن آبائنا تَرَائِكاً ، ولقد - لعمرُ الله - أوردنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبسه : غطاء . (٢) يقال بهر القمر كنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرّج جمع

سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبّع أفرادها . (٤) المهارشة : تحريش

بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهى الجارية المغنية أو أعم ، والمعازف : الآلات التى يضرب بها

كالعود ، جمع معزف كمنزف .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجَجْتُمْ به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأذعن بالحجة بذلك ، وردّه الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأعالي ، وفعلتم الأفاعيل ، وقتم كان ويكون ، حتى أتاك الأمر يا معاوية ، من طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك^(١) ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وذكّرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمره له ، وقد كان ذلك ، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة ، بصحبة الرسول وبيعه له وما صار لعمرو يومئذ حتى أنف القوم إمرته ، وكرهوا تقديمه وعدّوا عليه أفعاله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا جرّم^(٢) معشر المهاجرين ، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري » . فكيف يُحتجّ بالمنسوخ من فعل الرسول ، في أوكد الأحوال ، وأولاهها بالاجتماع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعاً ، وحوالك من لا يؤمن في صحبته ، ولا يعتمد في دينه وقرايته ، وتتخطاهم إلى مُسرف مفتون ؟ تريد أن تلبس الناس شبهة ، يسعد بها الباقي في دنياه ، وتشتقّ بها في آخرتك ، إن هذا هو الخسران المبين ، وأستغفر الله لي ولكم .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ، ولما عندك أذهى وأمر ! فقال ابن عباس : لعمري الله ، إنها لذرية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأحد أصحاب الكساء^(٣) ، ومن البيت المطهر ، فإله عما تريد ، فإن لك في الناس مَقْنَعًا ، حتى يحكم الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أعود^(٤) الحليم التحلم ، وخيره التحلم عن الأهل . انصرفا في حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

(١) مهمل عن هنا ، يقال هناء الطعام : إذا ساغ ولذ ، أي فهنيئاً لك ما نلت من الخلافة .

(٢) لا جرم : قال للفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقاً ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون : « لا جرم لأتيناك » . (٣) انظر ص ٣٢ . (٤) أعود : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ - خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :
« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك
بيعةُ جماعةٍ ، وأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإنّی أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسلمين ، وتسعى
في تفریق مِلَّتِهِمْ ^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء ،
وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وَكَّدَ الناسُ بيعتهم في أعناقهم . وأعطوا على ذلك
عهودهم موافقهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير
من أبنائهم ، فلم يرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، فلم يُحَابُوا في هذا الأمر أحدًا ،
ولسكن اختاروا لهذه الأمة حيثُ علِمَوم ، وأنت تحدّثني أن أشقَّ عصا المسلمين ، وأفرّق
ملائم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ،
فسأدخلُ في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن
ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ددنا أن
نكللك إلى الله فيما جَسَرْتَ عليه من أمر يزيد ، والذي نفسى بيده لتجعلنها شُورى ،
أو لأعيدنها جذعةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : على رسلك

(١) اللأ : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاع ، كلما خرجت من جُحْر انجَحَرْتَ^(١) في آخر ، أنت أَلَبْتُ^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باعناه أيكما نُطِيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت ملأت الخلافه فاخرج منها ، وباع ليزيد ، ففحن نبايعه ، فكثرت كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله مأراك إلا قاتلاً نفسك ، ولسأني بك قد تحبَّطت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لقد هممتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدرة^(٣) إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخبرت المدينة ببيعته ، وقلتُ : بِيَضَّتْهُ^(٤) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير المسلمين من يزيد لبايعت له » .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركتُ مَنْ هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً ! » فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله » ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فلعمري أمك خير من أمه ، ولولم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لسكان نساء قريش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أي دخلت ، جحر الضب كنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأييب : التحريض والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه^(١) . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، ففضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : « حَسْبُكَ جَهَنَّمُكَ . آثَرَتَ العَاجِلَ عَلَى الآجِلِ » . فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر . ومشتريُ اللهو خيرٌ مني ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذُكرت عنده بسوء لم يَشْتُمَكَ » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :

« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكأنت بيعته بيعَةً هُدًى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعملُ عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظراً لهم بعين الإيناف » .

* * *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن عليّ ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ؛ فأقبل عليّ عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بَدَنَةٌ^(٢) يترقوق دُمُها والله مُهَرِّيقُه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضَبٌّ ثَلَمَةٌ^(٣) ، مُدْخَلُ رَأْسِهِ تَحْتَ ذَنَبِهِ » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال :

(١) وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية . (٢) البدنة : من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى . (٣) الثلثة : ما ارتفع من الأرض وما انهدت منها .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رَهْطه الأذنين مَنْ كان لها أهلاً ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها سُورَى في ستة نَفَرٍ من قريش يختارون رجلاً منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وَلِيَهَا لكان لها أهلاً .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتلٌ مُقَالَةٌ ، فإياكم أن تعترضوا عليَّ حتى أُنْتَمَهَا ، فإن صدقت فعليَّ صِدْقِي ، وإن كذبت فعليَّ كَذِبِي ، وأقسم بالله لئن رَدَّ عليَّ رجل منكم كلمةً في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يُضْرَبَ رأسُهُ ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبْقِي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يردُّ بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوارٍ^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرَهْط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرِمُ أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ،

(١) الموار : مثلثة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتهم وأرضيتهم بايعتهم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خِفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،
والآمال ٢ : ٧٣ ، وذيّل الآمال ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ ،
والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) .

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، آجَرَكَ اللهُ على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئتَ عظيماً ، وأُعطيْتَ جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيْتَ ، واضبرْ له على ما رُزيتَ فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقتَ جليلاً ، ووهبتَ جزيلاً ، إذ قُضِيَ معاوية نَحْبُه ، فغفر الله ذنبه ، وولَّيتَ الرياسة ، فأعطيتَ السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ورفقك إصلاح الأمور ، وأشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقتَ ذائِقَةً واشكر حِباء الذى بالملك أصفاك^(١)
لا رُزءَ أصبح فى الأقوام نعلمه كما رُزئتَ ، ولا عُقْبَى كعقبى كعباك
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنْتَ ترعاهمُ والله يرعاك
وفى معاوية الباقي لفا خلفُ إذا نُعِيتَ ، ولا نسمعُ بمنعك^(٢)
« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجَّه الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد

٢ : ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاه : آثره . (٢) هو أبو ايلي معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى للمسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِي ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأُعطيت خلافة الله ، وَمُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نجيته ، فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، واتخذَه قَلَى أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسُميت خير الأسماء ، وَمُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قریش مفعوجةً يبعدُ ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلحدون عَوْقها
عنك فيأبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَدَدوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتد به ينوى به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات صغيرا قيل افتطره) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفى عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئتَ خيرَ الآباء ، وسميتَ خيرَ الأسماء ، وأُعطيتَ أفضلَ الأشياء ، فمظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل^(١) الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك^(٢) بغير القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أى قضى على عبد الملك بإسقاط الجار .

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام ولّى زياداً فارس - أو بمض أعمال فارس - فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبّ خراجها وحمّاه ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من ممالأته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده^(١) ، فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آ كِلَّةِ الأ كباد^(٢) ، وقائلةُ أسدِ الله ، ومُظهرِ الخلاف ، ومُسرِّ الفُراق ، ورئيسِ الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرُعد ويُبرق^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خُطّة ما ارتقاها مثلك يا بن سمية ، وإذا لُتاك كتابي هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأمرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سبي ، وأقسم قسماً مبروراً أن لا أوق بك إلا في زمارة ، تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حق أقيمك في السرق ، وأبيطك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه . » (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشي مولى جبير بن مطعم ، فدعا سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بمعنى طعيمة فأنت حر . (٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَبَلٍ^(١) لا ماء فيها ، وَعَمَّا قَلِيلَ تَصِيرُهَا الرِّيحُ قَرَعًا^(٢) ، وَالَّذِي يَدُلُّنِي عَلَى
ضَعْفِهِ تَهْدُدُهُ قَبْلَ الْقُدْرَةِ ، أَفَنُ إِشْفَاقٍ عَلَى تَنْذِيرٍ وَتُعْذِرُ؟ كَلَّا ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ
مَذْهَبٍ ، وَقَعَقَعَ^(٣) لِمَنْ رَوَى بَيْنَ صَوَاعِقِ تِهَامَةٍ^(٤) ، كَيْفَ أَرْهَبُهُ وَيَبْنِي وَبَيْنَهُ ابْنُ
بَنَتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ أَبِي عَمْرِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟
وَاللَّهُ لَوْ أُذِنَ لِي فِيهِ أَوْ نَذَبَنِي إِلَيْهِ ، لَا أُرِيَّتُهُ الْكُؤُوبُ نَهَارًا ، وَلَا أَسْمَعُ^(٥) مَاءَ الْخُرْدَلِ
دُونَهُ ، السَّكَّالَمُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٧ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(١) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ،
وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

-
- (١) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . (٢) القزع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القمعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت « ومنه « مايقعق له بالشان »
وسياق تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (ربى)
وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت
للسواعق ، ففرغ الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا
فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة
لم تزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سمعه الدواء كتمه ونصره وأسمعه إياه : أدخله في أنفه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك كالغريق
يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا في الحياة ، إنما يكفر التعم ويستنقى النعم
من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض قصادا . فأما سبك لي فلولا حلم يهاني عنك ، وخوف أن أدعى سفيا
لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة . وأما زعمك أنك
تختطفني بأضعف ريش وتتناولني بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر؟ أم هل سمعت بذئب أكله
خروف ؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك ،
وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ، الظالع إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل المغيرة يترقب به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله ، ولا يقطع رَحِمَه ، فترث زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصيفين ما يُذيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكَل الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني خائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أئحَدَ العاقبتين العافية ، وسأعلُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومَغَبَّة ، فقد حِدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاه معاوية جميع ما سألَه ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٦٩)

(١) وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بي ، وبفضك لي على أن عقلت قرابتي ، وقطعت رحمتي ، وبنت نسبتي وحرمتي ، كأنك لست نحي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جانبي ووثقت بي ، فإمرة بإمرة » وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لأهل ولاي والسلام .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزع في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأني ما فيه المطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره ، فتركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا صدر ، كالمتهربين مجهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير . »

٢٥٨ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زيادا معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة^(١) التي تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ، فَن كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا » ، فَقَامَ نَاسٌ ، فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^(٢) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مُعَاوِيَةَ وَمَنَاشِدَتُهُ ، قَامَ زِيَادٌ وَأَنصَتِ النَّاسُ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) المِرْقَاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة . (٢) فقام أبو مريم السلولى — وكان خازنا فى الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبى سفيان : قدم علينا بالطائف ، فأتانى ، فاشتريت له لحما ونخرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبأ مريم ، أصيب بى بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبأ سفيان من قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يحىء الآن عبيد بغنمه — وكان راعيا — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلفة سمية ، فقال : اثنتى بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبأ مريم ، إنما بهتت شاهدا ، ولم تبعث شاهدا ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتموى لكان أحب إلى ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألث أن خرج على مسح جبينه ، فقلت : مه يا أبأ سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبأ مريم لولا استرخاء من ثديها ، وذفر فى إبطها — والدفر بالتحريك ويسكن : الثنن ، والذفر بالتحريك : كل ريش ذكية من طيب أو نثن أو ينخص براحة الإبط الملتنة — وكانت أمه سمية قد وهبا أبو الخير بن عمرو السكندى للحارث بن كلفة — وكان طبيبا يبالغ — فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبأ بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريك بغى ، فانتنى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا فى إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام أو كان قرشيا لساق العرب بهصاء ، فقال أبو سفيان : أما والله —

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمَ لى بآخِرِه ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنّا ما ضيّعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مَبْرُور ، أو رَبِيبٌ ^(١) مشكور » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ،
ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمانى ص ١٨٩)

٢٥٩ — خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البَصْرَةَ « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » والياً لمعاوية بن أبى سفيان ، وضم إليه خُرَاسان وسجِسْتان ، والنُسُق بالبصرة كثير فاشِ ظاهر ، فخطب خطبةً بَتْرَاء لم يحمَدِ الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيدَ من نِعَمه وإكرامه . اللهم كما زِدْتَنَا نِعَمًا فَأَلْهِمْنَا شُكْرًا » أما بعدُ : فإن الجَهْلَةَ الْجَهْلَاءَ ^(٢) ، والضَّلَالَةَ الْعَمِيَاءَ ، والغَى الْمُوفَى بأهله على النار ، ما فيه سهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلْمَاؤُكُمْ ^(٣) ، من الأمور الْعِظَامَ ، يَنْبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تَقْرَءُوا كِتَابَ الله ، ولم تَسْمَعُوا

= إنه لقرشى ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت فى رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قال : أخاف هذا المير الجالس أن يخرق على إهابى .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه : « وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر بن الخطاب قلقة من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب السكبة ، ولم تزل فى نفسه حتى ادعاء معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سفيان ، قال الطبرى : « وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل » . (١) « ربيب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واد ، وهيج هامج ، وإيلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) . (٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والمذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن
السَّرمَدِيَّ^(١) الذي لا يزول ، أنكونون كمن طَرَفَتْ^(٢) عينيه الدنيا ، وسَدَّتْ مسامعَه
الشهوات ، واختارَ القَانِيَةَ على الباقية ، ولأنذركون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي
لم تُسَبِّقُوا إليه ، مِنْ تَرَكْكُمْ الضَّعِيفَ يُفْهَرُ ويؤخذ ماله ، هذه المواخير^(٣) المنصوبة ،
والضعيفة المسلوكة في النهار المُبْصِر ، والعدو غير قليل ، ألم يكن منكم نُهَاقٌ ، تمنع الفَوَاةَ^(٤)
عن دَلَجِ^(٥) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتم القَرَابَةَ ، وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ،
وتُقْضُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ ، كلُّ امرئٍ منكم يَذْبُ^(٦) عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف
عاقبةً ولا يرجو مَعَادًا ، ما أنتم بالْحُلَمَاءِ ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ
من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرْمَ^(٧) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كُنُوسًا
في مكائسِ الرِّيبِ^(٨) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أَسَوَّيَها بالأرض هَذْمًا وإحراقًا .
إني رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضَعْفٍ ،

-
- (١) الدائم . (٢) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخور : وهو بيت الريبة مغرب
أو عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغواة جمع غاو .
(٥) السير من أول الليل ، وقد أدجلوا ، فإن ساروا من آخره فادجلوا بالتشديد .
(٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي مالا يحل انتهاكه . روى الشعبي قال : « لما خطب زياد
خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أي مستقر كتمود وجلوس جمع قاعد
وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كذاسه (ككتاب) وهو مستتره من الشجر ، وجميع
كانس أيضا على كنس (كرمح) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخنفس) وهي الكواكب السيارة ، أو النجوم
الخمس : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس
(ككتب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهارا (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر
الله عز وجل) ومكائس الريب : مكائنها المستترة جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عُنف ، وإني أُنسِم بالله لأخذنَّ الوليَّ^(١) بالمَوَلَى ، والمُقيمَ بالظاعن ، والمُقيلَ بالمُدبر ، والمطيعَ بالعاصي ، والصحيحَ منكم في نفسه بالسَّقِيم ، حتى يَلْقَى الرجلُ منكم أخاه ، فيقول : « أُنحِ سَعْدٌ قد هلك سَعِيدٌ^(٢) » أو تستقيم لي فَنَأْتِكُمْ ، إن كِذْبةَ المنبر بَلَقَاهُ^(٣) مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حَلَّتْ لكم مصيبتى^(٤) ، فإذا سمِعتموها مني فاعْتَمِزوها^(٥) في ، واعلموا أنَّ عندي أمثالها ، من نَقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذَهَبَ منه^(٦) فَيَأْتِي ودَلَجَ الليل ، فإني لا أوتى بِمُدْجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دمه ، وقد أَجَلْتُكم في ذلك بمقدار ما يَأْتِي الخبرُ الكوفةَ ويرجع إليكم^(٧) ، وإلأى ودَعَوَى الجاهلية^(٨) ، فإني لا أَجد أحداً دعا بها إِلَّا قَطَعْتُ لسانه ، وقد أَحدثتم أَحَدَانَا لم تَكُنْ ، وقد أَحدثنا لَكُلْ ذنب عقوبةً ، فمن غَرَّقَ قومًا غَرَّقناه ، ومن أَحرقَ قومًا أَحرقناه ، ومن نَقَبَ

- (١) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أدَّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الإبل قال : سعد أم سعيد ؟ .
- (٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتخجيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتمييزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوالله ماتعلقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إِلَّا أنفذه » . (٥) عدوها من عبوي ، واعتزته : طعن عليه .
- (٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وسامس الناس سياسة لم ير مثلاها ، وهابه الناس هيبة لم يهايوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » .
- (٧) في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وهاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصل ، ثم يصل ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجنية موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إِلَّا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأق به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيتني الإبل فاضطررتها إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمر ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في تلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : بالفلان ، والقرض مناصرة المصيبة .

يَتَقَبَّلُنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنَّكَم ، أَكْفَفْ عَنْكُمْ يَدَيَّ وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بِخِلَافِ^(١) مَا عَلَيْهِ عَامَّتُكُمْ إِلَّا ضَرَبْتُ عُقْبَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ^(٢) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أَذْنِي^(٣) وَتَحْتِ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ ، إِيَّيَ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السِّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ^(٤) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبُّ مُبْتَلًى سَيُدْرِكُهُ ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُومِنَا سَيَبْتَلِسُ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةٌ ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، وَنَدُّودُ عَنْكُمْ بَنَى اللَّهُ الَّذِي خَوَّلَنَا^(٥) ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا بَلِيلٌ ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رَزَقًا عَنْ إِبَائِهِ^(٦) ، وَلَا مُجَمَّرًا^(٧) لَكُمْ بَعْمًا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِأَيْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمُ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غِيظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمِينَ كُلًّا عَلَى كُلٍِّّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذَ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى

(١) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٣) أى خلف أذن ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أى يجاهرني بالعداوة .

(٥) ملكنا . والى : ما كان شمساً فينسخه الظل ، والخراج ، أى يدفع عنكم بظل الله ونعمته التى

وهيئنا ، أو يدفع عنكم بما صار في أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند :

حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .

أذلاله^(١) ، وإيمُ الله إن لي فيكم لصرفي كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرفي على .

فقام إليه عبد الله بن الأهم فقال : « أشهدُ أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفُضِّلَ الخطاب » ، فقال له : « كذبت ذاك نبيُّ الله داود صلوات الله عليه » فقام الأحنف ابن قيس ، فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثني حتى نُبتي » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْداس^(٢) ابن أدية وهو يهْمِس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَسَعَى » وأنت تزعِم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعامي والمقبل بالمُدبر ، فسمعها زياد ، فقال : « إنا لا نبلي ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمل ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المُتَمِر بن شُعْبة أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة^(٣) ، فاستخلف على البصرة ، وشخص إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتانى وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من مُشرطة

(١) أى وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن حقكم طالما دَفَعَ الباطل ، فأنتيتكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رَفَعَ مني ما وضع الناس ، وحَفِظَ مني ما ضيعوا ، حتى فرغ من الخطبة ^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

٢٦١ — خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجَمِعَتِ الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرُّبنا وجرُّبنا ، وسُسُنَا وساسَنَا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة ميرُّها بعلانيتها ، وغيبُ أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسنتهم ، ووجدنا الناس لا يُصْلِحُهم إلا لينٌ في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمامٍ على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قتلته ولعنهم » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ — خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عديَّ يجتمع إليه شيعة قَلِيَّة ، ويُظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أى رمى بالحصى وهى الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقوان لا أدرى من جليسي ، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يخلفون بالله مامنا من حصبك ، فن حلف خلاله ، ومن لم يخلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان » .

حَصَبُوا عمرو بن الحريث ، فَشَخَّصَ إِلَى الكُوفَةِ ، حَتَّى دَخَلَهَا ، فَأَتَى القَصْرَ ، ثُمَّ خَرَجَ
فَصَعِدَ المنبر ، وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ سُفْدُسٌ ، وَمُطْرَفٌ خَزٌّ أَخْضَرٌ ، قَدْ فَرَّقَ شَعْرَهُ ،
وَحَجَرَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ أَكْثَرَ مَا كَانُوا ، فَمَدَّ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : فَإِنْ غِيبَ البَنِيُّ وَالْفَتَى وَخَيْمٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ جَمُّوا^(١) فَأَشِيرُوا ، وَأَمِنُونِي
فَاجْتَرِدُوا عَلَيَّ ، وَابْتَغِ اللَّهُ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنِكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ : مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ
أَمْنَعْ بِأَحَةِ^(٢) الكُوفَةِ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نِكَالًا لِيَنْ بَعْدَهُ ، وَبِئْسَ أَمْلَكٌ يَا حَجَرَ ،
سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ^(٣) . »
(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٦٣٠ — خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« اسْتَوْصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرًا : الشَّرِيفَ وَالْعَالِمَ وَالشَّيْخَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِنُنِي شَيْخٌ
بِشَابٍّ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ ، وَلَا يَأْتِنُنِي عَالِمٌ بِجَاهِلٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ ،
وَلَا يَأْتِنُنِي شَرِيفٌ بَوْضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ . »
(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ — خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْنَعُكُمْ سِوَهُ مَا تَعْلَمُونَ مِمَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنْهَا ،
فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

(١) مَنْ جَمَّ المَاءُ جُمُومًا : كَثُرَ وَاجْتَمَعَ . (٢) البَاحَةُ : السَّاحَةُ . (٣) هُوَ مِثْلُ : وَأَصْلُهُ
أَنْ رَجُلًا خَرَجَ يَلْتَمِسُ الْعِشَاءَ ، فَوَقَعَ عَلَى ذَنْبٍ فَأَكَلَهُ . يَضْرِبُ فِي طَلَبِ الْحَاجَةِ يُوْدِي بِصَاحِبِهَا إِلَى التَّلَفِ .

اعمل بقولى وإن قصرتُ فى عملى ينفعك قولى ولا يضرُك تقصيرى

٢٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عبَّيدٍ أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زيادٍ بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبرَ معانيها وهى :

« إن الله عز وجل جعلَ لعباده عقولا ، عاقبتهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بينُ مُحسِنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسيءٍ بخِذلان الله إياه ، والله النعمةُ على المحسن ، والحجةُ على المسيء ، فما أولى مَنْ نَمَتَ عليه النعمةُ فى نفسه ورأى العبرةَ فى غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثَّر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دارُ فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزةُ ، قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدِّرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم . »

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسِرْ إلى عملك ، واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سَنَتِكَ ، وأنتك تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أمينا ضعيفا ، استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتُك من معرَّتنا أمانتُك ، وإن وجدناك قويا خائنا استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرَكَ

وَقَتَلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَمَعْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمَيْنِ ، جَمَعْنَا عَلَيْكَ الْمَضْرَبَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَّاكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَقِيكَ » .

(الأمال : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ — خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحاك بن قيس الفهري على منبر السكوفة - وقد كان بلغه أن قومًا من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجالًا منكم ضلّالًا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلُغني عنكم ، لأضعن فيكم سيفَ زياد ، ثم لا تجدوني ضعيفَ السّورة^(٢) ، ولا كليلَ الشّفرة^(٣) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرتُ على بلادكم^(٤) : فكنتُ أولَ من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية

(١) ولاء معاوية السكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بإيمه أهل دمشق على أن يصل بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمنعه من إظهار ذلك أن بنى أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحسك في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل متتصف ذى الحجة سنة ٦٤ هـ .
(٢) سورة السلطان : سطوته واعتدائه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .
(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية السكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرعه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتهم ، ومضى حتى انتهى إلى الققطانة ، فأق عمرو ابن عيس بن مسعود - وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لى ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مغذا في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلان ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفُرات ، أعاقب من شئتُ ، وأعفو نعمن شئتُ ، لقد ذَعَرْتُ المُخَدَّرَاتِ
في خُدُورهن ، وإنْ كَانَتِ المرأةُ لِيَبْكِي ابْنَهَا فلا تُرْمِيهِ ، ولا تُسْكِنَهُ إِلَّا بِذِكْرِ اسمي ،
فاتقوا الله يا أهلَ العراق ، أنا الضحَّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن عُحميس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عُبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بِغربي تَدْمُرُ فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنَّعَ ببلادنا أوَّل ما قَدِم ؟ وإيمُ الله لأذكركَ أنه أبغضَ
مواطنه إليه ، فسكت الضحَّاك قليلاً ، وكأنه خَزِي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليومَ بآخرَةٍ ^(٢) - بكلام ثقيل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٣٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحَّاك بن قيس الفهري - وكان صاحبَ
شُرطته - حتى صعد المنبر ، وأكفانُ معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحَدَّ العرب ، قطع الله عزَّ وجلَّ به الفتنة ،
وملَّكه على العباد ، وفتحَ به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانُهُ ، فنحن
مُدْرِجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّونَ بينَهُ وبين عمله ، ثم هوفي البرزخ ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فن كان منكم يريد أن يشهده فليحضرْ عند الأولى ^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا المقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أخرة وبأخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي المقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضَّيْعَ والثَّعْلَبَ ، أتينا الضَّيْبَ في جُحْرِهِ ، فقالوا : أبا الحِسلِ^(٢) . قال : أجبتكما . قالوا : جئناك نخضع . قال : في بيته يؤتَى الحُكْمَ . قالت الضَّيْعُ : فتحت عيني . قال : ففعل النساءُ فعلت . قالت : فلقطتُ تمرَةً . قال : حلوا اجتنبت . قالت : فاخطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بَغَى الخيرَ . قالت : فلطمته لَطْمَةً . قال : حقاً قضيت . قالت : فلطمني أخرى . قال : كان حرّاً فانصهر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حدّث حديثين امرأةً ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (العقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحصن معاوية ويزيد ، وكان هواه مهمهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلىبيعة عبد الله بن الزبير بالشام ، وكان أول من خالف من أمراء الأجناد — وكان والياً على حصن — وانضم إلى الضحّاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حصن عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحّاك وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحّاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حصن هاربا ليلا ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليلته جماء متحيراً لا يدرى أين يأخذ ، فأنجمه خالد بن عدي الكلعي فيمن خف معه من أهل حصن ، فلحقه وقتله ويعث برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثعالة : اسم الثعلب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زده وأراد بالحديثين حديثاً واحداً تكرر مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة (والمربعة ككنسة : المصا) ويروى ، فاربعة » أمر من ربيع كفتح أي كف ، تضرب في سوء السمع والإجابة .

٢٧٠ — خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عُبيدُ الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدَّى منه بخَلوة ،
ليَسْبُرَ من رأيه ما كَرِهَ أَنْ يُشْرِكَ في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطَّلَابِ ، واشتغال
الخاصَّةِ ، وافتراق العامَّةِ ، وهو يوم معاوية الذي كان يَخْلُو فيه بنفسه ، ففطن معاوية
لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مَرْوان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن
ابن الحكم ، وعمر بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجمًا يتصفح
وجوه القوم . ثم قال :

« صَرِيحُ الْمُتَقَوِّ مُكَاتَّةُ الْأَدْنَيْنِ ، لَا خَيْرَ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَفَرَ ، أَحَدُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى الْآلَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمَى مُجْهِدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ
عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْقِذُ بِالْأَمِينِ الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ^(٤) ، وَمَنْ بَدَّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ
الْهَدَى ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظَنٌّ فَرَّعَ ^(٦) ، وَقَذَعَ ^(٧) صَدْعٌ ، حَتَّى
طَمَسَ السَّحِيقَ ^(٨) ، وَيُبْسِ الرِّفِيقَ ، وَدَبَّ الْوُشَاةُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكُلُّهُمْ مُسْتَحْقِرٌ ^(٩)

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شيء ، والجرف كعقن وقفل : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار
الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقاص ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) اليد : التعب ، والغاري : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لئزق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)

رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محرقة : الحنا والفحش والقذر ، وصدع : شق وفرق : أى أن مارمانا

به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ،

أى محتقر لنا لمعاداته إيانا ، وأنه لايبالى بمعاداتنا لما نأينا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « محتقرا للعداوة »

أى متوثب مستوفز أو « مسحقرا للعداوة » من اسحققر : إذا مضى مصرعا .

للعداوة . وقد قاصَّ الآزرَةَ^(١) ، وشمرَّ عن عِطَافِهِ^(٢) ليقول : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتَلْحِقَ به ، وَدَلَّ عَلَى الْأَنَاءِ^(٣) مِنْ مُسْتَلْحِقِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعَتِهِ^(٤) ، وَأَسْلَمَ^(٥) زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ، فَكَانَ تَرْبَ^(٦) عَامَّتِهِ ، وَاحِدَ رَعِيَّتِهِ ، فَلَا تَشْخَصُ^(٧) إِلَيْهِ عَيْنُ نَازِرٍ ، وَلَا لِاصْبِعٍ مُشِيرٍ ، وَلَا تَنْدَاقِ^(٨) عَلَيْهِ السُّنُّ كَلِمَتَهُ حَيًّا ، وَنَبَشَتَهُ مَيِّتًا ؛ فَإِنْ تَسْكُنُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَابِيَتَ زِيَادًا بِأَوَّلِ رُفَاتٍ ، وَدِرْعَوَةِ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَاكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَمُورٍ ، وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَانَتْ شَكَاؤُ الشَّرِّسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشْوَسِ^(٩) ، وَبَدَّلَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمُنِيعُ ، وَتَقْهَرُ بِهِمَا الْبَدِيعُ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةٍ الرَّحِيمِ ، وَقَرَابَةِ الْحَلِيمِ ، فَمَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَمُشِي الضَّرَاءَ^(١٠) ، وَنُشْتَفِ الدُّنْصَارَ^(١١) ؟ وَلَاكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(١٢) أَنْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمُ ، وَمَا سَاءَ فِي قُرْبِهِمْ لِيُقَرَّوْا حَقًّا ، وَبَرِّدُوا بِاطِلَا ، فَإِنْ لِلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا . وَسَبِيلًا قَصْدًا^(١٣) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ

-
- (١) الآزرَةُ والآزرُ بضمين : جمع إزار ، وهو الملقحة . (٢) العطاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا المعطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
- (٣) في الأصل « الأنية » وأراه محرفا عن « الأناء » وهي الحلم . (٤) الدعة : الخفض .
- (٥) أسلمه : خذله ، أى فليته ترك زيدا ضائع النسب مغفورا ولم يستلحقه .
- (٦) الترب : من ولد ملك : أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدر له قدر .
- (٧) أى فلا ترتفع . (٨) اندلق السيل : اندفع ، والسيف أنسل بلا سل ، أو شق جفته فخرج منه ، وكلمته : جرحته وآذته . (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تعظيلا .
- (١٠) الضراء : الشجر الملتف في الوادى ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . (١١) اشتف ما في الإناء : شربه كله ، والنصار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نمتع منه ، ولا نمكن من أخذه ، أى يحال بيننا وبين الولاية .
- (١٢) الحوب بضم الحاء وفتحها : الإنم ، أى عليك من آثامنا التى ارتكبتها فى سبيل تأييد سلطانك أنقلها . وفى بعض النسخ : « من جواينا » أى من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس بالعسف والإرهاق لتمكين ملكك (١٣) القصد : استقامة الطريق .

المؤمنين بأى أمر يك شئت ، فما نأزِر^(١) إلى غير جُحْرِنا ، ولا نستكثر بغير حَقِّنا ،
وأستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ — ردّ معاوية على ابن زياد

فَنظَرَ معاوية فى وجوه القوم كالمتعجب ، فتنصّفهم بِلَحْظِهِ رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم اتّجّه تِلْقَاءَهُ ، وعقد حُبُوتَهُ^(٢) ، وحَسَرَ عن يده ، وجعل يُوحى بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلّ خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضع له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، دلّ على نفسه بما بَانَ عن عجزِ الخلق أنْ
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتمُ النبيين ، ومُصَدِّقُ المرسلين ، وحجّة رب العالمين ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فربّ خيرٍ مستور ، وشرّ مذكور ، وما هو إلا السّهمُ الأخبى
لمن طار به ، والحظُّ المرغِبُ لمن فاز به ، فيهما التفاضلُ وفيهما التغايبُ ، وقد صَفَقَتْ^(٣)
يداي فى أيبك صَفَقَةً ذى الخلّة من رِواضِ الفُضْلانِ ، عَامَلِ اصطناعى^(٤) له بالسكفر
لِمَا أوليته ، فإرْمَيْتُ به إلا اتّصل^(٥) ، ولا انتضيت^(٦) إلا غُلِقَ جَفْنُهُ ، ولزّت^(٧)
لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عَانَدَ ، ولا قُتُّ إلا قَعَدَ ، حتى اختَرَمَهُ^(٨) الموت ، وقد أوقع
مِخْتَرَهُ^(٩) ، ودلّ على حِقْدِهِ ، وقد كنت رأيتُ فى أيبك رأياً حَصَرَهُ الخُطَلُ ، والتبس
به الزَّلَلُ ، فأخذ منى بِحِظِّ القُفْلَةِ ، وَمَا أْبْرَأْتُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بالسوء ،

-
- (١) من أَرَزَت الحية : أى لاذت بِجحرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع
بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحسر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ،
وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل :
وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلّة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .
(٥) انتصل السهم : سقط فصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .
(٧) لزه : طمنه . (٨) أهلكه . (٩) اختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .

فما بَرِحَتْ هَمَاتُ^(١) أَيْبِكَ تَحْطَبُ فِي حَبْلِ الْقَطِيعَةِ ، حَتَّى انْتَكَشَ^(٢) الْمُبْرَمَ ، وَانْخَلَّ^(٣) عَقْدُ الْوَدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةٌ تُوْتِنَفُ^(٤) مِنْ حَوْبَةٍ أَوْرَثَتْ نَدَمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْمَهَانِفُ ، وَشَاعَتْ لَشَامَتُ ، فَلْيَهْنَأْ^(٥) الْوَائِشُ مَا بِهِ احْتَقَرَ ، وَأَرَاكَ تَحْمَدُ مِنْ أَيْبِكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٦) هُمًّا وَفِيًّا بِهِ عَلَى شَرَفِ الْيَفْعَحْمِ^(٧) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَدَعْنِيمَا فَقَدْ أَذْكَرْتُنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشَيْتَ الضَّرَاءَ ، وَاشْتَقَفْتَ النِّضَارَ ، فَادْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ نَجْلُ الدَّغَلِ^(٨) ، وَنَثَرُ النَّعْلِ^(٩) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ^(١٠) .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ لِلشَّاهِدِ غَيْرَ حُكْمِ الْغَائِبِ ، وَقَدْ حَضَرَكَ زِيَادٌ ، وَلَهُ مَوَاطِنٌ مَعْدُودَةٌ بِخَيْرٍ ، لَا يُفْسِدُهَا التَّظَنُّيُّ^(١) ، وَلَا تَغْيِيرُهَا التَّهْمُ ، وَأَهْلُوه أَهْلُوكَ التَّحْقُوقَ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتُ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَسَمِعْتُ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَّ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرْ^(٢) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . »

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هَذَا وَكَذَّ^(٣) نَفْسُهُ بْبَيْعَتِهِ ، وَطَعَنَ فِي إِمْرَتِهِ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَعْلَمَهُ ، يَا لَرُّجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَدَّ^(٤)مُ يَزِيدُ وَحْدَهُ ،

(١) أَعْمَالُهُ وَسَيِّئَاتُهُ جَمْعُ هَمَةٍ . (٢) انْخَلَّ وَانْتَقَضَ . (٣) تَوْتِنَفُ : تَسْتَأْنَفُ ، وَالْحَوْبَةُ : الْإِثْمُ وَالذَّنْبُ . (٤) مِنْ هَذَا الطَّلَامِ : أَيْ سَاغَ وَلَذَّ ، وَالْوَائِشُ فَاعِلٌ مِنَ الْوِشْمِ ، وَشَمِيْدُهُ : إِذَا غَرَزَهَا بِبَايِرَةٍ ثُمَّ ذَرَّ عَلَيْهَا النَّيْلَجَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْمَعَادَى - وَالْوَشِيمَةُ : الْعِدَاوَةُ - أَيْ فَهَنِيْنَا لِأَعْدَائِهِ الَّذِينَ حَقَرُوهُ وَنَالُوا مِنْ عَرَضِهِ ، فَهُوَ أَهْلٌ لِمَا قِيلَ فِيهِ : « يَرُدُّ مَعَاوِيَةَ بِذَلِكَ عَلَى قَوْلِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَبْلَ « وَلَا تَتَذَلَّقُ عَلَيْهِ أَلْسُنُ كَلِمَتِهِ حَيًّا ، وَنُبِشَتِ مِيتًا » . (٥) الْجُسُورُ : الْجَسَارَةُ . (٦) قَقَحِمْتُ بِهِ دَابَّتُهُ : نَذَتْ بِهِ وَرَبَّمَا طَوَّحَتْ بِهِ فِي وَهْدَةٍ أَوْ وَقَصَتْ بِهِ ، وَالْقَحْمَةُ كَقَرَفَةٍ : الْوَرُطَةُ وَالْمَهْلِكَةُ ، وَالْمُرَادُ التَّعَرُّضُ لِلْهَلَاكِ . (٧) الدَّخْلُ وَالْفَسَادُ . (٨) تَغْلُ الْأَدِيمُ نَغْلًا : فَسَدَ فِي الدِّبَاغِ ، وَالْجَرَحُ فَسَدُ . (٩) التَّظَنُّيُّ : إِعْمَالُ الظَّنِّ ، وَأَصْلُهُ التَّظَنُّنُ . (١٠) أَيْ فَلَا تَضَيِّقُ . تَحَجَّرَ عَلَيْهِ : ضَيَّقَ ، وَتَحَجَّرَ مَا وَسَعَهُ اللَّهُ : حَرَمَهُ وَضَيَّقَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « ائْتَدِ تَحَجَّرْتَ وَاسْمًا » أَيْ ضَيَّقْتَ مَا وَسَعَهُ اللَّهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « فَلَا يَتَحَجَّرُ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ . (١١) فِي الْأَصْلِ « وَفَدَ » وَلَعَلَّهُ وَفَدَ ، يُقَالُ وَفَدَ : أَيْ غَلِبَ وَسَكَنَهُ . (١٢) فَاقَهُمْ .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يا بن أخى ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأننى بك فى غمرة لا يخطوها^(١) السامح ، فالزم ابن عمك ، فإن لما قال حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيد يرد مجلسه ، ويطأ عقبه أياماً ، حتى رمى به معاوية إلى البصرة والياً عليها^(٢) .

(المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته^(٣)

روى الطبري قال :

لما كان المهلب بن أبي صفرة بزاعول من زرو الروذ (من خراسان) أصابته الشوصة^(٤) (وقوم يقولون الشوكة^(٥)) فداء حبیباً ومن حضره من ولده ، ودعا بسهم فحزمت ، وقال : أترونيكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أترونيكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فإن صلة الرحم تنسي^(٦) في الأجل ، وتثري المال ، وتكثر العدد ، وأنها كم عن القطيعة ، فإن القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة ، تبادلوا وتواصلوا تحابوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وتبارثوا تجتمع أموركم ، إن بني الأم يختلفون ، فكيف ببني العلات^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فيكم أفضل من قولكم ، فإنني أحب الرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه ، وأنفقوا الجواب ، وزلة اللسان ، فإن الرجل تزل قدمه فينتمش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك ، اغرفوا لمن يغشاكم حقه ، فسكني بعددو

(١) في الأصل « لا يخطوها » وأراه « لا يخطوها » . (٢) قال الطبري : « ولي معاوية عبيد الله

ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يتصل بها »

وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها والياً عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل والياً عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم النشين : وجع في البطن . (٥) الشوكة : حمرة تملأ الجسد .

(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورَاحِه إليكم تذكِرةً له ، وآثِروا الجودَ على البخل ، وأحِبُّوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإنَّ الرجل من العرب تَعِدُّهُ العِدَّةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنيعة عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأناةِ والمَكيدة ، فإنَّها أنفعُ في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإنَّ أخطرَ رجل بالحزم فظَهَرَ على عدوه ، قيل : أتَى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرطَ ولا ضيَّع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السُّنن وأدب الصالحين . وإياكم والخِفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيد ، وجعلتُ حبيباً على الجند ، حتى يُقدِّم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد » فقال له المفضل : لو لم تُقدِّمهُ لقدَّمناه .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعِزَّ بالحاجب ، واستظِرَّ الكاتب ، فإنَّ حاجِبَ الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بُنَيَّ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم » . ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أُعطيتُ ما لم يُعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا ميتٌ » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بإفضاله » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح الميرون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قَتَلَ الحجاجُ عبد الله بن الزبير ، ارتجَّت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال :
« أَلَا إِنَّ ابْنَ الزَّيْبِرِ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ^(١) هَذِهِ الْأُمَّةِ ، حَقَّى رَغِبَ فِي الْخِلَافَةِ وَنَازَعَ فِيهَا ، وَخَلَعَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَاسْتَكَنَّ بِحَرَمِ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مَانِعًا لِلْعُصَاةِ ، لَمَنَعَ آدَمَ حُرْمَةَ الْجَنَّةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَبَاحَهُ جَنَّتَهُ ، فَلَمَّا عَصَاهُ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِخَطِيئَتِهِ ، وَآدَمُ عَلَى اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ ابْنِ الزَّيْبِرِ ، وَالْجَنَّةُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ » .
(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير مقتلاً ، فخطب الأمام عنه ثم قال :
« مَوْجُ لَيْلٍ التَّطْمِ ، وَانْجَلَى بَضْوَاءُ صُبْحِهِ ، يَا هَلْ الْحِجَازُ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟ أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلُمَةَ الْجَوْرِ ، وَطَخَيْتُ^(٢) الْبَاطِلَ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَاجَ وَطَاءَ مُشْفِقٍ ، وَعَطَفْتُ رَحِمَ ، وَوَصَلْتُ قَرَابَةَ ، فَإِنَا كُمْ أَنْ تَزَلُّوا عَنْ سَبِيلِ أَقْنَا كُمْ عَلَيْهِ ،

(١) جمع حبر: بفتح الحاء وكسرهما ، وهو العالم أو الصالح . (٢) الطخية : الظلمة ، ويثلاث .

فأقطع عنكم ما وصلته لكم ، بالصارم البتار ، وأقيم من أودكم ما يقيم المنقف من أود^(١) القنأ بالنار » ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عصت به الحربُ عصها وإن شمرت عن ساتها الحربُ شمرأ
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ — خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدث عبد الملك بن عمير اللبثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من موابيه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِراً بِعِمَامَةٍ قد غطَّى بها أ كثر وجهه متقلداً سيفاً ، متنكباً^(٣) قوساً ، يؤم المذبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُمَيْرُ بْنُ ضَامِرٍ الْبُرْجُمِيِّ : أَلَا أَحْضِبُهُ لَكُمْ ؟ فقالوا : أُنْمِلْ حتى نَنْظُرَ^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا متى أضع العِمَامَةَ تعرفوني^(٥) »

(٢) مقوم الرماح ، والأود : الاعوجاج .

(٢) ويرى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكباً على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به . (٣) تنكب قوسه : ألقاهاعل منكبه . (٤) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة — وكان بعضهم

قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزناً ورعباً » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي ، قاله الحجاج متمثلاً ، وقوله « أنا ابن جلا » أى الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفه ، ولم ينون جلا لأنه أراد الفعل ، فحكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِدْتُ بِنَامَ صَاحِبُهُ وَلَا مُحَاطِ اللَّيَّانِ جَانِبُهُ

وتقديره أنا ابن الذى يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا — وابن أجل — رجل =

ثم قال: يَا هَلْ السَّكُوفَةُ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ، وَأَحْذُوهُ بِنَفْعِهِ، وَأُجْزِيهِ بِمِثْلِهِ، وَإِنِّي لَأَرَى أَبْصَاراً طَامِحَةً، وَأَعْنَاقاً مَتَطَاوِلَةً، وَرُءُوساً قَدْ أَيْنَمَتْ وَحَانَ قَطَافُهَا، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعِمَائِمِ وَاللَّحَى تَتَرَقَّرُ، ثُمَّ قَالَ:

هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ
لَيْسَ بِرَاعِي لِإِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِحِزَارٍ عَلَى ظَهَرٍ وَضَمٍّ^(١)
ثُمَّ قَالَ: قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَاجِيٍّ^(٢)

ثم قال: قَدْ شَمَرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا وَجَدَتْ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّتْ عُرْدٌ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ^(٣)

= بعينه، قال في اللسان: «وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها» والثنايا جمع ثنية: وهى الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشد بن رميض العبدي والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطمة: الراعى الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق فقليل: «أحق من راعي ضأن ثمانين» قال الجاحظ في البيان والتهيين ١: ١٣٩ «فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جملة الأنبياء عليهم السلام» والوضم: كل ما قطع عليه اللحم. (٢) العصلبي: الشديد القوى، والأروع: الذكي، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والدواية ويخفف: الفلاة المتسعة التي تسمع لها دويًا بالليل «ولأنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل، تنفخ أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيز الجن» أى خراج من كل غنم شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة:

«إني لست أتأويًا أعلم، ولا بدويًا أفهم».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرد: أى شديد، والبكر: الفقى من الإبل، ولا بد من كذا: أى لا يحيد عنه.

إني والله ياهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَا يُقَفِّعُ
 لِي بِالشُّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُعَمِّرُ جَانِبِي كَتَمَازِ التِّينِ ، وَلَقَدْ فُرِرتُ ^(٢) عَنْ ذِكَاةٍ ، وَقَفَّشْتُ
 عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقَضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - نَزَرَ
 كِفَانَتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَّهَ ^(٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرًا عُدُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ^(٥)
 فَمَا كَمْ بِي ، لَأَنْتُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الْغَيِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَا لُحُوءَ نَكْمٍ ^(٧) أَحَدُ الْعَصَا ، وَلَا أَقْرَعَكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا غَصِبَنَكُمْ عَصَبَ السَّلَمَةِ ^(٩) ، وَلَا ضَرَبَكُمْ غَرَابِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَأْهَلِ
 قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ
 بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِدُّ إِلَّا وَقَيْتَ ، وَلَا أُمْمَ إِلَّا أَمْضَيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرَيْتُ ^(١١) ، فَإِيَّايَ وَهَذِهِ
 الشُّغْمَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَا وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

(١) القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفرع قنصرع : مثل يضرب لمن لا يرمعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به مهاوية من قبله . (٢) فر الدابة : نتج حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كنانته » أي قلبها . (٤) عجم العود : عضة أيعرف صلابته من خوره . (٥) وفي رواية « وأصلبها عموذا » . (٦) أوضع أيضا : أمرع في سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قنصر ، وفي رواية : « لحو العود » . (٨) المرو : حجارة بيض براقه تورى النار .

(٩) السلة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أعضائها ، ثم تحيط بالعصى اسقوط الورق وحشيم العيدان » (٢١ : ٣) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٢٧ : ٣) « وهي تضرب عند الحرب ، وعند الخلط ، وعند الخوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :
 بضرب يزيل الهام عن سككاته كما زيد عن ماء الحياض الغرائب

(١١) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشغماء جمع شفيح ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشقمون في أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضما : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخير ، والقال ، والقليل ، والقالة في الشر .

أما والله لَنَسْتَقِيمَنَّ على طريق الحق ، أو لَأَدَعَنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أُعْطِيَاءَكُمْ^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكْتُ دمه ، وأُهِبْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فَسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فَرَأَاهُ ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يَـأْهْلَ العِراق ، يَـأْهْلَ الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، وَبَنِي اللَّـكِيْمَةِ^(٤) ، وَعَبِيدَ الْعَصَا ، وأولادَ الإماء ، وَالْفَقْعَ بِالْقَرْقَرِ^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يراد الله به ، وإنما يراد به الشيطان^(٦) ، ألا إنها عَجَاجَةٌ تحتها قَصْفٌ^(٧) ، وإنما مَثَلٌ ومثلكم ما قال عمرو بن بَرِّاق الهمداني :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَايَا لِهَمْدَانَ ظَالِمٌ !

(١) أعطيات جمع عطية ، وهي جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة ، وقل شوكتهم ، وسيأتي . (٣) جعلته نهياً يغار عليه .

(٤) اللثيمة . (٥) القرقرة : أرض مطمئة ليثة ، والفقع ويكمر : البيضاء الرخوة من الكفاة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقع بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناؤه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترهيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب » . (٧) المعجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حياً تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرغ عصاً عصاً إلا جعلتها كأُمس الدابر^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإمجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياء داؤه ، فمندی دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله ،
ومن ثقل عليه رأسه ، وضمتُ عنه ثقله ، ومن استطال ما ضي عمره . قصرتُ عليه باقيه ،
إن الشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فن سقيت سريره ، صحت عقوبته ، ومن وضعه
ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضيق عنه الملركة ، ومن سبقت بادرته فيه ،
سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذرُ ثم لا أنظر^(٢) ، وأحذرُ ثم لا أعذر ، وأتوعد
ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ، ولآتكم ، ومن استرخى لبيبه^(٤) ، ساء أدبه ، إن
الحزم والعزم سلباني سوطي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فقامه في يدي ، ونجاده^(٦) في عنقي ،
وذبابه^(٧) قِلادة لمن عصاني ، والله لا آمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وشرح العيون ١٢٢)

(١) وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر
موضع قدمه ، فأقيم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقمة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » —
يربع (كيمنح) يقف وينتظر ، والظلم (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : اربع على ظلمك ، أى إنك
ضميف ، فانت عما لاتطيقه . (٢) أنظره : أهله . (٣) الترنيق : الضعف في الأمر (وفي البدن والبصر أيضاً) .
(٤) اللب : ما يشد في صدر الدابة يمنع استئخار الرحل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية .
(٥) هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكتنا في وسطى » والأول أصح ، أى أنه رأى من
الحزم والعزم : المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد
منه وهو السيف . (٦) التجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبَطَنَكُمْ ، خَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ وَالْمَقْصَبَ ، وَالْمَسَامِيحَ وَالْأَطْرَافَ ، وَالْأَعْضَاءَ^(٢) ، وَالشَّغَافَ^(٣) ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْمَخَاحِجِ^(٤) وَالْأَصْبَاحِ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَمَشَّشَ ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ ، فَحَسَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا ، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا ، أَخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ ، وَمُؤَامِرًا^(٥) تَسْتَشِيرُونَهُ ، فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةُ ، أَوْ تَعِظُكُمْ وَقْعَةُ ، أَوْ يَحْجِزُكُمْ إِسْلَامٌ ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم: هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا وتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى وتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربتة ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه لدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصف رأييه ويأمره بالوغل في أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتضى نحو شهر من سيفه ، واستعد لقاء الموت كريمة فقويت بذلك قلوب جنده واستبسلوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع وتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى وتبيل يأمره أن يبعث إليه بآبن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد وتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر ، فأت فاحتر وتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في العقد الفريد (والأعضاء) . (٣) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . (٤) رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتروها (الأمخاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصباح » بهذا النص ، والذي في كتب اللغة : « الصباخ من الأذن : الخرق الباطن الذي يفضي إلى الرأس جمعه أصمخة وصباخ » ومثل الصباخ الأصموخ كمصفور ، وجمعه أصامبخ ، فصواب الكلمة « الصباخ » أو « الأصامبخ » . (٥) أمره في كذا مؤامرة : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة « تستر »

حيث رُفِّعَ المكر، وسُمِّعَ بالقدَر، واستجمعتم للكُفْر، وظننتم أن الله يَحْدُلُ دينه
وَحِلَافته، وأنا أرميكم بطَرْفِي، وأنتم تَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا^(١)، وتَهْزَمُونَ سِرَاعًا؟ ثم يوم
الزَّأْوِيَةِ، وما يوم الزَّأْوِيَةِ! بها كان فَشْلُكُمْ وتَنَازُعُكُمْ وتَخَاذُلُكُمْ، وَبَرَاءَةُ الله مِنْكُمْ،
وَنُكُوصُ وَلِيِّكُمْ عَنْكُمْ، إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطَانِهَا، النِّوَازِعِ إِلَى
أَعطَانِهَا^(٢)، لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلُومُ^(٣) الشَّيْخَ عَلَى بَنِيهِ، حَتَّى عَضَّكُمْ^(٤)
السَّلاحَ، وَقَصَمَتْكُمْ الرِّمَاحَ، ثُمَّ يَوْمَ دَيْرِ الْجَاجِمِ، وما يوم دَيْرِ الْجَاجِمِ! بها كانت
الْمَعَارِكُ وَالْمَلَاهِمُ^(٥)، بِضَرْبِ يُزَيْلِ الْهَامِ^(٦)، عَنْ مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ،
يَأْهَلُ الْعِرَاقَ، وَالْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ، وَالْفَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَلَفَاتِ^(٨)، وَالنِّزَوَاتِ^(٩)
بَعْدَ النِّزَوَاتِ، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثُغُورِكُمْ غَلَاتِمَ^(١٠) وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً، وَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً، هَلْ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ،
أَوْ اسْتَفْوَاكُمْ غَاوٌ، أَوْ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ، أَوْ اسْتَعَضَّكُمْ^(١١) خَالِعٌ، إِلَّا تَبِعْتُمُوهُ وَأَوَيْتُمُوهُ،
وَنَصَرْتُمُوهُ وَزَكَّيْتُمُوهُ؟ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، هَلْ شَغِبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ، أَوْ زَفَرَ
زَافِرٌ إِلَّا كُنْتُمْ أَتْبَاعُهُ وَأَنْصَارُهُ؟ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ: أَلَمْ تَنْهَكُمُ الْمَوَاعِظَ، أَلَمْ تَزْجُرْكُمْ
الْوَقَائِعَ؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: «يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ
كَالظِّلِّيمِ^(١٢) الرَّامِحِ عَنْ فِرَاحِهِ، يَنْفِي عَنْهَا الْمَدَرُ^(١٣)، وَيَبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرُ، وَيُكَيِّسُهَا

-
- (١) أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواذاً وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل
حول الخوض كالعطن ، ونوازع : أي مشتاقة . (٣) لايلوم على أحد ؛ أي لايقف ولا ينتظر .
(٤) في نهاية الأرب « عظكم » بالظاء : عظته الحرب كعضته بالصاد .
(٥) جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهي الرأس .
(٧) موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رموس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

- (٨) جمع خثرة ، وانخرت كشمس : الغدر والخديعة أو أقبح القدر . (٩) جمع نزوة، من نزا
نزوانا : أي وثب . (١٠) غل كنصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .
(١٢) ذكر النعام ، والرامي : أي المدافع، من رمحه : أي طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر ، ويحميها من الضباب^(١) ، ويحرُسها من الذئب ، يأهل الشام ؛ أنتم الجنة والزَّداء ، وأنتم العُدَّة والحذاء .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وروج الذهب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٥٥) .

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلَقَّح بالنجوى^(٢) ، وتُنتج بالشكوى ، وتُحصَد بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتموني لاتضروني ، وإن أحببتموني لاتنفعونني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفاحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لاتعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطْيَبُ من المسك ، ولَأَبْنَاؤُكُمْ أَنَسُ بِالْقَلْب من الولد ، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذُبْيَان :

إذا حاولتَ في أسد فجوراً فإني لستُ منك واست مني

مهمُ دِرْعِي التي استَلَأْتُ فيها إلى يوم النِّسَارِ وهمُ بَحْجِي^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الرَّسُلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُتَنُصُّرُونَ ، وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلأ : لبس

للأزمة ، وهى الدرع ، النِّسَار : ماء لبنى عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا .

« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحُمَيْرَاء ، يرى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٣) » ، والله لأجعلهم كالرَّسَمِ ^(٤) الدَّائِر ، وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُذَيْل يقرأ القرآن كأنه رَجَز الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه . يعنى عبد الله بن مسعود ^(٥) . — عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله — فيما علمت — عبداً حَسُوداً بخيلاً .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ — خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُونَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكُم لا يعلمون ، وشِراركم لا يتوبون ؟ مالى أراكم تَحْرُصُونَ على ما كُفِيتُمْ ، وتَضِيعُونَ ما بهِ أُمِرْتُمْ ؟ إن العلم يوشك أن يُرْفَعَ ، وَرَفَعَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإلى أعلم بشراركم من البَيْطَارِ بالفرس ، الذين لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(٦) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٧) ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخِر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والشعب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) العذير : العاذر والتصير ؛ والحال التي تحاولها تعذر عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله . (٤) الرسم : الأثر ، أو بقيته . والدائر : الدارس المحو . (٥) هو من بني هذيل . (٦) أى هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . (٧) الدبر من كل شيء : عقبه ومؤخره ، أى ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ، وَاعْمَلُوا أَنْكُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنْ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنْ الشَّرُّ كُلُّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَمْعَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَمْعَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ^(١) .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنْ لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبِعُوثِ ، لَوْلَا طَيْبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الثَّقَلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُغْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَاكُمْ إِلَّا كَارْهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا وَاللَّهُ لَرُؤَيْتَكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيزِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ حَسَنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَرَوْنَ عَنْ نَبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤْبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَابْتَغَى اللَّهُ لِي لِأَحَبِّ إِلَيَّ أَنْ أُخْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(المقد الفريد ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب المقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنْ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهَا

وهذا إلى شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ الطَّائِي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نَعَى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال :
 « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَمَلَّيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان
 الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازِلُ^(١) الذي كَرَّ الذي جربته الأمور ،
 وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، والوَطْءُ
 لأهل الزيف ، فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختر الله له ماعنده ، وألحقه
 بهم ، وعَهَّدَ إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ،
 فاسموا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيف ، فإن الزيف لا يَحْبِقُ إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ،
 وعرفت خلافكم وطبييتكم ، هل معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ،
 أو أعرف بكم ما وليتكم ؛ إياي وإياكم ، من تسلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمًّا
 ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
 « يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ ، وَقَدْ اسْتَخَلَفْتُ عَلَيْكُمْ
 ابْنِي مُحَمَّدًا ، هَذَا وَمَا كُنْتُمْ لَهُ بِأَهْلٍ ، وَأَوْصِيْتُهُ فِيكُمْ بِخِلَافِ مَا أَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ

(١) الرجل الكامل في تجربته .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبل من مُحْسِنِهِمْ، وأن يُتَجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ، وإني أمرته ألا يقبلَ من محسنكم، ولا يتجاوزَ عن مسيئكم؛ ألا وإنكم ستقولون بعدى مَقَالَةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسنَ الله له الصَّحَابَةَ ، ألا وإني مُعَجِّلٌ لكم الإجابة : لا أحسنَ الله الخِلافةَ عليكم » ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن ب وفاة محمد أخيه ، وفرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض^(١) جناحُه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة الدنيا ، لِمَا أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليؤشِركنَّ الباقي مني ومنكم أن يَفْتَنِي ، والجديدُ أن يبلى ، والحى مني ومنكم أن يموت ، وأن تُدَالَ^(٢) الأرض مِنَّا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دماننا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ »^(٣) » ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) هاض العظم : كسره بعد الجيور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموق بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل إرطابه) أى نفخ في صور الموق الأرواح . وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر ، ونسل كضرب ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِيتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سُرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَالِكَ
(المقد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إِنْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، نَزَغَ ^(١) الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا : مَاتَ الْحَجَّاجُ ، وَمَاتَ الْحَجَّاجُ فَهَ؟ وَهَلْ يَرْجُو الْحَجَّاجُ الْخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ؟ وَاللَّهِ مَا يُسْرِنِي إِلَّا أَمُوتَ ، وَأَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَمَا رَأَيْتُ اللَّهَ رَضِيَ بِالْتَخْلِيدِ إِلَّا لِأَهْوَنِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ إِبْلِيسَ ، قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، وَلَقَدْ دَعَا اللَّهُ الْعَبْدَ الصَّالِحَ ، فَقَالَ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُدَّكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ إِلَّا الْبَقَاءَ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟ وَكُلُّكُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، كَأَنِّي وَاللَّهِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ مَيِّتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابَسًا ، وَنَقِلَ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَذْرَعٍ طُولًا ، فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتِ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصرفت الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إِنْ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ يَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنْقُوصٍ ، وعملٍ محفوظٍ ، رَبُّ دَائِبٍ مُضِيعٍ ، وساعٍ لغيرِهِ ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لِمَا بين أيديكم ، فَكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأنَّ الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما تَرَوْنَهُ فإنه ذاهب ، هذه شمسٌ عادٍ وثمود وقرونٌ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طَلَعَتْ على التَّبَاطِيعِ والأَكاسِيرِ ، وخزائنهم السَّائِرَةِ بين أيديهم ، وقصورهم المشيَّدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرُونَ ؟ المحاصِبُ الله ، والصَّراطُ منصوب ، وجهم تَزْفِرُ^(١) وتتوقد ، وأهل الجنة يَنْعَمُونَ ، في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا .

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « أَلَا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يَرَقِي عَتَبَاتِ المَذْبَرِ ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتكَ الجبارين ، يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والحبور : السرور .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَذْبَحِ ، فَصَعِدَ الْحُجَّاجُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمْرُؤٌ حَاسِبٌ نَفْسَهُ ، أَمْرُؤٌ رَاقِبٌ رَبَّهُ ، أَمْرُؤٌ زَوَّارٌ ^(١) عَمَلُهُ ، أَمْرُؤٌ فَكَّرَ فِيمَا يَقْرَؤُهُ غَدًا فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمْرُؤٌ كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمْرُؤٌ أَخَذَ بَعِثَانَ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَلَدِهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعَةٍ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهَ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَقْدَعُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءَ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَعْصَى ^(٤) شَيْءَ إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا فَقَادَهَا بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَمَ قَبْضَ بَزْمَانِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ تَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(٥) .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العميون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدمه كتمه وأقدهه : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : « أَيُّهَا النَّاسُ ، احْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَخَذُوا الْأَنْفُسَ بِضُمِيرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْوَكُ شَيْءٍ وَأَسْوَكُ : أضعف ، من سلك الرجل سواكاً : سار سيرا ضعيفا . (٤) وفي رواية « وَأَعْطَى شَيْءٌ » وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : « وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَرَوْنَ هَذَا الْكَلَامَ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ » .

وخطب فقال :

« اللهم أرني الفَيَّ غِيًّا فَأَجْتَنِبَهُ ، وأرني الهدى هُدًى فَأَتَّبِعَهُ ، ولا تَكِلْنِي إلى نفسي ، فأُضِلَّ ضلالاً بعيداً ، والله ما أَحِبُّ أن ماضى من الدنيا لي بِعِمَامَتِي هذه ، وَلَمَّا بَقِيَ منها أشبهُ بِما مضى من الماء بالماء . »

(العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ص ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إِنَّ امراً أتت عليه ساعةٌ من عمره ، لم يَذْكُرْ فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكرُ في معاده ، لَجْدِيْزٌ أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاءَ لما كُتِبَ عليه الفناء ، ولا فناءَ لما كُتِبَ عليه البقاء ، فلا يَفْرُغْ نَفسٌ شَاهِدٌ^(١) الدنيا ، من غائب الآخرة ، واقهرُوا طولَ الأمل ، بِقِصَرِ الأجلِ^(٢) . »

(شرح ابن الحديد ١ م : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) أى حاضرهما . (٢) قال الشعبي: سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبقه إليه أحد ؛ سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقفتى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذلك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعراد يقول : « إن امراً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخرى أن تطول عليها حسرته . »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٨٩٦هـ)

٢٩٤ - خطبته بحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طُخَارُسْتَان »

قدم قُتَيْبَةُ بن مُسْلِم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦٦هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وها من بلاد طُخَارُسْتَان^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال :

« إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّكُمْ هَذَا الْمَحَلَّ لِيُعَزَّ دِينُهُ ، وَيَذُوبَ بِكُمْ عَنْ الْحُرُمَاتِ ، وَيَزِيدَ بِكُمْ الْمَالَ اسْتِفَاضَةً ، وَالْعَدُوَّ وَقْفًا^(٣) ووَعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصْرَ بِحَدِيثٍ صَادِقٍ ، وَكِتَابٍ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ الثَّوَابِ ، وَأَعْظَمَ الذَّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا نَخَمٌ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ قُتْلٍ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَيٌّ مَرْزُوقٌ ، فَقَالَ : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) مجاعة .

قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (فَنَجَّزُوا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ ، وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَىٰ آثَرٍ ، وَأَمْضَىٰ أَلَمٍ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قُتَيْبَةَ أَهْلِ خُورَازْمَ ، وصار إلى السَّغْدِ ^(١) سنة ٩٣ هـ خطب

الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه مُمَكِّنٌ ، وهذه السَّغْدُ شَاغِرَةٌ ^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طَرُخُونَ ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : (قَدْ نَكَّثَ الْإِيمَانُ يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإنني أرجو أن يكون خُورَازْمُ وَالسَّغْدُ كَالنَّضِيرِ ^(٣) وَقُرَيْظَةَ ^(٤) ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

(١) وكان قُتَيْبَةُ حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهى بين نهري سيحون وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهى بالسین ، وربما قيلت بالصاد » وأتاه طرخون ملك السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قُتَيْبَةُ إلى ما طلب وصالحه ، ثم نقضوا عهودهم . (٢) شجر الكلب كنع : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبغض أصحابه في ديارهم ، إذا انتزع جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من الغدر ، فتهيئوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظنوا أنها ما نعتهم من الله ؛ فحاصرهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فحذف الله في قلوبهم الرعب ؛ فسألوه أن يحلهم ويكف عن دماهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لتلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بنى قريظة يسكنون المسلمين في المدينة ؛ فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصدد جموع الأحزاب - في غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حبي بن أخطب سيد بنى النضير الذين =

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأنى قتيبة السغد فصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة^(١) « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وصل إلينا كنتم أضعف وأذل ، فهما كان عندكم من قوة فابذلوا ، فجمعوا جموعهم ، وولوا عليهم ابناً لخاقان^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا عسكر قتيبة ، ونى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوكم قد رأوا بلاء^(٣) الله عندكم ، وتأيسده إياكم في مُزاحفتكم ومكاثرتكم^(٤) ، كل ذلك يُفاجئكم^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غرتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد

= أجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؛ فحسن له نقض العهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلوا زلزالاً شديداً ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ؛ وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصروهم المسلمون نحبا وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمة ففعلوا ؛ فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت في موالى إخواننا بالأوس ما قد علمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكمة ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ؛ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسم الأموال ؛ وتسبى النساء والذراري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم . (١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين .

(٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد خقنوه على أنفسهم : أى رأسوه (بالتشديد) .

(٣) أى نعمته . (٤) كثروهم فكثروهم : غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصرم عليهم ؛

ويظفركم بهم . (٦) جمع دهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى المعجم ، ورئيس الإقليم . معرب .

فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) لِلَّهِ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ عَنْ أَحْسَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٣٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَر^(٣) ، وَفَيْضَ البحر ، فَضَمَمْتُ الأخ إلى أخيه ،
والولد إلى أبيه ، وقسمت بينكم فيثكم ، وأجريت عليكم أُعْطِيَاتِكُمْ غير مُكْدَّرَةٍ
ولا مُؤَخَّرَةٍ ، وقد جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِّيَّة^(٤) ، فكتب إلى أمير المؤمنين :
إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثم جاءكم أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سَنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَمِى طَاعَةُ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ؛ لَمْ يَجِبْ فَيْثًا ، وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) هَدَوًا ،
ثم جاءكم بنوه بعده ، يزيد فخلَّ تَبَارَى إِلَيْهِ النِّسَاءَ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْنَقَةُ الْقَيْسِي^(٩) » فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ فَفَضِبَ ، فقال :

(١) الإِبْلَاءُ : الإِنْعَامُ وَالْإِحْسَانُ ، يقال : أَبْلَيْتَ عِنْدَهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبَايْتَهُ
مَعْرُوفًا . وَالْمَعْنَى : فَاصْدُقُوا الْقِتَالَ ، وَقَدِمُوا مَعْرُوفًا تَبْغُونَ بِهِ ثَوَابَ اللَّهِ . (٢) وسبب ذلك أن الوليد
ابن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز ولي عهده ، ودس في ذلك إلى القواد والشمراء ، فبايعه على خلع
سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، فخافه قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد
ابن المهلب خراسان . (٣) بلد على الفرات قرب الكوفة . (٤) هو أمية بن عبد الله بن خالد
ابن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملًا عليها لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨
فنزله وجمع سلطانه للحجاج فبعث المهلب إليها . (٥) في الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لا يقيم
مطبخي . (٦) أبو سعيد : كنية المهلب بن أبي صفرة . (٧) من دومت الكلاب : أى أمنت
في المسير : وفي رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد » وستأتى . (٨) نكأ العدو ونكاه نكابة : قتل وجرح .
(٩) هو يزيد بن ثروان هبنقة ذو الودعات ، ويكنى أبا نافع أحد بني قيس بن ثعلبة . يضرب به المثل
في الحق فيقال : « أحق من هبنقة » وله نوادر في الحق . منها أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وغزف
وهو ذو لحية طويلة ، فسئل في ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولئلا أضل ، فبات ذات ليلة ، وأخذ أخوه =

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، والله لو اجتمعتم على غَرْزٍ ما كسرتُم قَرْنَهَا ، يَٰ أَهْلَ السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَٰ أَوْبَاشُ ^(١) الصَّدَقَةُ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تُجْمَعُ إِبِلُ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَٰ مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، يَٰ أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) والكذب والبخل ، بَئِىَ يَوْمَئِذٍ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرَّ بَكْمَ ، أَمْ يَوْمَ سَلِمَكُم ؟ فَوَاللَّهِ لَا نَأْزُ مِنْكُمْ يَٰ أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ . يَٰ بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَعِيمٍ . يَٰ أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصَفِ ^(٥) وَالْقَدَرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْقَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ » ^(٦) يَٰ أَصْحَابَ سَجَّاحٍ ^(٧) ، يَٰ مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَّلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ ، يَٰ مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السُّفَنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْخَصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابُ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لعنة الله على الأعْرَابِ ، يَٰ كُنَاسَةَ الْمِصْرَيْنِ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قَلَادَتُهُ فَتَقْلَدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، وَرَأَى الْقَلَادَةَ فِي عُنُقِ أَخِيهِ ، قَالَ يَٰ أَخِي : أَنْتَ أَتَا فَنَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ ضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ ، فَجَعَلَ يَنَادِي : مَنْ وَجَدَ بَعِيرِي فَهُوَ لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَنْشُدْهُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حِلَاوَةُ الْوَجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ اخْتَصَمَتِ الطَّفَاوَةُ وَبَنُو رَاسِبٍ فِي رَجُلٍ ادَّعَاهُ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ ، ثُمَّ قَالُوا : رَضِينَا بِأَوَّلِهِ مِنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ هَبْنَقَةٌ ، فَقَصَّوْا عَلَيْهِ قَصَبَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَسْبُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى نَهْرٍ لِلْبَصْرَةِ ، فَيَلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ رَاسِبِيَا رَسَبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طَفَاوِيَا طَلَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَحَدٍ هَلْدَيْنِ الْحَبِينِ .

وقول قتيبة : « إِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ هَبْنَقَةٌ » ذلك لأن هَبْنَقَةً كَانَ يَحْسَنُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ إِبِلِهِ ، فِيرْعَاهَا فِي الْعُشْبِ وَيُنْحِي الْمَهَازِيلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَيَحْكُ ! مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَهْمِنُ مَا أَهَانَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ سُلَيْمَانُ يَعْطِي الْأَغْنِيَاءَ ، وَلَا يَعْطِي الْفُقَرَاءَ وَيَقُولُ : « أَصْلَحُ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَفْسَدُ مَا أَفْسَدَ اللَّهُ » - انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٢٦ - . (١) الْأَوْبَاشُ : السَّفَلَةُ ، جَمْعُ وَبَشٍ كَسَبَبَ . (٢) الطَّرِيقُ وَالْجَهَّةُ . (٣) الْفَخْرُ وَالْكِبَرُ . (٤) الضَّعْفُ . (٥) الْهَوُ .

(٦) كَيْسَانُ : عَلَمٌ لِلْقَدَرِ . (٧) هِي سَجَّاحُ بِنْتُ الْحَارِثِ أَدَمَتِ النَّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَزِيرَةِ فِي بَنِي تَغْلِبَ . (٨) أَبْرُ النَّخْلِ أِبْرَا : أَصْلَحُهُ . (٩) الْقُلُوسُ جَمْعُ قُلْسٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ حَبْلٌ ضَمَّ مِنْ لَيْفٍ أَوْ غُوصٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ قُلُوسِ سَفْنِ الْبَحْرِ . (١٠) جَمْعُ حَصَانٍ .

ومنايب القليل^(١) ، تركبون البقر والحُر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتكم كما يُجمع قزع الخريف^(٣) قلتم : كيت وكيت ، أما والله إني لأبْنُ أبيه^(٤) وأخو أخيه ، أما والله لأعصِبَنَّكم عَصَبَ السَّلمة ، إنَّ حَوْلَ الصَّلَّيَّانِ الزَّمْزَمَةَ^(٥) ، يأهل خراسان ، هل تدرّون مَنْ وَلِيَّكُمْ ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كَأني بأَميرٍ مزجاء^(٦) ، وَحَكَمٍ قد جاءكم ، فغلبكم على فيثكم وأطالكم ، إن هاهنا نارًا ، ارموها أرمِ معكم ، ارموا غَرَضَكُم الأَفصى ، قد اسْتُخِيفَ عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشَّامُ أبُّ مكفُور ، حتى متى ينبطح أهل الشَّامِ بأفنيَّتكم وظلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسُبُوني تجدونني عِرَاقِي الأم ، عِرَاقِي الأب ، عِرَاقِي المولِد ، عِرَاقِي المَوَى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما تَرَوْنَ من الأمن والعافية ، قد فتح الله لَكُم البلاد ، وآمن سُبُلُكُم ، فالظُّمينة^(٧) تخرج من مَرَوْ إلى بَلْخٍ بغير جِوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسَلُّوه الشكر والمزيد . ثم نزل .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها :

- (١) ثبت له حب أسود حسن الشم . (٢) هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين .
- (٣) القزع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرفت الثمار أخرفها كنصر : اجتنيها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قزع الخريف » .
- (٤) أي ابن أبي . (٥) الصلبيان : ثبت من أفضل المرعى يختل (يجز) للخليل التي لاتفارق الحى ، والززمة : صوت خفي لا يكاد يفهم ، يعنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المجوس عند أكلهم - يتراطنون على الأكل ، وهم صموت لا يستعملون لسانا ، ولا شفة ، لكنهم صوت تديره في خياشيمها وحلقوها ، فيفهم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه . والمعنى في المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتمتع به . قال الميداني : وروى « حول الصلبيان الززمة » الصلبيان جمع صليب ، والززمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى أي كثير الإزجاء لها ، زجاءها وأزجاءها : ساقها ودفنها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظمينة : المرأة مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أتدرون من ثبايعون ؟ إنما ثبايعون يزيد بن ثروان - يعنى هَبْنَقَةُ القيسى -
كأنى بأمير مزجاء ، وحكم قد أتاكم ، يحكم فى أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتم كما يجمع قزح الخريف^(٢)
من منابت الشَّيْح والقيصوم ، ومنابت القنقل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الهبيد^(٣) ، غملتكم على الخليل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأفاء بكم الفىء » قالوا : مرنا بأمرك . قال : غرؤوا غيرى .

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنتُ أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الحى من أهل العالية ، فنعم
الصدقة ، وأما هذا الحى من بكر بن وائل فعليجة^(٤) بظراءه ، لا تجمع رجلها ، وأما هذا
الحى عبد القيس فما ضرب العير بذنبه ، وأما هذا الحى من الأزد ، فملوج^(٥) خلق الله
وأناطه^(٦) ، وإيهم الله لو ملكتُ أمر الناس لنقشتُ أيديهم ، وأما هذا الحى من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون العذر فى الجاهلية كيسان » .

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أبشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . (٢) فى المقدم الفريد : « كما يجمع
فرخ الخريق » وفى البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الحنظل .
(٤) مؤنث الملحج : وهو حمار الوحش السمين القوى . وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى للرحم . (٥) جمع عالج (بالكسر) وهو الرجل من كفار المجمع . (٦) حيل من الناس
كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِيَّةٌ ، فَسَكَانَ كَاسِمِهِ أُمِيَّةَ الرَّأْيِ ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ ، فَكُتِبَ إِلَى خَلِيفَتِهِ : إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ ، لَوْ كَانَ فِي مَطْبَخِهِ لَمْ يَكْفِهِ ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَعْدَهُ أَبُو سَعِيدٍ ، فَدَوَّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ اللَّهِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِبْ فِيمَنَّا ، وَلَمْ يَنْسُكَا عَدُوًّا ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، مِثْلَ أَطْبَاءِ^(١) السَّكَلَبَةِ ، مِنْهُمْ ابْنُ الرَّحْمَةِ^(٢) ، حِصَانٌ يَضْرِبُ فِي عَانَتِهِ^(٣) ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَخَافُهُ عَلَى أُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْبِلَادَ ، وَأَمَّنَ لَكُمْ السُّبُلَ ، حَتَّى إِنْ الظَّعِينَةَ لَتَخْرُجَ مِنْ مَرَوْ إِلَى سَمَرْقَنْدَ فِي غَيْرِ جَوَارٍ . »

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي كقفل . والطبي : لذات الخلف والظلف كاللدى المرأة . (٢) يريد به يزيه

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطيع من حر الوحش ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بِخُرَّاسَانَ ، فَقِيلَ لِقَتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ السَّكْبَرِ ، فِي أَنْفِهِ خُزْنُؤَانَةٌ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أَنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمَنْ عَظُمَ كِبَرُهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أَعْجَبَ بَرَأْيُهُ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيًّا ، وَلَمْ يُؤَامِرْ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ^(٦) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنِ الْخِلْدَانُ قَرِيبًا ، وَالْخَطَاُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفُرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِئُ ، وَالْفُرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عَدُوِّهِ حَقَرَهُ ، وَإِذَا حَقَرَهُ تَهَاوَنَ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِخَصْمِهِ ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ كَثُرَ عِثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ السَّكْبَرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مَنْكُوبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عَدُوُّهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيمَا تَغْلِبُ

(١) هو وكيع بن أبي سود التميمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى ، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

(٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : السكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

(٣) النمرة : الخيلاء والسكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لفي

أسلوب إذا كان متكبرا ، قاله الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاه

جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بثينة :

وما أنس ملأ شيء لانس قولها (وقد قربت نفسوى) أمصرتريد؟

أى من الأشياء ، وقول قطري بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخليل نحو تميم

أى على الماء . (٥) الكنى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجح به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عقق^(١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقد من جل ، وأروغ من ثعلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسخر من لافظة^(٢) ، وأشع من صبي ، وأجمع من ذرة^(٣) ،
وأحرص من كلب ، وأصبر من صَب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ،
وتتخفظ على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم^(٤) فَلْيَنْبِذْهُ ، وإن كان في فيه
فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كان في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَتَجِبَ الناس من حسن ما فصل وقسم .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

(١) العقق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين
والقاف - ولذا سمي عققاً - وقيل لأنه يقي فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك - وقد
ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من عقق » - انظر جمهرة الأمثال - كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « ألص من عقق » لأن في طبيعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي - وقالوا : « أحق
من عقق » لأنه كالنعامة التي تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عن هدبة بقوله :
كتاركسة يبيضها بالدرء وملبسة يبيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للميرى ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال .

(٢) رواه الميداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي العنز التي تشل
الحلب - أشلى دابته : أراها المخلاة لتأتيه ، وأشلاها : دعاها للحلب - فتجس لافظة بجريتها فرحا بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ماني بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمنقاره
فلا يأكلها ، ولكن يلقها إلى الدجاجة ، والهاء فيها المبالغة هائنا ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ
ما تطحنه أي تقلد ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالدرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمع من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لم (أي لأهل العراق)

كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع الوارث جمعا كما تجمع في قرينها الذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمعالمهم

فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ — خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢ هـ فعبر بهم البحر ، وَتَمَيَّ خِبره إلى لُذْرِيْق ملك القوط ، فأقبل لمحاربتَه بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ العرب على جنده لقلّتهم ، فأحرق السفن التي أفلتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أبن المفرّ؟ المحرّ من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ^(١) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب ^(٢) اللّثم ، وقد استقبلكم عدوكم بحبسه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر ^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن أمتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ربحكم ، وتعوّضت القلوب من رغبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمنّاجزة ^(٤) هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن ، إن سمّحتم لأنفسكم بالموت ، وإن لم أحدّزكم أمراً أنا عنه بمنّاجزة ^(٥) ،

= عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعو إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يطعمه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بجزير بن ورقاء الصريمي بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بمعهده على خراسان ، ووعدّه ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجاباه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بجزيرة وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بجزير فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال . (٢) جمع مأدبة بالفتح والضم : وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . (٣) لاملجأ .

(٤) أي مبارزته . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

وَلَا حَمَلَتْكُمْ عَلَى خُطَاةٍ أَرْخَصُ مُتَاعٍ فِيهَا النُّفُوسُ ، أَرْبَابًا^(١) فِيهَا بِنَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْفَةِ الْأَلَدِّ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا حَفَظْتُكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَفَظِي .

وَقَدْ بَلَغَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْخُورِ^(٢) الْحِسَانِ ، مِنْ بَنَاتِ الْيُونَانِ ، الرَّافِلَاتِ^(٣) فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ ، وَالْحُمْلِ الْمَسْجُوجَةِ بِالْعَقِيَانِ^(٤) ، لِلْقُصُورَاتِ^(٥) فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ انْتَجَبَكُمْ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ عَزَبَانَا^(٦) ، وَرَضِيَكُمْ الْمُلُوكُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضْهَارًا^(٧) وَأَخْتَانًا^(٨) ، نِقَّةً مِنْهُ بَارْتِيَا حَكَمَ لِلطَّمَانِ ، وَإِسْمَا حَكَمَ^(٩) بِمَجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ وَالْفَرَسَانِ ، لِيَكُونَ حَفَظُهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصًا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِجْنَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارَيْنِ .

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مَجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتَكُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ ، حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاعِيَةِ الْقَوْمِ لِدَرْبِي ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَاحْمِلُوا مَعِيَ ، فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ ، فَقَدْ كَفَيْتُمْ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُعْوِزَكُمْ بَطَلٌ عَاقِلٌ تُسْنِدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُقُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَاصْبِرُوا لِلْمُهِمِّ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخَذِّلُونَ .

(نَفْحُ الطَّيِّبِ ١ : ١١٢ ، وَوَفَايَاتُ الْأَمِيَانِ ٢ : ١٣٥)

(١) رَبًّا بِنَفْسِهِ : هَلَا بِهَا وَارْتَفَعَ ، أَيْ أَتَمَّنَى عَنْ مِشَارِكَتِكُمْ . (٢) جَمْعُ حُورَاءَ ، مِنَ الْخُورِ بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَبَيَاضُهَا . (٣) رَفَلَتْ : جَرَتْ ذَيْلُهَا وَتَبَخَّرَتْ ، أَوْ خَطَرَتْ بِيَدِهَا . (٤) الذَّهَبُ . (٥) الْمَخْدَرَاتُ : الْمَخْبُوءَاتُ (٦) جَمْعُ عَزِيبَ . وَالْعَزِيبُ وَالْعَزْبُ وَالْأَعَزْبُ : مِنَ الْإِزْجَةِ لَهُ . (٧) جَمْعُ صَهْرٍ : كَحَمَلٍ ، وَهُوَ زَوْجُ بِنْتِ الرَّجُلِ وَزَوْجُ أُخْتِهِ . (٨) جَمْعُ نَحْتِنٍ كَسَبَبٍ ، وَهُوَ الصَّهْرُ ، أَوْ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْمَرْأَةِ كَالْأَبِ وَالْإِخ . (٩) سَمِحَ وَاسْمَحَ : جَادَ وَكَرَمَ .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُنُوَّ لَدْرِيق ، قام في أصحابه ، حمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
وَرَغَّبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي آمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
إِلَّا الصَّدْقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُغْلِبَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَضُرُّهُمَا قِلَّةٌ ،
وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالْكَسَلِ وَالْفُشَلِّ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْعُجْبِ كَثْرَةُ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، إِنْ حَمَلْتُ فَأَحْمِلُوا ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَاقِفُوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طَاغِيَتِهِمْ ، بِمَيْتٍ لَا أَتَيْبُهُ حَتَّى أَخَالِطَهُ ،
وَأُقْتَلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا ^(١) وَلَا تَحْزَنُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبُرَ أَعْدَاكُمْ ، فَيَبْذُلُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
بِالدَّيْنَةِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُجَلُّ لَكُمْ مِنَ السَّكْرَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمَهْنَةِ
وَالدَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(٢) (وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَمُعِيزُكُمْ)
تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءَ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ
حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَأَحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . »

(الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المرى بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المرى المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب
على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غَشَّةٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ،

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تغلبوا وتهزمو .

وقد ضوى^(١) إليكم مَنْ يَزِيدُكُمْ خَبَالًا : أهلُ العراق ، هم أهلُ الشقاق والنفاق ، هم واللهِ هُشُّ النفاق ، وَبَيَضَتُهُ الَّتِي تَفَلَّتْ عَنْهُ ، واللهِ مَا جَرَّبْتُ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الَّذِي يَقُولُ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَقُولُ ، وَمَا هُمْ لَهُمْ بِشَيْعَةٍ ، وَإِنَّمَا لَأَعْدَاءُ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ ، وَاسْكُنْ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْ سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنْزِلًا ، أَوْ أَنْزِلَهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَنْزَلْتُ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ^(٢) .

ثم إنَّ الْبُلْدَانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ عَلَى مَا يَصْلَحُ رَعِيَّتَهُ ، جَعَلَ يَمُرُّ عَلَيْهِ مَنْ يَرِيدُ الْجِهَادَ ، فَيَسْتَشِيرُهُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْعِرَاقُ ؟ فَيَقُولُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْعِرَاقَ ذَاءً عُضَالًا ، وَبِهَا فَرَّخَ الشَّيْطَانُ ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْضَلُوا بِي^(٣) ، وَإِنِّي لَأَرَانِي سَافِرًا فَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ ، ثُمَّ أَقُولُ : لَوْ فَرَّقْتَهُمْ لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بِجَدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وَكَيْفَ ؟ وَلَمْ ؟ وَمَرَعَةٍ وَجِيفٍ^(٤) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خَبِرُوا عِنْدَ السُّيُوفِ ، لَمْ يُخْبِرْ مِنْهُمْ طَائِلٌ^(٥) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَمَانٍ ، فَلَبِقِيَ مِنْهُمْ الْأَمْرَيْنِ^(٦) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَّ هَذَا الْفَتَقَ الْعَظِيمَ ، وَنَقَضُوا عُرَا الْإِسْلَامِ عُرُوءَ عُرُوءَةً ، وَأَنْفَلُوا^(٧) الْبُلْدَانَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا أَفْعَلُ بِهِمْ لَمَّا أَعْرِفُ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلِيَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ ، فَدَاجَمَهُمْ^(٨) فَلَمْ يَصْلَحُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْلَيْهِمْ رَجُلُ النَّاسِ^(٩) جَلَدًا ،

(١) ضوى كرمى : انغمس ولبأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحدا من أهل العراق ، تاجرا ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وعاقبهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف . (٣) عضل به الأمر وأفضل : اشتد ، وأفضله أيضا . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطول : الفضل والقدرة . (٦) الأمران : الفقر والحرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا ، من ثقل الأديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأفضله : أفسده . (٨) الداجمة مثل المداجاة وداجمه عليه : وافقه . (٩) يريد الحجاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَغَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شعاراً قطُّ مثل الأمن ، ولا رأينا حِلْساً^(١) قطُّ شراً من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فإن عندى ي أهل المدينة خِبرَةً من الخلاف ، والله ما أنتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وَعَصُوا عَلَى النُّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ كَلَامٍ غَيْرِهِ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعُوا عَيْبَ الْوَلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئاً شَيْئاً حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالْدِّينِ وَبِالْمَالِ وَالْوَلَدِ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٩٢)

٣٠٥ - وصية يزيد بن المهلب لابنه محمد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَلَمَّا وَلِيَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ خُرَاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَتَحَ جُرْجَانَ^(٢) وَطَبَرِسْتَانَ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْبَيْنِ ، فَكُنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ .

فَرِشْ وَأَصْطَنِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْجِي^(٤)

وَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبِيعَةٍ ، فَإِنَّهُمْ شِعْمَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوَقِهِمْ ، وَانْظُرْ هَذَا

(١) الحلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد: ما رأينا مركباً شراً من

الخوف ، وفلان حلس من أحلاس البيت : الذى لا يبرح البيت . (٢) فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين .

(٣) جنوبى بحر قزوين . (٤) واث السهم يرشه : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق: أطعمه

وسقاه وكساء وأصلح حاله ونفقه ، واصطنع عنده صنيعه : اتخذها ، والبيت لأبى ذؤاد الإيادى .

الحَيِّ من تميم ، فامطرهم^(١) ، ولا تَزُهْ^(٢) لهم ، ولا تُذْنِبْهُمْ فَيَطْمَعُوا ، ولا تُقْصِرْهُمْ فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحَيِّ من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ، وَمُنَاصِفُومِ المنابر في الإسلام ، ورضام منك البشرُ .

يا بني : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفسِدْها ، فإنه كفى بالمرءَ نقصاً أن يَهْدِمَ ما بَنَى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بَقِيَّةَ معها ، وإياك وشمم الأعراض ، فإن الحرَّ لا يُرْضِيهِ عن عِرْضِهِ عَوْضٌ ، وإياك وضرب الأَبْشارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوَثْرٌ مطلوب ، واستعملْ على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزِلْ إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يَمْنَعُكَ من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صَنِيعُكَ عند من يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدبك يَكْفُوكَ أنفسهم ، وإذا كتبتَ كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يَفْقَهُ عني وعنتك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سرِّه ، وأستودعك الله ، فلا بدَّ للودَّع أن يسكت ، وللشيع أن يرجع ، وما عفاً من المنطق ، وقلَّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سلك هذا المسلك الحمود .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطرهم السماء : أصابهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيراً — وبخير .. :

أي ما أصابه منه خير .

(٢) للزهو : السكبر والتفيه ، زهى كفى ، وكدهما قليلة .

٣٠٦ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه

وقال عمر بن هُبَيْرَةَ^(١) يُؤدِّبُ بعض بنيه :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ^(٢) ، وَتَجَنَّبْ ارْتِمَالِ
الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى لَجُوجٍ ،
وَحَافِ اللَّهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافَقَتَهُ لُؤْمٌ ، وَسُوءُ الْإِسْتِمَاعِ
مِنْهُ خِيَانَةٌ » .

وقال : « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملاً على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولي العراق
(وأضيفت إليه خراسان) يزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير —
والعجين الفطير : ضد الخمير : أي الذي لم يختمر — « وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول :
نموذ بالله من الرأي الدبري — والدبري بالتحريك وتسكن الباء : الذي يعرض من بعد وقوع الشيء — ولا تقل
دبري بضمين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٧ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنْ الْبِلَادِ أَنْ يَضَعَ بِهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حُجَّتَهُ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوْتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعُنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتُهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ اللَّهُ جَعَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِنْضَاؤُهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانْظُرُوا مَنْ تَنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولي العراقين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يهتم في دينه ، وهو من خطباء العرب المحدثين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٢٦ هـ .

لم نُقِرْ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمَ الله وأُمنه مخالف للجماعة
زار^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غُلُوّه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم
تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربّه ، فسقاه مِائِحاً أجاجاً ، واستسقاه
الخليفة فسقاه عَذْباً فُرَاتاً^(٢) » يعني بئرًا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثَنِيَّتَيْنِ : ثَنِيَّة
طَوًى ، وثَنِيَّة الحُجُون^(٣) ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حَوْض من أَدَمٍ إلى جنب
زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح للعيون ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، بأمره
فيه بِشْمِ الحجاج ونَثَرِ عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت
الملائكة تَرى له به فَضْلاً ، وكان الله قد عَلِم من غِشِّه وَخُبْنِهِ ما خَفِيَ على ملائِكَته ،

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والفرات : الماء العذب جداً .

(٣) ذو طوى مثلث الطاء ويثون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

العيون أنه قال : « قد جئتمكم بماء العاذية ، لاتشبه ماء أم الحنافس » يعني زمزم .

فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدَمَ ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين ، فلعنه ، فلعنوه لعنه الله » ثم نزل .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نافسوا في المكارم ، وسارعوا إلى المقام ، واشتروا الحمد بالجد ، ولا تكسبوا بالمطل دما ، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالحق أحسن لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملأوا النعم فتحولوها نقما . واعلموا أن أفضل المال ما أكتسب أجرا ، وأورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسنا جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتنفى عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا ير جوه ، وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدره ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ، ومن لم يطب حرثه ، لم يرك^(١) نبتة ، والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وإيكم . (صبح الأمي ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣١١ — خطبة له يوم عيد

حصب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنْتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَظُنُّ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ارْتَأَيْتَ أَنْ تَخْلُقَ الْخَلْقَ ، فإِذَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِكَ ؟ وَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، مِنْ صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وَأَفْرَادِهِ وَأَزْوَاجِهِ ، كَيْفَ أَدْمَجْتَ ^(٢) قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْبَغْوَةِ ، إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، مِنَ الْأَشْبَاحِ ، الَّتِي امْتَزَجَتْ بِالْأَرْوَاحِ . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٦)

٣١٢ — قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالده إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدو به لفظه ، وبلاغة منطقته ، فبينما هو يخطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :

« سَبَّحَانَ مَنْ الْجَرَادَةُ مِنْ خَلْقِهِ ، أَدْمَجَ قَوَائِمَهَا ، وَطَوَّقَهَا جَنَاحَهَا ، وَوَوَّشَى ^(٣) جِلْدَهَا ، وَسَلَّطَهَا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ — خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمِّلٍ أَمَلًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَجَامِعٍ مَالًا لَا يَأْكُلُهُ ، وَمَانِعٍ عَمَّا سَوْفَ يَتْرَكُهُ ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ ، أَصَابَهُ حَرَامًا ، وَأُورِثَهُ

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم قتله في رقة .

(٣) نقش ونغم وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، وُلِدَ هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ

م ولاد العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فاحتمل إضره^(١) ، وباء بوزره ، وورد على ربه آسِفًا لاهِفًا ، قد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ — خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد المنبر فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَدْرَةِ الْحَبِيْثَةِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا تَقَرَّنَ بِي الصَّعْبَةُ ، وَلَا يَقَعِّعَ لِي الشَّغْنَانُ ، وَلَا أَخَوْفُ بِالذَّنْبِ ، هَيْهَاتُ ! حُبَيْتُ بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ .

أَبَشِّرُوا يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ بِالصَّغَارِ وَالْهَوَانِ ، لَا عِطَاءَ لَكُمْ عِنْدَنَا وَلَا رِزْقَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَخْرِبَ بِلَادَكُمْ وَدُورَكُمْ ، وَأَحْرِمَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَّا وَاللَّهِ مَا عَلَوْتُ مِنْبَرِي إِلَّا أَسْمَعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ بَنِي وَخْلَافَ ، مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا حَكِيمٌ بَنَ شَرِيكَ الْحَارَبِي ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِيمَكُمْ ، وَلَوْ أِذْنًا لَقَتَلْتُ مَقَاتِلَتَكُمْ وَسَبَيْتُ ذُرَارِيَكُمْ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ — خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعهم ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحسروم وأخافوهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة الرُّمِّي ، ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَبًا لدينكم ، فأبُلُوا إلى الله بلاءً حسناً ، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، وَيُحِلَّ بكم رضوانه ، واستعدُّوا بأحسن عُدَّتكم ، وتأهبوا بأكل أثبتكم ، فقد أُخْبِرْتُ بأن القوم نزلوا بِذِي خُشْب^(١) ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢) . »

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيش يزيد ليردوهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا بهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا يبالغون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
فَصَدُّقْهُمُ الْقَاءَ ، والله ما صدَّق قوم قطُّ إلا نُصِرُوا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك أَلْجَأْنَا ظَهْرَنَا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وسراجعة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يُذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهذا القتالُ قتال قوم يريدون أن يذفعوا به عن دينهم ؟ وأن
يُعزّوا به نصر إمامهم ؟ قَبِّحَ اللهُ قتالكم منذُ اليوم ، ما أوجعَ لقلبي ، وأغَيَظَه لِنَفْسِي !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحَرِّمُوا الْقَطَاءَ ، وأن تُجَمَّرُوا في أقاصي الثغور ، شُدُّوا مع
هذه الراية ، تَرَحَّحَ^(٢) اللهُ وجوهكم إن لم تُعْتَبُوا^(٣) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دَنَوْا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :
« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترحا كفرح فرحا : حزن ،
وترحه تترجحا : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبي (كفرني) وهي الرضا ، أي إن لم ترضوني
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بلدًا ، ولم يَخْصُصْكُمْ اللهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النِّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيَّرُوا ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِمْ ، فَعَمُوا^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُفِّمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمُ اللهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُبَيِّلُكُمْ مِنَ النِّصْرِ وَالْفُلُجِ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال :
« يا هؤلاء : إن عدوكم قد أصابوا وَجْهَ القتال الذي كان ينبغي أن تقاتلوه به ، وإني قد ظننت ألا تَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيكُمْ ، أَمَّا لَكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْهَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ مِيتَةٌ هُوَ مِيتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مَنَ مِيتَةٌ بِأَفْضَلَ مِنْ مِيتَةِ النِّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللهُ إِلَيْكُمْ ، فَاغْتَنِمُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلِمَا أُرْدَتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقَتِلَ ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة^(٣)
وكانت وقعة الحرّة في ذى الحجة سنة ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تم على الأمر وتمم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفلج : الظفر والنصر .

(٣) انظر ص ١٩٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، انْسُبُونِي ، فَوَاللَّهِ مَا مُهَاجِرُ أَبِي إِلَّا إِلَيْكُمْ ، وَمَا مَوْلِدِي إِلَّا فِيكُمْ ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ وَلَّيْتُكُمْ وَمَا أَحْصَى دِيوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ إِلَّا سَبْعِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، وَلَقَدْ أَحْصَى الْيَوْمَ دِيوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَمَا أَحْصَى دِيوانُ عُمَّالِكُمْ إِلَّا تِسْعِينَ أَلْفًا ، وَلَقَدْ أَحْصَى الْيَوْمَ مِائَةَ وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا^(١) ، وَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ ذَا ظَنَّةٍ^(٢) أَخَافُهُ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا وَهُوَ فِي سِجْنِكُمْ هَذَا ، وَإِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ قَدْ تُوَفِّيَ وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَدَدًا ، وَأَعْرَضُهُ فِتْنَاءٌ ، وَأَغْنَاهُ عَنِ النَّاسِ ، وَأَوْسَعُهُ بِلَادًا ، فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ رَجُلًا تَرْضَوْنَهُ لِدِينِكُمْ وَجَمَاعَتِكُمْ ، يُجَاهِدَ عَدُوَكُمْ ، وَيُنْصِفَ مَظْلُومَكُمْ مِنْ ظَالِمِكُمْ ، وَيَكْفَ سُفْهَاءَكُمْ ، وَيَجْنِي لَكُمْ فَيْئَتَكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَأَنَا أَوَّلُ رَاضٍ مَنْ رَضِيَ قَوْمَهُ وَتَابِعٍ ، فَإِنْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى رَجُلٍ تَرْضَوْنَهُ ، دَخَلْتُمْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ كَفْتُمْ عَلَى جَدِيلَتِكُمْ^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبي ومقاتلتكم إلا أربعون ألفا ، فبلغ بها ثمانين ألفا ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفا ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلادا ، وأكثره جنودا وأبعد مقادا ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . (٢) الظنة : الهمة . (٣) الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حتى تُعْطَوْا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةً ، وما يستغنى الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقالتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلمْ فَلْتُبَايَعُكَ ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكتفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون : ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَا نُؤَلِّيهِ أَمْرَنَا فِي الْفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أميراً غير كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعُفُ ، ويأمر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرأى فيُرَدُّ عليه ، ويأمر بحبس الخطيئ فيَحَال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٢٠ — خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فتَوَدَّى : الصلاة جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقْصُّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبئتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسختم أكتفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُنْفَذ ، وَيُرَدُّ على رأيي ، وَتَحُولُ التَّبَائِلُ بين أعواني وَطَلِبتِي ^(١) ، ثم هذا سَلَمَةُ بن ذُوَيْب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يُفَرِّقَ جماعتكم ، ويضرب بعضكم جِبَاةَ بعض بالسيف » .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً نحن نأتيك بِسَلَمَةَ ، فأتوه فإذا جمعه قد كُفِّف وإذا الْفَتْقُ قد اتسع على الراتق ، وامتنع عليهم ، ففقدوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبتك : ماطلته .

وروى أنه قال في خطبته : « يَـأْهْلُ البَصْرَةِ ، وَاللّٰهُ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخُلُقَ وَتُيْمَنَةً ^(١) وَاللَّيْزَ مِنْ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجْمَنَّا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجَعَّتْهُ جُلُودُنَا ، فَمَا بَنَّا إِلَى أَنْ نُعْقِرَ الْخَدِيدَ ؟ يَـأْهْلُ البَصْرَةِ ، وَاللّٰهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى ذَنْبٍ غَيْرِ لِكَسْرِؤِهِ مَا كَسَرْتُمُوهُ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٣١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث - بعث وَاثِدِينَ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرُو بْنُ مِسْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقُرْهَاءِ ^(٣) التَّمِيمِيُّ ، لِيُعْلِمَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَمْرُو بْنُ حَرِيثٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهُ بِهِ كَلَّتْكُمْ ، وَيُصْلِحَ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا بِرُشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣٣٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِسْمَعٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ رَأْيِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسُ رَأْيَهُمْ ، فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

« قَدْ جِئْنَاكُمْ لِنَجْمَعَ أَمْرَنَا وَأَمْرَكُمْ ، فَيَكُونَ أَمِيرُنَا وَأَمِيرَكُمْ وَاحِدًا ، فَإِنَّمَا الْكُوفَةُ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَالْبَصْرَةُ مِنَ الْكُوفَةِ » .

(١) التيمنة : برد يمتلئ . (٢) أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : ركبته فلم يركبه ففقه من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرهاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرحاء ، فشكلكم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَّصَهُمَا أولَ الناس ، ثم حصَّصَهُمَا الناس بعدُ ، ثم قال : أئحْنِ نَبَايَعِ لابن مَرْجَانَةَ ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونونه ، وأنتم تُؤَلُّونَه وتبايعونه ؟ فَوَثَّبَ به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خِفَارَةٍ رجال من الأزدي وبكر بن وائل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ — خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعودَ بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجالاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرحوا ، وطردوه عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاخhtarوا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بيعة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جِئْتُمْنَا في الدار ، وإِخْوَتُنَا عند القتال ، وقد أتيناكم

في رحالكم ، لإطفاء حَشِيدَتِكُمْ^(١) ، وَسَلَّ سَخِيْمَتِكُمْ^(٢) ، وَلِكُمُ الْحُكْمُ مُرْسَلًا^(٣) ،
فَقُولُوا ، هَلْ أَحْلَامُنَا وَأَمْوَالُنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَتَقَاعْظُمُنَا^(٤) ذَهَابُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِنَا كَانَ فِيهِ
صَلَاحٌ بَيْنُنَا » ، فَقَالُوا : أَتَدُونُ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قَالَ : هِيَ لَكُمْ ، فَانصَرَفَ النَّاسُ
وَاصْطَلَحُوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربَّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « بامعشر الأزدِ وَرَبِيعَةٍ ، أَنْتُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ
وَشُرَكَائُنَا فِي الصَّوْمِ ، وَأَشِقَاقُنَا فِي النَّسَبِ ، وَجِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبِدُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ،
وَاللَّهِ لَا زُدُّ الْبَصْرَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَلَا زُدُّ الْكُوفَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ
الشَّامِ ، فَإِنْ أَسْتَشَرَفَ شَفَانُكُمُ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، فَنَفِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةٍ
أَحْلَامِنَا ، لَنَا وَلَكُمْ سَعَةٌ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٧)

(١) أى نارككم الموقدة . من حش النار ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب
اللفظ بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة السكّال) . (٢) للسخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاظمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بية - فصل بهم شهرين ، ثم قدم
عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكثت شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
المعروف بالقبياع ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر
ابن مسعود القرشى ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل ابن الزبير . كما تقدم .
(٦) استشرف : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشتان : البغض والكرهية .

٣٢٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة^(١)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحَصِين بن مُعَمَّر - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المرى ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحصين بن نمير - ولما كانت انفتحة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بحدل السكلسي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو الأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وباع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغانى ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وباع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشراف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز لارضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأثرو عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعلمها ، فقال له روح بن زنباع : إن معي أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومم أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تزدادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فينتظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أرى دبر بليل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه. ومن أجل ذلك كان روح أثرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح العيون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تنمهد قواعدها ؛ وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس =

بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهَيَّجَهَا ، صَعِدَ رَوْحُ بْنُ زَيْبَاعٍ الْجَذَائِيّ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يَا هَلْ الْمَدِينَةُ : مَا هَذَا الْإِعْيَادُ ^(٢) الَّذِي تُوْعِدُونَنَا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْبٍ » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْنِ » ^(٣) ولا إلى رجل من « أَنْخَمِ » أو « جَذَامٍ » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الْحَيِّ من قريش - يعني بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإِذَا نَا تُوْعِدُون ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَا بُنَاءَ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ ، وَفَضَّلَاتُ الْمَوْتِ وَالْمَنُونُ ، فاشْتَمِ ^(٤) ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسي حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .

(٢) يقال : وعده خيرا وبه ، ووعده شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعْدَهَا لَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أوعد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث في بنى الحارث ، وبلعنبر في بنى العنبر . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قوئك (بنو) لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قوئك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجم » أي بنى الهجم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدمو إلى بيمة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتكم وأطعتم من الموقعة والفائدة ماشتم » .

٣٣٥ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زُبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَّمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفَتين : يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كان مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجمل ، ولما نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشَبُّوا ^(٣) الصغير - يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - . »

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٠)

(١) يصلح . (٢) يرم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) يقتطروه حتى يشب .

٣٣٦ - خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَ الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد وَلَّى عليكم من لا يَقْبَلُ من مُحْسِنِكُمْ ، ولا يتجاوز عن مُسِيئَتِكُمْ ، الظَّالِمَ الْعَشُومَ ^(١) الْحَجَّاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عبد الملك منزلةٌ ، بما كان منكم من خِذْلَانٍ مُضْغَبٍ ^(٢) وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يُعَدُّ مِنْكُمْ خَلْعًا ، فَإِنَّهُ مَتَى يَعْلُ عَلَى مَتْنٍ مِنْكُمْ ، وَصَدْرَ سَرِيرِكُمْ ، وَقَاعَةَ قَصْرِكُمْ ، ثُمَّ قَتَلْتُمُوهُ عُدَّ خَلْعًا ، فَأُطِيعُونِي وَتَعَدَّوْا بِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَثَّى بِكُمْ » .

فقال له أهل الكوفة : « جَبَنْتَ يَا غَضْبَانُ » بل ننتظر سيرته ، فَإِنْ رَأَيْنَا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهٍ » قال : ستمعلمون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلبغته مقاتلته ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبده الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقتلته ، فاهو إلا أن التفتوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقي مصعب في شرذمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان - وكان مع مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يا أهل العراق ! فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فئات العرب - ما زمت على شيء قط فدمى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيت به رأس مصعب فخر ساجداً ، أن لا أكون ضريت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مطرف بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن عملتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
فنفسي أوبقتُ ، وحظ نفسي ضيعتُ ، ألا إني جالس لـكم المصريين فارفعوا إليّ
حوائجكم ، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم ، فإنني لن آلوكم خيرا ما استطعت »
ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رموس أصحابه فذكر الله
بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :

« أما بعد - فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
علينا (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإنني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصعبة ،
ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإنني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد
أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .

٣٢٩ — خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجرّال بن سعيد في طلب الخوارج الشيبية وأقبل حتى انتهى إلى النهروان فأدركوه فلزم عسكره وخندق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلاداً سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتْبِيل ملك الترك^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدَمَها وخطبهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تَفَرَّكم ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم ، وأباد خيأركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فَيُحِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرجوا إلى مُقَسِّركم فمسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأي الحجاج

فلما حاز من أرض رُتْبِيل أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من الغنائم والأَسْلاب ، حَبَسَ الناس عن الوُغُول في أرضه ، وقال : نَكْتَفِي بما أصدناه العام من بلادهم ، حتى نَجْجِبِيها ونعرفها ويحترى المسلمون على طرقها ، ثم تقاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقمهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج بضم رأيه ، ويأمره بالوغول في أرضهم ، ويهدده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم محب ، ولكم - في كل ما يحيط بكم نفعه - ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي ، أُنشِرتُ فيه ذوى أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً . ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيت ، وآبى إذا أبيتم . »

فتار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٣٢ - خطبة عامر بن واثلة الكنانى

فقام عامر بن واثلة الكنانى - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً -

فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وأهله ما يرى بكم إلا مارأى القاتل الأول ، إذ قال لأخيه :

« احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك » . إن الحجاج والله ما يبالي أن يُخاطر بكم ، فيقتحمكم بلاداً كثيرة اللُهب^(١) والأصوب^(٢) ، فإن ظفرتهم فغنمتم

(١) اللهب جمع لُهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب

الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير

في الجبل أصبغ من الذهب وأوسع من الشعب .

أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يبقى عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنى أشهدكم أنى أول خالع .

فنادى الناس من كل جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ — خطبة عبد المؤمن بن شبت بن ربيع

وقام عبد المؤمن بن شبت بن ربيع التميمى ثانياً ، فقال :

« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجعركم تجمير فرعون الجنود ، فإنه بلغنى أنه أول من جرّ البعوث ، ولن تعانينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ — خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال : « أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة^(٢) تضرب به عينا وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحراس ويمدهم الأضاليل ، ويمتهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو المحسن دون القشيري .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بِدِيرِ الجحاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
النفور وَالْمَسَالِح^(١) بِدِيرِ الجحاجم والقراء من أهل المِصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج ، جَمَعَهُمْ عَلَيْهِ بُغْضُهُمْ وَكَرَاهِيَتُهُمْ لَهُ — وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
المطاء ، ومعهم مثلهم من مَوَالِيهِمْ ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن
سروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يَعرِضا على أهل العراق نَزَعَ الحجاج عنهم ،
وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد
من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضا ذلك على
أهل العراق ، فقالوا : نرجع الْعَشِيَّةَ ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائداً ، ولا رأس
قوم ، ولا فارس إلا أماء .

فحمد الله ابنُ الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أُعْطِيتُمْ أَسْراً ، انتهزُكم اليومَ إِيَّاهُ فُرْصَةً ، ولا آمَنُ أن يكون
عَلَى ذِي الرَأْيِ غَدًا حَسْرَةً ، وإنكم اليوم على النِّصْفِ ، وإن كانوا اعتدُّوا بالزاوية ،
فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر ، فاقبلوا ما عَرَضُوا عَلَيْكُمْ ، وأنتم أعزَّاءُ أَفْوَياهُ ، والقوم
لسكم هائبون ، وأنتم لهم منتَقِصُونَ ، فلا والله لا زلتم عليهم أَجْرِيَاءَ ، ولا زلتم عندهم
أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم . »

فوثب الناس من كلِّ جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الْأَزَلِ^(٢)
وَالضَّنْكَ والحِجَاةُ وَالْقِلَّةُ وَالذَّلَّةُ ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسَّعْرُ الرَفِيعُ ، والمادَّةُ القَرِيبَةُ
لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانيةً ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) من خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشركى الجاهل ،
أُتِيَ فِيهِمْ بِالشَّعْبِيِّ مُوثِقًا - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج
في أشركى الجاهل أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا
فِيخْلَى سَبِيلَهُ ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر
لَقِيتُ بِيَزِيدَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ كَاتِبِهِ ، فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ يَا شَعْبِيُّ ! لِمَا بَيْنَ دَفَتَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ ،
وَلَيْسَ الْيَوْمُ يَوْمُ شَفَاعَةٍ . قُلْتَ لَهُ : فَمَا الْخُرْجُ ؟ قَالَ : بُو^(٢) لِلْأَمِيرِ بِالشُّرْكِ وَالْفِئَاقِ عَلَى
نَفْسِكَ ، وَبِالْحَرَمِيِّ أَنْ تَنْجُو ، ثُمَّ لَقِيتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَجَّاجِ ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَقَالَةِ يَزِيدَ ، فَلَمَّا
دَخَلْتُ عَلَى الْحَجَّاجِ قَالَ لِي : وَأَنْتَ يَا شَعْبِيُّ مِنْ أَلْبَ عَلَيْنَا مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ ؟ أَشْهَدُ عَلَى
نَفْسِكَ بِالسُّكْرِ . قُلْتَ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، نَبَاً بِنَا الْمَنْزِلُ »^(٣) ، وَأَجْدَبَ بِنَا الْجَنَابُ ،
وَأُسَمَّحَلَسْنَا^(٤) الْخُوفُ ، وَاسْتَحَلَلْنَا الْمَهْرَ . وَضُقَ الْمَسْلُوكُ ، وَخَبَطَتْنَا فَتْنَةٌ لَمْ نَكُنْ
فِيهَا بَرَّةً أَتْقِيَاءَ ، وَلَا فَجْرَةً أَقْوِيَاءَ » قَالَ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا بَرَزْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ عَلَيْنَا وَلَا
قَوِيْتُمْ ، خَلُّوا سَبِيلَ الشَّيْخِ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢) .

٣٣٧ - أيوب بن القريّة والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القريّة^(٥) رسولاً إلى ابن الأشعث ، حين خلع
الطاعة بِسِجِسْتَانَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ ، أَلْتَقَوْمُنَّ خَطِيْبًا ، وَلَتَخْلَعَنَّ عَبْدُ الْمَلِكِ ،

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان)
وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولا .

(٢) ارجع . (٣) نبا منزله به : لم يوافقه . (٤) أي لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء
العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

وَلَتَسْبِيْنُ الْحِجَابَ ، أَوْ لِأَضْرِبَنَّ عَقَبَكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَمَ الْحِجَابَ ، وَأَقَامَ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْعَثِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحِجَابُ إِلَى عُمَّالِهِ بِالرَّمْيِ وَإِصْبَاحِهَا وَمَا يَلِيهِمَا ، بِأَمْرِهِمْ أَلَّا يَمُرَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا بَعَثُوا بِهِ أَسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقُرَيْبَةِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فَلَمَّا أَدْخَلَ عَلَى الْحِجَابِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّهِ وَبِاطِلِهِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْحِجَابِ ، قَالَ : أَسْرَعَ النَّاسَ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ : أَطْوَعُ النَّاسَ لِحُلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَبِيدٌ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(١) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُحْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرسَانٍ ، وَأَقْبَلُ لِلْأَفْرَاقِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَلْبِ ، قَالَ : أَهْلُ سَمْعِ وَطَاعَةٍ ، وَلِزُومٍ لِلْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَامَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءٍ ، وَاخْتِلَافٍ أَهْوَاءٍ ، وَأَصْبَرُ عِنْدَ الْإِقْدَامِ ، قَالَ : فَأَهْلُ فَارِسَ ، قَالَ : أَهْلُ بَاسٍ شَدِيدٍ ، وَشَرٍّ عَتِيدٍ ، وَرِيفٍ ^(٢) كَبِيرٍ ، وَقَرِيٍّ يَسِيرٍ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ الْعَرَبِ ، قَالَ : سَنَانِي ، قَالَ : قَرِيْشٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْلَاقًا ، وَأَكْرَمُهَا مَقَامًا ، قَالَ : فَبَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، قَالَ : أَطْوَلُهَا رِمَاحًا ، وَأَكْرَمُهَا صَبَاحًا ، قَالَ : فَبَنُو سُلَيْمٍ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا مَجَالِسَ ، وَأَكْرَمُهَا مَحَابِسَ ^(٣) ، قَالَ : فَتَقِيْفٌ ، قَالَ : أَكْرَمُهَا جُدُودًا ، وَأَكْثَرُهَا وَفُودًا ، قَالَ : فَبَنُو زُبَيْدٍ ، قَالَ : أَلْزَمُهَا لِلرَّايَاتِ ، وَأَدْرَكُهَا لِلنِّتْرِاتِ ^(٤) ، قَالَ : فَتَضَاعَةُ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْطَارًا ، وَأَكْرَمُهَا نِجَارًا ^(٥) ، وَأَبْعَدُهَا آثَارًا ، قَالَ : فَلَا نِصَابَ ، قَالَ : أَثْبَتُهَا مَقَامًا ، وَأَحْسَنُهَا إِسْلَامًا ، وَأَكْرَمُهَا أَثِيَامًا ، قَالَ : فَتَمِيمٌ ، قَالَ : أَظْهَرُهَا جَلْدًا ، وَأَثَرُهَا عَدْدًا ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصيب .

(٣) المحابيس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) النترات جمع نرة : وهي النار .

(٥) النجار : الأصل .

قال : قَبِكر بن وائل ، قال : أثبتُّها صفوفا ، وأحدُّها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال :
 أسبقُها إلى الغايات ، وأصبرُها تحت الرّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عدَد وجَلَد ،
 وعُسْر ونَكَد ، قال : فلنخَم ، قال : مُلوك ، وفيهم نُوك^(١) ، قال : فجُدام ، قال :
 يوقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونها^(٢) ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها^(٣) ، قال : فبنو الحارث قال :
 رُعاةٌ للقديم ، ومُحماة عن الحَرِيم ، قال : فَعَمَت ، قال : لُيُوثُ جاهِدَة ، في قُلُوبٍ فاسدة ،
 قال : فَيَغْلِب ، قال : يَصْدُقُون - إذا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْعَرُونَ للأعداء حربًا ، قال :
 فَنَسَّان ، قال : أكرمُ العرب أحسابًا ، وأثبتُّها أنسابًا ، قال : فأى العرب في الجاهلية
 كانت أَمْنَع من أن تُضامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَة^(٤) لا يُسْتَطَاع ارتقاؤها ،
 وهَضْبَة لا يَرَامُ انتزاعُها^(٥) ، في بلدة حَمَى الله ذِمَّارها ، ومنع جارها ، قال : فأخبرني عن
 مآثر العرب في الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حَيَّرَ أرباب الملوك ، وَكِنْدَة لُبَّاب
 الملوك ، وَمَذْحِج أهل الطَّعْمان ، وَهَمْدان أحلاس^(٦) الخليل ، والأزد آساد الناس ، قال :
 فأخبرني عن الأَرْضين ، قال : سَلْنى ، قال : الهنْد ، قال : بحرُها دُر ، وجبلُها ياقوت ،
 وشجرُها عُود ، وورقُها عِطْر ، وأهلُها طَغَام ، كَقِطْعِ الحمام^(٧) ، قال : فَخُرَّاسان ، قال :
 ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فَعَمَّان ، قال : حَرَّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال :
 فالبحرين ، قال : كُنْزَة بين المِصرين ، قال : فالين ، قال : أصل العرب ، وأهل
 البُيُوتات والحَسَب ، قال : فَسَكَة ، قال : رجالُها علماء جُفَاءَة ، ونساؤها كِسَاء عُرَاة ،
 قال : فالمدينة ، قال : رَسَخ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالبصرة ، قال : شتاؤها جَلِيد ،

(١) الزوك بالضم والفتح : الحق . (٢) سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مرى الناقة كرى : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض

أيضا ، ضد) . (٥) أى اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : وثب ، وانتزى : افتمل من النزوء ، وفى حديث

وائيل بن حجر : « إن هذا انتزى على أرضى فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطغام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقِطْع بالكسر : اسم مقاطع من الشيء ، ويقال : ثوب

قطع وأقطاع أى مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وحرها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحر بها صَلْح ، قال : فالسكوفة ، قال : ارتفعت عن حرّ البحر ، وَسَفَلَتْ عن بَرْد الشَّام ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جَنَّة ، بين حَمَاء وَكَنَّة ، قال : وما حَمَاتُهَا وَكَنَّتُهَا^(١) ؟ قال : البصرة والسكوفة يحسُدَانِهَا ، وما ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةُ وَالزَّاب^(٢) يتجار يان بإفَاضَةِ الخير عليها ، قال : فالشَّام ، قال : عَرُوس ، بين نسوة جُلُوس ، قال : تَكَلَّمَكَ أُمُّكَ يَا بَنَ الْقَرِيَّةِ ، لولا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْعِرَاق ! وقد كنتَ أَنُهَاكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذَ مِنْ نِفَاقِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيْفِ أَنْ أُمْسِكِ ، فَقَالَ ابْنُ الْقَرِيَّةِ : ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ كَأَنَّهُنَّ رَكْبٌ وَقُوفٌ ، يَكُنَّ مِثْلًا بَعْدِي ، قَالَ : هَاتِ ، قَالَ : لِكُلِّ جَوَادٍ كِبَوَةٌ ، وَلِكُلِّ صَارِمٍ نَبَوَةٌ ، وَلِكُلِّ حَلِيمٍ هَفْوَةٌ ، قَالَ الْحِجَاجُ : لَيْسَ هَذَا وَقْتُ الْمَزَاحِ ، يَا غِلَامُ أَوْجِبْ جَرَحَهُ ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ .

وقيل لانه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقتِ العرب ، أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : المُجَبِّ ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : الْمَنِّ عِنْدَ الْبَلَاءِ^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البنى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الْفَتْرَةُ ، قال : فما آفة الذَّهْنِ ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : الْعُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، لَا آفَةَ لِمَنْ كَرَّمَ حَسْبُهُ ، وَطَابَ نَسَبُهُ ، وَزَكَافَرُهُ ، قال : امقِلَاتِ شِقَاقًا ، وَأَظْهَرْتَ فِتْنًا ، أَضْرَبُوا عُنُقَهُ ، فَلَمَّا رَأَى قَتِيلًا نَدِمَ ، وَكَانَ قَتْلُهُ سَنَةَ ٨٤ هـ .

* * *

(١) السكة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة .

(٣) الإبلاء : الإينام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاء الله بلاء حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأَنَّ رَكْبٌ وَقُوفٌ ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : أخرج مما قلت ، قال : « أفعل » ، أما الدنيا فإل حاضر ، يأكل منه البذر والفاجر ، وأما الآخرة فميزان عادل ، ومشهد لبس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان حَلَى اعترفت وإن كان لي اعترفت ^(١) » قال : أما لي فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أفلني عترتي وأسفني ربي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ^(٢) » قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسن القائل برستة قباذ : تَفَدَّوْا الْجَدَى قَبْلَ أَنْ يَتَمَشَاكُمْ ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسى فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشجّط ^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه اثم أمر به فأخرج فرمى به ^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٣٨ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقل : الدين شريعته والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجّيته ، إن سئل أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن نكلم يحل ، وإن حدث وهل ^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حُل على القبيح حل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شأنك ، وإن وثقت به لم برّك ، وإن استكتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ، وإن فقه لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أى وأعطيت الناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والهبوة : الغبرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر » انظر الأغاني ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضحك وفرح .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما قرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك ، لا تُخزِر^(٢) ذمة أبي ، وأنت أحق من مَنعها ،

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به وسأله : أتعلم ما لي من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبورية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رعى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب هند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ .

(٢) خفر به كضرب ، وأخفّره : نقض هده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء مَنْ رَجَا السَّلامَةَ في جِوارنا ، لِمَكانِنا مِنْكَ ، ولا تُذِلَّ
مَنْ رَجَا العِزَّ في الانقطاع إلينا لِعِزِّنا بِكَ «
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتسكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن يَنسَ ذلك فَلَسْنا ناصيه ،
ومن يَكْفُرُ فَلَسْنا كافريه ، وقد كان من بَلَّائِنا أهلَ البيت في طاعتكم ، وَالطَّعْنِ
في أَعْيُنِ أعدائكم ، في المِواطِنِ العِظام ، في المِشارِقِ والمِغارب ، ما إنَّ المِنةَ علينا
فيها عظيمة . »

فأمَّنه الوليد وكف عنه .
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس ما أناء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من التَّوَّة والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قررة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ،
وإما سحت نفسه لك به فسوغكه فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأن بك قد استغرقت
ما سميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الذي سميت بمخلدا عندهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده =

« إن الله يا أمير المؤمنين صَنَعَ لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تحبِس هذا الشيخ ؟ أنا أحمل ما عليه ، فَصَالِحُنِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لَا ، إِلَّا أَنْ تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَةٌ فخذ بها ، وإن لم تسكن بَيْدَةً فَصَدَّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستحلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجِدْ إِلَّا أَخْذَهُ بجميع المال .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٢٢)

= أخذك به ، وإن ولي من يتعامل عليك لم يرض منك بأضعافه ؛ فلا تمض كتابك ، ولسكن اكتب بالفتح ، وسله القدوم ، فتشافه بما أحبت مشافهه وتقصّر ، فإنك إن تقصّر عما أحبت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر يفيض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسمع : إزالة الخمول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجِدْ في أمرك إِلَّا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسنن تركها ، ولم يزل يزيد في محبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أغنى الحجاج بن يوسف ، عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوايد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أن أمنه الله من يزيد بن المهلب ، ايقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرهما أي حضوا) فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك وخلق ابن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أرطاة الفزاري) فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وسلمته ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ — خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسألة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فحرضهم ورغبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرقية^(١) على هامهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء - يعنى مسألة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعنى العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣)) أحمر ، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلمته فيه ، فأفرّقه على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههنا إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٤) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعنيّنا^(٥)

(١) المشرقية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، والهام : جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَيَنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْطِمِ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشؤم ، فيقال :

« أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا للنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ،

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : النصيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين

الدور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناء : اتعبه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فضَّح الذُّمار^(٢) وفضح حَسَبَه ،
وهل كان يَعْدُو أجله ؟ ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :
عن خالد بن صفوان قال : خطَبنا يزيد بن المهلب بواسِط ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس : إني أسمع قول الرَّعاع ، قد جاء العباس ، قد جاء مَسْلَمَة ، قد جاء
أهل الشام ! وما أهل الشام إلَّا تسعة أسياف ، منها سبعةٌ معي ، واثنان علىّ ، وما مسْلَمَة
إلَّا جَرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس^(٣) بن نسطوس ، أناكم في بَرابرة
وصَقالبة^(٤) وجَرَامقة وجَرّاجة^(٥) ، وأقباط وأنباط^(٦) ، وأخلاق من الناس ؛ إنما أقبل
إليكم الفلاحون والأوباش كَأَشلاء^(٧) الاحم ، والله ما أقوا قَطُّ حَدًّا كحَدِّكم . ولا حديدًا
كحديدكم ، أعيرُوني سواءَ كم ساعةً من نهارٍ تَصَفِّقُون بها خراطيمهم^(٨) ، فإنما هي فُدُوَّةٌ
أورَوْحة ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . »

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزمك حفظه وحايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالباء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إمعلم رومى ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف من
« نسطورى بن نسطورى » أى نصرافى نسطورى من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفًا بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جيل بالمغرب ؛
والصقالبة : جيل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالى بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أى جنوبى روسيا .
(٥) الجرامقة : قوم من المعجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام ، والجرامقة : قوم من المعجم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجيل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو المفضو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل السَّبَقِ وَالسَّابِقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لُقْمَةٌ دَسِيمَةٌ ، قد رَتَبَتْ^(١) لها الأشداقُ ، وقادوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَاثْبَسُوا لهم جُلُودَ الثُّورِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصري يثبِّط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرّهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصري يُثَبِّطُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رجالكم ، وكفّوا أيديكم ، واتّقوا الله مولاكم ، ولا يَقْتُلْ بعضُكم بعضاً على دُنْيَا زَائِلَةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها ببقٍ ، وليس الله عنهم فيما كنسبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلّا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيْبَةِ وَالْخِلَاءِ ، وليس يسلم منها إلا الجاهل الخفيّ ، والمعروف التقيّ ، فمن كان منكم خفياً فَلْيَكْزَمْ الحَقَّ ، وليحسِ نفسه عما يتفازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خَلَفًا ؛ ومن كان منكم معروفًا شريفًا ، فترك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُهُ من الدنيا - إِرَادَةَ الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أَسْعَدَهُ وَأَرْشَدَهُ ، وَأَعْظَمَ أَجْرُهُ ، وَأَهْدَى سَبِيلُهُ ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - الْقَرِيرُ عَيْنًا ، الْكَرِيمُ عِنْدَ اللهِ مَا بَا » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

(١) رتبت أي ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . (٢) أي تنكروا لهم ، واستعدوا لمناضلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد
ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرائي - ولم يُسمَّه - يثبط الناس ، والله لو أن
جاره نَزَعَ من خُصٍّ داره قَصْبَةً ، أَظَلَّ يَرْعُفُ^(١) أَنْفَهُ ، أَيْنَكِرُ عَلَيْنَا ، وَدَلَى أَهْل
مِصْرِنَا ، أَنْ نَطْلُبَ خَيْرِنَا ، وَأَنْ نُنْكِرَ مَظْلِمَتِنَا ؟ أَمَّا وَاللَّهِ لَيَكْفُنَّ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَعَنْ
جَمْعِهِ إِلَيْنَا سُقَاطُ الْأُبُلَّةِ^(٢) ، وَعُلُوجُ فُرَاتِ الْبَعْرَةِ ، قَوْمًا لَيْسُوا مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا مِمَّنْ
جَرَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنَّا ، أَوْ لَا نُحْيِيَنَّ عَلَيْهِ مَبْرَدًا خَشِنًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : وَاللَّهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهِوَاهِ ، فَقَالَ نَاسٌ
مِنْ أَصْحَابِهِ : لَوْ أَرَادَكَ ثُمَّ شِئْتَ لَمَنْعْنَاكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ خَالَفْتُكُمْ إِذَنْ إِلَى مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ،
أَمْرُكُمْ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَعَ غَيْرِي ، وَأَدْعُوَكُمْ إِلَى أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا دُونِي ؟
فَبَلَغَ ذَلِكَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ وَأَخَافَهُمْ ، وَطَلَبَهُمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا ، وَلَمْ يَدْعُ
الْحَسَنَ كَلَامَهُ ذَلِكَ ، وَكَفَّ عَنْهُ مَرْوَانُ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

(١) رَعَفَ : خَرَجَ مِنْ أَنْفِهِ الدَّمُ . (٢) جَمَعَ سَاقَطَ : وَهُوَ اللَّيْمُ فِي حَسْبِهِ وَنَفْسِهِ ، وَالْأُبُلَّةُ :

مَوْضِعٌ بِالْبَعْرَةِ .

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حَزَازَةٌ^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم تَرُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ، ولئن مددت بشير من غدر ، لتمدن باعا من ختر^(٣) ، ولئن شئت المستصفين كدّر قلوبنا بصفو حملك » ، قال معاوية : فإني أفعل .
ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت :
يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يتهدّد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غضب ، غضب انفضبه مائة ألف من بني تميم ، لا يدرون فيم غضب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والمضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقي إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فأتى بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يطاء على وحشها) . (٢) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .
(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والخر : أقبح الغدر .

٣٤٨ — الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخر كلامه أن لعن علياً رضى الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القائل ما قال آناً ، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ، ودع علياً ، فقد آتى الله ، وأُفِرِدَ في حُفَرَتِهِ ، وَخَلَا بعمله ، وكان والله — ما علمنا — المبرز بشقه^(١) ، الطاهر في خلقه ، الميمون النقيبة^(٢) العظيم المصيبة » .

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيت العين على القذى ، وقلت بغير ما ترى ، وإني لله لتصعدن المنبر فلتعلمننه طائعاً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعَفِّي فهو خير ، وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصعد . قال : « أما والله لا نصيفنك في القول والفعل » ، قال معاوية : وما أنت قائل إن أنصفتني ؟ ، قال : « أضعد فأحمد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول : أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفاً واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبعي عليه وعلى فئته ، فإذا دعوتُ فأمنوا بحكم الله ! ثم أقول : اللهم لعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منها على صاحبه ، والفئة الباغية على المبعي عليها ، اللهم العنهم لعناً كبيراً ، آمنوا ، بحكم الله » ، يامعاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهابُ نفسي . فقال معاوية : « إذن تُعَفِّيك يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق : الجانب ، ورواية المقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزاً : فاق أصحابه فضلاً أو شجاعة .

(٢) النقيبة : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فَعَلِمَ ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وَتَمَرُ قلوبنا ، وَقرّةُ أعيننا ^(١) ، بهم نَصُولُ على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ،
فكن لهم أرضاً ذليّة ، وسماً ظليّة ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم ^(٢) ،
لا تمنعهم رِفْدك ^(٣) ، فيمَلُّوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حيانتك : ويسنبطوا وفانك » .
فقال : اللهُ دَرَكُ يا أبا بحر ! هم كما وصفت .
(الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعبُ بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حُدِسُوا في باطل ، فَالْحَقُّ يُخْرِجهم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حَقٍّ ، فالعفو
يَسْعَهُمْ » ، فخلّاهم ^(٤) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تجتمعَ كلمتكم ، وتَبَادَلُوا تعتدِلَ أمورُكم ،
وابدءُوا بِجِهَادِ بطونكم وفُرُوجكم ، يَصْلُحْ لكم دينكم ، ولا تَقْلُوا ^(٥) يَسْلَمْ لكم
جِهَادُكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

(١) تَرت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استعتبه :
طلب إليه العتبي (أي الرضا) وأعتبه : أعطاه العتبي . (٣) الرُفْد : العطاء . (٤) وفي وثقات
الأميان لابن خلّكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشعبي كُلم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق .
(٥) أي لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعِنْدَهُ قَوْمٌ
مَجْتَمِعُونَ فِي أَسْرِهِمْ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنَّ الْكِرَامَ يَمْنَعُ الْحُرْمَ ^(١) ، مَا أَقْرَبَ النِّقْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ، لَا خَيْرَ فِي لَذَّةِ تَعْقِبُ
نَدْمًا ، لَنْ يَهْلِكَ مَنْ قَصَدَ ^(٢) ، وَلَنْ يَفْتَقِرَ مِنْ رَهْدٍ ، رَبُّ هَزَلٍ قَدْ عَادَ جِدًّا ، مَنْ أَمِنَ
الزَّيْمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ تَعَظَّمَ عَلَيْهِ أَهَانُهُ ، دَعَا الْمِزَاحَ ، فَإِنَّهُ يُورَثُ ^(٣) الضُّعْفَانِ ، وَخَيْرُ
الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَّ ^(٤) عَلَيْكُمْ ، وَاقْبَلُوا عَذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ . أَطِيعْ
أَخَاكَ وَإِنْ عَصَاكَ ، وَصِلْهُ وَإِنْ جَفَاكَ ، أَنْصِفْ مَنْ نَفَسَكَ قَبْلَ أَنْ يُنْتَصَفَ مِنْكَ ،
وَأَيُّكُمْ وَمُشَاوَرَةُ النِّسَاءِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ لَوْثٌ ، وَصُحْبَةُ الْجَاهِلِ شَوْمٌ ، وَمَنْ
الْكِرَامَ الْوَفَاءُ بِالذَّمِّ ، مَا أَقْبَحَ الْقَطِيعَةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَالْجَفَاءُ بَعْدَ اللَّطْفِ ^(٥) ، وَالْعِدَاوَةُ
بَعْدَ الْوَدِّ ! لَا تَسْكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا إِلَى الْبَخْلِ أَسْرَعَ
مِنْكَ إِلَى التَّبَذْلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ مَثْوَاكَ ^(٦) ، فَأَنْفَقْ فِي حَقِّ ،
وَلَا تَسْكُونَنَّ خَازِنًا لغيرِكَ ، وَإِذَا كَانَ الْغَدْرُ فِي النَّاسِ مَوْجُودًا ، فَالْتَمِذْ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجَزَ ،
اعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ قَطِيعَةَ الْجَاهِلِ تَمْدِيلُ صِلَةِ الْعَاقِلِ . »

(الأمايل ٢ : ٢٢)

(١) الحرم : جمع حرمة بالضم ، وهي مالا يحل انتهاكه . (٢) القصد والاعتقاد : ضد الإفراط .

(٣) التآريث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للأخف

قال : في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : ما دخلت بين اثنين قط حتى يُدْخِلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أَدْعِ إليه ، وما حَلَلْتُ حَيَوَتِي^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على المَحْمَدَةِ بلا مَرْزِيَّة^(٢) ؟ الخلق السَّجِيح^(٣) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذوا الداء ؟ الخلق الدنيء ، واللسان البَذِيء^(٤) » ، وقال : « ما خان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به » . وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أُمْدِحْتُ أم ذُمْتُ . فقال له : « لقد استرحت من حيث تُعِبُ السكرام^(٥) » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنى لأُبْفِضَ الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه ، وإن المَرْوَةَ أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي » . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأَجِدُ ما تَجِدُونَ ولكنى صَبُور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصر لي من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحيلة له ، والحسود لاراحة له ، والبخیل لامرؤءة له ، والمُلُولُ لا وفاء له ، ولا يسود سَيِّئُ الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل » . وقال : « أربع من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلَّقَ بِمَخْصَلَةٍ منهن كان من صالحي قومه : دينٌ يُرْشِدُهُ ، أو عقلٌ يُسَدِّدُهُ ، أو حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حياءٌ يَقْنَاهُ^(٦) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يُبْفِضُهُ ، وكافر يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والامم : الحبوة بالفتح ويفهم .

(٢) رزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، والشئ نقصه : أى دون أن تفرموا في سبيلها مالا .

(٣) الدين السهل . (٤) قى الحياء كرضى ورمى : لزمه كأقنى .

وشيطان يَفْتِنُهُ ؛ وأربع ايس أقل منهم : اليقين ، والعدل ، ودِرْهم حلال ، وأخ في الله »
 وقال : « لَأَنْ أَدْعَى مِنْ بَعِيد ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْصَى مِنْ قَرِيب » . وكان يقول :
 « إِيَّاكَ وَصَدْرَ الْمَجْلِس ، وَإِنْ صَدْرَكَ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسٌ قُلْعَةٌ ^(١) » . وقال : « مَنْ لَمْ
 يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ » . وقال : « رَبِّ غَيْظُ تَجَرُّعِهِ تَحَاقَّةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ » . وقال :
 « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سَلَامَتُهُ » . وقال : « ثَلَاثٌ
 لَا أُنَاقَةُ فِيْهِنَّ عِنْدِي » . قيل : « وَمَا هُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » . قال : « الْمُبَادَرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ،
 وَإِخْرَاجُ مِثْلِكَ ، وَأَنْ تَنْكِحَ الْكَفَّاءَ أَيْمَكَ ^(٢) » . وكان يقول : « لَأَنْفَى تَحَكُّكَ
 فِي نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَتِمَّ رَدْدُ عَنْهَا كُفْنًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ١٤٨ ؛ والأمال

١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ - صفية بنت هشام المنقرية توبن الأحنف

وروى أنه لما حُلِمَتْ حِنَازَةُ الْأَحْنَفِ ، وَدُلِّيَ فِي قَبْرِه ، أَقْبَلَتْ ابْنَةُ عَمِّهِ صَفِيَّةُ بِنْتُ
 هِشَامِ الْمُنْقَرِيَّةِ عَلَى نَجِيبٍ لَهَا مُخْتَصِرَةٌ ^(٣) ، فَوَقَفَتْ عَلَى قَبْرِه ، فَقَالَتْ :
 « لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مُجَنٍّ فِي جَنِّ ^(٤) ، وَمُدْرَجٍ ^(٥) فِي كَفَنٍ ! إِنْ أَلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

(١) مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لازوج ، لها بكرا
 أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء » وما بعد ممنه من الأكفاء ، إلا بذلن
 السفلة والغفواء . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أمسك المختصرة
 « والمختصرة ككنسة : عصا يمسكها الخطيب يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .
 وفي رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة
 فقالت . . . » وفي رواية أبي علي القالي : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء ؛
 فوقفت على قبره فقالت . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛
 والجن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجن كسبب : القبر والكفن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذي جَعَلَنَا بِمَوْتِكَ ، وابتَلَانَا بِفَقْدِكَ ، أَنْ يُوسِّعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ ، وَأَنْ يَغْفِرَ
لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ ، وَدَلِيلَ الرِّشَادِ دَلِيلَكَ ، ثُمَّ أَقْبَلْتَ
بُوجْهَهَا عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَتْ : « مَعْتَشَرَ النَّاسِ ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، تُهَوِّدُ عَلَى عِبَادِهِ ،
وإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا ، وَمُتَنَبِّهُونَ صِدْقًا ، وَهُوَ أَهْلُ الْحَسَنِ الثَّنَاءِ ، وَطَيِّبُ الدَّعَاءِ ؛ أَمَّا وَالَّذِي
كَفَتَ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ ، وَمِنْ الْمَضْمَارِ ^(١) إِلَى غَايَةِ ، وَمَنْ الْحَيَاةَ إِلَى نَهَايَةِ ، الَّذِي رَفَعَ
عَمَلَكَ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ ، لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، وَلَقَدْ مِتَّ فَقِيدًا سَعِيدًا ، وَإِنْ
كَفَتَ لِعَظِيمِ السَّلَامِ ، فَاضِلَ الْحِلْمِ ، صَحِيحِ الْأَدِيمِ ^(٢) ، مَنِيْعِ الْحَرِيمِ ، وَارِي الزَّنادِ ،
رَفِيعِ الْعِمَادِ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي الْحَافِلِ لَشَرِيفًا ، وَعَلَى الْأَرَامِلِ لَعَطُوفًا ، وَفِي الْعَشِيرَةِ
مُسَوِّدًا ، وَإِلَى الْخُلَفَاءِ مُوَفِّدًا ، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » .
ثم انصرفت . (ذيل الأمال ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمال : « ومن الضمان » ؛ وفي بلاغات النساء : « ومن الضمان » وأرى أن صوابه « ومن
المضمار » لقوله بعد : « إلى غاية » (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عبادة قَطَوَانِيَّة^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةُ^(٢) صوف وشَمْلَةٌ^(٣) ، فلما مَثَلَا بين يدي معاوية اقْتَحَمَتُمَا^(٤) عَيْنُهُ ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأوَمَأَ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مَه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وَعَظُمَ كَسِيرٌ ، مع تَقَابُعٍ من المَحُول^(٥) ، وانصال من الذُّحُول^(٦) ، فَاكْثُرَ فيها قد أطرق ، والمَقْلَ قد أملقَ ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِيرَ ، ويسهِّلَ العَسِيرَ ، ويصفح عن الذُّحُولِ ، وَيُدْأَوِيَ المَحُولَ ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، وَيُزِيلَ اللُّأْوَاءَ^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يَعْثُ ولا يُخْصَّ ، ومن يدعو الجفلى^(٨) ولا يدعو النقرى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . (٢) المدرة : ثوب ولا يسكون

إلا من صوف . (٣) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . (٤) ازدرتهما .

(٥) جمع محل كشمس : وهو القحط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضاً : وهو الثأر .

(٧) الشدة . (٨) الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

وإن أُرْسِيءَ إليه غَفَرَ ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته رحاداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ، ثم تلا : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) .
(زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يَعْزِم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عَزَمَةُ أمير المؤمنين لأخبرتُه أن دافَّةً ^(٢) دَفَّتْ ، ونازلةً نَزَلَتْ ، ونائبةً نَابَتْ ، ونائبةً نَبَّتَتْ ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرِّه » ، فقال : حَسْبُكَ يا أبا بحر فقد كَفَيْتَ الغائبَ والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٥٧ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أَشْخَصَتْ إِلَيْكَ أَقْوَاماً الرِّغْبَةُ ، وَأَقْعَدَتْكَ آخِرِينَ الْعُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى في سَعَةِ فضلك ما يُجَبِّرُ به المتخلف ، وَيُكَافَأُ به الشاخصُ » .

(١) أى في معناه وفحواه . (٢) الدافَّة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بني فلان دافَّة ، والدافَّة أيضاً : قوم من الأعراب يريدون مصر ، والدافَّة : الجيش يدفعون نحو العدو أى يدفعون .

٣٥٨ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَحِبًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقَتْ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُمْ الرَّحِمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيُخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخْتَارَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّاكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْنِسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ . »

٣٥٩ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيًا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا كَلَّمْتَبِعُ آثَارِكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتَعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ أَبَاهُ آبَاءُهُمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئُ إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُفْرَسُ إِلَّا فِي مَقَاتِلِهَا النُّغْلُ ^(٢)

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النساب

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَغَفْلٌ ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغَفْلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رِبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال :

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . (٢) الخطي : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرقاً السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنهم تبعوا به لأنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح جمع وشيجة . (٣) هو دغفل ابن حنظلة النساب من بني شيبان .

بنو النضر بن كنانة ، كانوا أكثر العرب أمجاداً ، وأرفعهم عباداً وأعظمهم رَماداً .
 قال : فأىُّ بنى كنانة كان بعدهم أعزَّ ؟ قال : بنو مالك بن كنانة ، كانوا يَمْلُون من
 سَامَاهم ، ويَكْفُون من نَاوَاهم ، وَيَصْدُقُون من عَادَاهم . قال : فَنَ بعدهم ؟ قال :
 بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، كانوا أعزَّ بنيه وأمنعهم ، وأجودهم وأنفعهم . قال :
 ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كان بأسهم مرهوباً ، وعدوهم منكوباً ،
 وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كنانة ، وعن مُرَّة وعاصم
 ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا نُظراء . قال :
 فأخبرني عن بنى أسد ؟ قال : كانوا يُطْعِمُونَ السَّديف^(١) ، وَيُكْرِمُونَ الضيُوف ،
 ويضربون في الزُّحُوف^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُذَيْل ، قال : كانوا قليلاً أكياس^(٣) ،
 أهل مَنعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بنى ضَبَّة ؟ قال : كانوا
 جَمَرَةً من جَمَرَات العرب الأربع^(٤) ، لَا بُصْطَلَى بِنَارِهِمْ ، وَلَا يُفَاتُونَ بِنَارِهِمْ ، قال :
 فأخبرني عن مُزَيْنَةَ ، قال : كانوا في الجاهلية أهل مَنعة ، وفي الإسلام أهل دَعَا . قال :
 فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزَّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنعها حَرِيماً ،
 قال : فأخبرني عن قيس ، قال : كانوا لا يفرحون إذا أُدِيلُوا^(٥) ، ولا يبحزون إذا ابْتُلُوا ،
 ولا يَبْتَخُلُونَ إذا سُئِلُوا ، قال : فأخبرني عن أشرفهم في الجاهلية ، قال : غَطَفَان بن سعد
 وعاصم بن صَمْعَةَ وسَلِيم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً سَادَةً ، وللخَمِيس^(٦)

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو الهـاقـل . (٤) قال صاحب المقد : « جمرات العرب ، هم

بنو نَمِر بن عامر بن صمعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو هبـس
 ابن يغيش ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير :

التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجمروا المسلمين فتفتنوا ، وتفتنوا
 نساءهم ، يعني لا تجمعوهم في المغازي . . الخ - المقد ٢ : ٥٧ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة .

قادة ، وعن البيض ذادة^(١) ؛ وأما بنو عامر فكثير سادتهم ، مخشية سبطوتهم ، ظاهرة نجاتهم ؛ وأما بنو سليم فكانوا يدركون النار ، ويمنعون الجار ، ويعظمون^(٢) النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصدقني ، قال : كانوا أهل عز قاهر ، وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسودا ثرهب ، وسما^(٣) لا تقرب ، وأبطالا لا تكذب ، قال : فأخبرني كم أدبوا عليكم في قتلكم كليبيا ؟ قال : أربعين سنة ، لاننتصف منهم في موطن نلقاهم فيه ، حتى كان يوم التحالف ، يوم الحرث بن عباد بعد قتلة ابنه بجير ، وكان أرسله في الصلح بين القوم فقتله مهلهل ، وقال : بؤ بشيع^(٤) نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيت بهذا بنو بكر رضيت ، فبلغ الحرث ، فقال : نعم القتل قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وباء بكليب ، فقيل له : إنما قال مهلهل ما قال (الكلمة^(٥)) ، فتشمر الحرث للحرب ، وأمرنا بخلق رهوسنا أجمعين ، وهو يوم التحالف ، وله خبر طويل ، وقال :

قرّبا مربط النعامة منى لقيحت حرب وائل عن حبال^(٦)
لم أكن من جناتها - علم الله - وإني بجرّها اليوم صالي
قرّبا مربط النعامة منى إن بيع الكرام بالشيع غالي

فأدبنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فن ذهب يذكر ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسر مهلهلا في ذلك اليوم ، وقال له : دأني على مهلهل بن ربيعة ، قال : مالي إن دلتك عليه ؟ قال : أطعك ، قال : على الوفاء ؟ قال : نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : ويحك ! دأني على كفاء كريم ، قال : امرؤ القيس^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشيع : سير يشد به النعل .

(٥) هي قوله (بؤ بشيع نعل كليب) . (٦) النعامة : اسم فرسه ، ولقيحت الناقة : قبلت القلاح

وحالت حبالا : لم تلقح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرْب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلها صَبَرَتْ وَأُبْلَتْ لِحْسُنْ بِلَاؤُهَا ، إلا ما كان من ابني لُجَيْم : حَذِيفَةُ وَحِجْلٌ ، وَيَشْكُرُ ابن بكر ، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ بَنَ ضُبَيْعَةَ جَدَّ طَرْقَةَ بْنَ الْعَبْدِ ، هَجَّامٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ :

إِنِّ لُجَيْمًا عَجَزْتُ كُلَّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِشًا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَّ عَلَى خَتَرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ لَهُمْ حَامِدًا^(٢)
وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَاخُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَنُموذِ حِجْرٍ يَوْمَ طَاحُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِ قِيَّةٍ لَا نَفَ رَ وَلَا نُبَاحُ وَلَنْ تَبَاحُوا^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٦)
فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبةً بأخبار العرب .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإِرْقَادُ : الإعانة والإعطاء . (٢) الخَرُّ : الغدر أو أنفيحه . (٣) أَرَاهِطُ : جمع الجميع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشَّام : مساكن ثمود قوم صالح . (٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالناء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أي ولن تباحوا يا قوم مادمنّا لكم حماة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، وأمل هنا تحريفاً ، ووجه الكلام « كن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَلٍ بعد ما كفَّ ، فسَلَمُوا عليه ، فقال :
 مَنِ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمَنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
 كِنْدَةَ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطُّوَالُ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ ؟ »
 قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلرُّخُوفِ ، وَأَخْرُقُهَا لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ،
 رَهْطُ عُمَيْرِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
 فِنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
 وَالْمَطْعِمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ، وَالْقَاتِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم .
 (الأملال ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
 أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ،
 وَأَحْضَرُهُمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قُرَيْشٍ ،
 قال : لا ، قالوا : فِي حِمْيَرَ وَمُلُوكَهَا ، قال : لا ، قالوا : فِي مِزَافٍ ، قال : لا ، قال مَصْنُوعَةُ
 ابْنِ رُقَيْيَةَ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذَنْ فِي رِبِيعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قال : نعم ، قال جُلَسَاءُؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
 هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : نعم .
 أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قري الضيف كرى قري بالكسر ، والتصر : وقرأ بالفتح والمد : أضافه .

(٢) الجهل : الجذب والشدة .

فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا بِهَا فَجَدَلَهُ ^(١) عَنْ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَنَّا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادَى ^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعَى إِنِّ مَعِيَ ذِرَاعِي أَنْجِي بِهَا كُرَاعِي ^(٣)

وَأَمَّا أَسْخَى النَّاسِ فَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ سُوَّارَ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَلَى السَّنَدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذَا أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ^(٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسُمِّيَ مُطْعِمُ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشَرَ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرِّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَى مِثْلَاهُ » فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَمْعَةَ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : مَرْحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرُؤُكُمْ كَبِيرَكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدَ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَعْمَةَ فَقَامَ :

حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجدلة (كسحابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخددة .

كالوسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفزعى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص :

نقى الدقيق يخلط بالعسل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الحلواء كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قدّمنا الأرض المقدّسة ، فلعمري ، ما الأرضُ تقدّسَ
الناسَ ، ولا يقدّسُ الناسَ إلا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنّشر ، وإليها المنّشر ،
فلعمري ، ما ينفع قريّها ، ولا يضرُّ بعُذها مؤمنّا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حُلّماء عقلاء ، فقد ولدَهم خيرٌ من أبي سفيان آدمُ صلوات الله عليه ،
فمنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحلم الناس ، فإن ولدَ عبد القيسَ قدّموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقاتهم
وفيهم الأشجّ^(١) ، ففرّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشجّ ادنُ مني ، فدنا منه ، فقال : « إنّ فيك خلتين يحبهما الله : الأناة ،
والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشجّ لم يَغضب قطّ^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٦٣ — وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُتبّة بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَت النساءُ أن يَلِدْنَ مثلَ عمّي ! شهدته يوماً ، وقد قدّمت عليه وفود العرب ،
فقضى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إليّ في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السّلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثّر عليكم غيركم
منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ،
فتفرّع أعلامها ، واجتمع أصلها ، عَصَدَ اللهُ مَنْ عَصَدَهَا ، فيا لها كلمة لو اجتمعت ! وأيد
لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » . (المقد الفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوانته به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزل أهرُ ذوائب^(٢) الرِّحال إليك ، إذ لم أجد مَوْلا إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأيم^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، وتسوقنى بِلوى ، والمجتهد يُعَذِّر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي^(٤) » ، فقال معاوية : أخططُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أَسْتَدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألوى^(٥) بي الليل ، فَقَبَضَ البَصَرَ ، وَعَنَى الأَثَرَ ، أقام بدنى ، وسافر أملى ، والنفس تلوم ، والاجتهاد يَفْزِر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة^(٦) ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزُرارة : أتانى اليوم نَعْيُ سيد شباب العرب ، قال زُرارة : يا أمير المؤمنين هو ابنى أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال : للموت ما تَلِدُ الوالدة .

(للمقد لفرید ١ : ١١٨ ، وصحيح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمالى ١ : ٢٠١)

(١) فى صحيح الأعشى « عبد العزى » وفى الأمالى : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذؤابة : وهى الجلدة المملقة على آخرة الرجل ، وفى صحيح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وصمه بسمه : علمه بعلامة . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدثت فى ظلمته ،

يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به المنقاء : طارت به ، وألوى بما فى الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج .

٣٦٥ - وفود زيد بن مَنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مَنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن مَنِيَّة ^(١) صاحب
جمل عائشة ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان
قد تزوج ابنة يعلى بن مَنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ
أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الخلق
بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :
« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسَ أزديةَ الليل مرةً ،
وأخوضُ في لججِ السّراب ^(٢) أخرى ، مُوقراً ^(٣) من حُسنِ الظن بك ، وهارباً من
دهرٍ فطَمَ ^(٤) ، ودينٍ لَزِمَ ^(٥) ، بعد غنى جدّ غنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك
مَهْرَباً ، وعليك مَعْوِلاً » ، فقال عتبة : « مرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ،
وخلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيقة ^(٦) معه ، وأنا
واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

-
- (١) في صبح الأعشى والمقد «منبه» بالباء وهو تصحيف والصواب «منية» وهو اسم أمه، واسم أبيه أمية ،
والصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير. وكان يعلى عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن، فلما ولى على رضى الله عنه
الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة
عائشة رضى الله عنها في قتال على في وقعة الجمل . (٢) المراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .
(٣) محملاً من الوقر بالكسر: وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة لإيقارها .
(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء
المكسورة وصف من قطع كفرح : اشتهى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأعشى : « ودين أزم »
وأزم كضرب وفرح : عض بالفم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصّدائى على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصّدائى^(١) (وكان من خواصّ علىّ كرم الله وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضرار ، صف لى عليّاً ، قال : أغفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنّه ، قال : « أمّا إذ لا بدّ من وصفه ، فكان والله بعيد المدى^(٢) ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يُجيبنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقُربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل الدين ، ويحبّ المساكين ؛ لا يطعم القوى في باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله^(٣) ، وغارت نجومه ، وقد مثل في نحرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم^(٤) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّى غيرى ، ألى تمرّضتِ ، أم إلى تشوّفتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتكِ ثلاثاً لا رجعة فيها ، فممرّك قصير ، وخطرك^(٥) حقير ، آه من قلة الزّاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! » فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبّ وحيدوها في حجرها .

(الأمالي ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صداة كغراب : حى باليمن . (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والسكر ،

وهو السر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفازة :

تفاؤلاً بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَفَدَّتْ سَوْدَةُ بِنْتُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْثَرِ الْهَمْدَانِيَّةُ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ فَأْذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْثَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفَيْنَ ؟ :

تَمَرُ كَفَعِلَ أَبِيكَ يَا بِنْتُ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْنِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدُ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا سِهَوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَمَ الْهُدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدْ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدُمًا بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ^(١)

قَالَتْ : إِي وَ اللَّهِ ، مَا مِثْلِي مِنْ رَغَبٍ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرٍ بِالْكَذِبِ ، قَالَ لَهَا :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبٌّ عَلَىَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرٍ عَلَىَّ شَيْئًا ، قَالَتْ : أُنْشِدُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نُسِيَ ، قَالَ : هِبْهَاتِ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي خَفِيَ الْمَقَامَ ،
ذَلِيلَ الْمَسْكَنِ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وَبُتِرَ الذَّنْبُ ، وبالله
 أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعقيتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
 قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأُمُورهم مُتَعَلِّداً ، واللهُ سَأَلُكَ
 عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ
 سُلْطَانَكَ ، فيحصدُنا حِصَادَ السَّنْبُلِ ، ويدوسنا دِباسَ^(١) البقر ، وَيَسُوْمُنَا^(٢) الخسيسة ،
 وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرْطَاة^(٣) قَدِمَ بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ
 لكان فينا عِزٌّ وَمَنْعَةٌ ، فإِذَا عَزَلَتْهُ عَنَّا فَشْكْرُناك ، وإِذَا لَاقَتْكَ فَعَرْفُناك ، فقال معاوية :
 إِيَّايَ تَهْدِدِينَ بقومك ؟ والله لقد هممت أن أُحِلِّكَ على قَتَبِ^(٤) أشرس فأردك إليه ،
 يُنْفِذُ فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
 قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ نَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك
 حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتته يوماً فى رجل ولأه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه
 ما بين الغت^(٥) والسَّمين ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فانفعلت من الصلاة ، ثم قال برأفة

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو بشرين أُرطاة ،
 وقيل ابن أبى أُرطاة ، وكان معاوية فى أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
 إلى المدينة ، ففعل بها أفملاً شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب
 عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛
 فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحسن بنىي الذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
 يا من أحسن بنىي الذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم محتطف
 يا من أحسن بنىي الذين هما مخ المظام ؛ ففى اليوم مزدحف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز ؛
 أو الأشرس : الخشن الغليظ . (٥) الغت : المهزول .

وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنّي لم أمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْنُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْفَظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ . »

فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام ، ولا ختمه بختم ^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : أليّ خاصّة ، أم لقوى عامّة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللّوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلاّ يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمظكم ^(٤) ابن أبي طالب الجرّاة على السلطان فبطيئا ما تنظّمون ، وغرّكم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَٰمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ .

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُمْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلْهِنْدُوَانِي لَمْ تُفَلِّلْ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابِ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) عثا يمشو عثوا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزيمة النمل : سير رقيق يخزم بين الشراكين . الختام : الطين يحم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع حل الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فمه بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقي في الفم اللامظة بالضم ، ويقال : لمظ فلانا (بالتشديد) لماظ : أى شيئا يتلمظه ، ولمظه من حقه . شيئا : أعطاه (والعامّة تبدل الفاء ضادا) . (٥) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٦) سيف هندرافى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا لدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بنى ليث في جناية جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهى أم سنان بنت خَيْشَمَةَ^(١) للذحيجية ، فكلمته في الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَحِبًا بك يا بنت خَيْشَمَةَ ، ما أقدمكِ أرضنا ، وقد عَهِدْتُكَ تَسْتَمِينِنَا^(٢) وَتَحْضِينَ عَلَيْنَا عِدْرًا ؟ قالت : إن ابني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافية ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسهؤون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ما سنَّ آبأؤهُ لَأَنْتَ ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَمَقَلَّتْى لَا تَرُفُدُ وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهَمومِ وَيُورِدُ^(٣)
يا آلَ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لَيْلٌ أَحَدٌ يَقْصِدُ
هذا على كالمــــــــــــــــلال تحفه وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ^(٤)
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِكُمُ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ
قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيَا مَهْدِيًا
فاذهب ، عليك صلاة رَبِّكَ مادَعْتَ فَوْقَ الْغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيًّا^(٥)

(١) فى صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : و تحريره : ما ذكرنا . (٢) وفى بلاغات النساء : « تشنين قري » أى تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعود النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قارى .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفياً
واليوم لا خلف يومئذ بعده هيهات تأمل بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لحظك الأوفر ، والله ما أورتك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض
مقاتلهم ، وأبعد منزلهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
بباطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلك ،
وكريم عفوك ، قال : وإنهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأى على مثل
ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبذرك^(٣) بالمدينة تبذرك من لا يريد منها البراح ،
لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أحسن من الحجر ، وألقته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعفو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه مُعدياً^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأنى لي بالرجعة ، وقد نفذ زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها بإحالة
موطاة ، وخمسة آلاف درهم .

(المقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصباح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البغض . (٢) تريد أنهما بإعلان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) تبذرك
به : أقام . (٤) أعداه عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه .

٣٦٩ — وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنّت ، وعَشِي^(١) بهرماً ، وضعفت قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردّ عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غَيْرِكَ الدهرُ ، قالت : كذلك هو ذو غَيْر^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قَبِير ، قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زَيْدُ دونك فأحقر من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفيناً
قد كنتُ أذخرُهُ ليوم كرهية فاليوم أبرزهُ الزمانُ مَصُوناً
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هَندٍ للخلافة مالِكا ! هيهات ، ذاك - وإن أراد - بَعِيدُ
مَنَنْتُكَ نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسَعِيدُ
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنتُ أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمِّيَّةَ خاطبا
فاللهُ آخرُ مُدَّتِي فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبها
في كلِّ يوم للزمانِ خَطِيبُهُم بين الجميع لآلِ أحمدَ عائبها

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحثى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ، فقصرَ نَحْجَتِي^(٣) ، وكثُرَ عَجَبِي ، وعَشِيَ بَصَرِي ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفعُ ذلك بتكذيب ، وما حَفِي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في العيش بعد

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبت وتداولتني ، والمجبن : للعصا المطوقة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برِّك ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدها .

(المقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟ فقالت : « يابن أخى ، لقد كفرتَ يدَ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصُّحبة ، وتسميتَ بغير اسمك ، وأخذتَ غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسَ الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم الخُدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبيّنا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فولّيتُم علينا من بعده - وتحتجّون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنو إسرائيل في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم بمنزلة هرون من موسى^(٣) ، ففأيّدنا الجنّة ، وغايقكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيّتها العجوز الضالة ، وأقصّري من قولك ، وغُضّي

(١) جمع جد : وهو الخط . (٢) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأصر » . (٣) ورواية بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وفصيباً وقدرًا ، حق قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبيّنا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنِيَّ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّوْني ، وَكَادُوا يَقْتُلُوْني » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا ومر .

من طرفك، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يابن الآخفاء^(١) النابغة تتكلم ، وأُمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربع على ظلمك ، واغن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الأبواب من حسبها ، ولا كريم منصّبها ، ولقد ادعاك خمسة^(٢) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أثنائي ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر^(٣) ، فأنتم بهم فإنك بهم أشبه .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جمئت له ، سآخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلفة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زُرقة عينيك ، وُحْمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دَمَامته^(٤) ، ولقد رأيت الحكم مآذ^(٥) القامة ، ظاهر الإمة^(٦) ، سَبَط^(٧) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتّان المقرب^(٨) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للقاتلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه : نحن جزينساكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سَعَر^(٩) ما كان عن عُتْبَةَ لى من صَبْر أبي وعمي وأخي وصِهْرِي^(١٠)

(١) رجل الخن وأمة الخناء : لم يحنأ ، وخن السقاء ، وغيره كفرح : أنن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يابن اللخناء » كأنهم يقولون يادنى الأصل ، أو يانيم الأم ، والنايفة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : القبيح . (٥) ممتدّها . (٦) الإمة بالكسر ويضم : الشأن والتمعة والميعة . (٧) طويلة . (٨) الأتّان : الحمارة ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً . (٩) السمر بالفتح مصدر سمر الحرب : أي أوقدها ، وبالضم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعمهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة .

شَفَيْتَ (وَحْشِيٌّ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي ^(١)
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي ^(٢)

فأجبتها :

يَا بِنْتَ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْهَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ ^(٣)
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حِمْزَةً لَيْثِي ، وَعَلَى صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمره : وَيَلَسْكَ ! أَنَا مَا ضَمَّنَا لَهَا ، وَاسْمَعْنَا مَا أَكْرَهُ ،
ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ اقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنْكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُنِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرَّ خَارَةً ^(٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةٍ ^(٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَزَوِّجُ بِهَا
فَتَيَّانَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَائِهِمْ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عُسْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ
وَضَعْتُهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ ^(٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ،
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلَيَّا أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتِ ضَمِيعَتِ
أَمَانَتِكَ ، وَخُنْتُ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ
الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ، وَدَعَا نَا (أَيَّ عَلَى) إِلَى أَخْذِ حَقِّهَا ، الَّذِي فَرَضَ

(١) وحشي : غلام جببر بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) رم العظم كضرب وأرم : بل فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار الننان ، أي سهل المعطف ، كثير الجري .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعم بفتحهم ، ونعمى ونعمى ونعام ونعم ونعمة بضمهم ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أي أفضل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لَنَا فَشَدَّ بَحْرُكَ عَنْ وَضْعِ الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّاهُ بِهِ ،
إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّهَا ، وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرَ حَقِّهَا ، أَتَذْكُرُ عَلِيًّا ؟ فَضَضَّ اللهُ فَاهُ^(١) ،
وَأَجْهَدَ بَلَاءَكَ ، ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا ، فَأَمَرَهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ
لَهَا : يَا عَمَّةُ : أَنْفِقِي هَذِهِ فِيمَا تَحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتَ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ صَفَدَكَ^(٢)
وَمَعُونَتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (المقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ — أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
دروع^(٣) (بُرُودٍ) تَسْجُهَا ذُرَاعًا ، قَدْ لَأَتْ^(٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا كَالْمَنْسَفِ ،
فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا معاوية : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلَدٍ ، وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ،
قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ عَضِبَ الْمَهْزَةِ لَيْسَ بِالْخَوَارِ^(٥)
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسْمَرًا لِلْحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ^(٦)
أَجِبَ الْإِمَامَ وَذُبُّ نَحْتِ لَوَائِهِ وَالْقَى لَلْعَدُوِّ بِصَارِمٍ بِتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْقُجَّارِ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِثْلُكَ مِنْ عَفَا ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللهُ عَنْمَا سَلَفَ ،
وَمَنْ عَادَ قَبِلْتَقِيمُ اللهُ مِنْهُ » قَالَ : هِيَهَاتَ ، أَمَا وَاللهِ لَوْ عَادَ لَعُدْتُ ، وَلَكِنَّهُ

(١) تدعو عليه: أي نثر الله أسنانك . (٢) الصفد: العطاء . (٣) درع المرأة: قيصها

(مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث: عصب العمامة ، والكور: لوث العمامة

وإدارتها ، والمنسف: ما ينقص به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب:

السيف القاطع ، والحوار من خار: إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسيع: هرب .

اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، واللهِ إني لعلی بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّي ، وَهَدَىٰ مِن أَمْرِي ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أَنْسَيْتُهُ ، قال بعض جلسائِهِ : هو والله حين تقول :

يَا لَرَجَالٍ لَمُظْمٍ هَوَّلٍ مُصِيبَةٍ فَدَحَتْ ، فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةً لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطِيَّ وَمَنْ مَشَىٰ فوق الترابِ لِحَيْفٍ أَوْ نَاعِلٍ
حاشا النبیؐ لقد هَدَدَتْ قُوءَانَا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : فأنالك الله ! فما تركتِ مقالا لقائل ، اذكری حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فَعَثَرَتْ ، فقالت : تَعَسَّ شَانِي^(٤) عَلَيَّ ، فقال : زَعَمْتَ أَنْ لَا ، قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال : إذا ضيعتُ الحلم فمن يحفظه ؟ (صبح الأُمى ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٧٢ - دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً مِّن سَيِّئِهِ ، فسأل عن امرأة من بنى كِنَانَةَ كانت تنزل بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فحىء بها ، فقال : ما حالكِ يا بَنَةَ حَامٍ ؟ فقالت : لستُ لِحَامٍ إِنْ عِثَّنِي ، إنما أنا امرأة من بنى كِنَانَةَ ، ثَمَّتَ مِن بَنِي أَبِيكَ ، قال : ودقتِ ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ ، قال : بعثتُ إليكِ لأَسْأَلَكَ : عَلَامَ أَحْبَبْتَ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتِنِي ، وَوَلَّيْتِهِ وَعَادِيَتِي ؟ قالت : أَوْ تُعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال : لَا أُعْفِيكَ ،

(١) هلك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة .

(٤) أى مبنضه . (٥) الحجون : جبل بعمالة مكة .

قالت : « أما إذ أبيت فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطُلبتك ^(١) مالم يس لك بحق ؛ وواليتُ علياً على ما عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء ^(٢) ، وعلى حُبِّه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى »

قال : فلذلك انتفخ بطُنك ، وعظمُ ثدياك ، ورَبَّتْ عَجيزتك ، قالت : يا هذا بهند ^(٣) والله كان يُضربُ المثل في ذلك لآلِي ، قال معاوية : يا هذه اربعي ^(٤) ، فإنما لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها ، وإذا عظمُ ثديها تَرَوَّى ^(٥) رضيعها وإذا عظمت عَجيزتها رَزُنَ مجاسها ، فرجعت وسكنتُ ، فقال لها : يا هذه هل رأيتُ علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيتُه ، قال : فكيف رأيتُه ؟ قالت : رأيتُه والله لم يفقنه الملكُ الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فسكان يحلو القلوب من العمى ، كما يحلو الزيتُ الطَّسْتُ من الصدا ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قل : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بالبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلُّ عندك محلَّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ما ولا كصداء ^(٦) ،

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

(٣) هي أمه هند بنت عتبة . (٤) ربيع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة هاني بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارَةَ (من دارم) زوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنْتَ من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنني أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بي ، فرجع إلى ، وبقيصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمني ضمة ، وشمّني شمة ، فليتني مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداء .

وَمَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١) ، وَفَتَى وَلَا كَالِكِ^(٢) ، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُول :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَيْهِمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤَمِّلُ لِلْحِلْمِ
خَذِيئَهَا هَنِيئًا ، وَإِذَا كَرَى فِعْلَ مَا جِدِ جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلَامِ
ثُمَّ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَىَّ حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا ، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(المقد الفريد ١ : ١٣٢ وصحيح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٧٣ — شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَأَمْرُ مَعَاوِيَةَ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ الطَّائِي أَنْ يَتَنَقَّصَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَمَلَ رِضَاهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْوَى آثَرَ مِنْ رِضَا خَلْقِهِ ، عَلَى ذَلِكَ مَضَى أَوَّلُهُمْ ، وَعَلَيْهِ يَمُضَى آخِرُهُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ الْآخِرَةُ وَعَدُ صَادِقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلَكٌ قَادِرٌ ، وَإِنْ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْمُطِيعَ لِلَّهِ لَاحِظَةٌ عَلَيْهِ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْعَاصِيَ لِلَّهِ لَاحِظَةٌ لَهُ . وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاؤُهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فِقْهًاؤُهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ سُمْحًاؤُهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفْهًاؤُهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاؤُهُمْ ،

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن حل نبت حسنها عليه ، وأوله من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الثريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهي تنشدهم مرثى في أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشديني بعض ما قلت ؛ فأنشدها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ثم أنشدتها مارثت به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكنتني وكان مفركا (يفتح الراء تبخفه النساء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان . (٢) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة تصرب للشئ يفضل على أقرانه

وملك المالَ مُبْخَلَاؤُهُمْ ، وإن من صلاح الوُلاة أن يصلُح قُرَناؤُها، وَنَصَحَ لك يا معاوية مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قل : « إن كان من مالِكَ الذي تَعَهَّدْتَ بجمعه تَخَافَةَ تَبِعْتَهُ ، فَأَصْبَتْهُ حِلَالًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِفْضَالًا ، فَتَنَعَّمْ ، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون ، فَاحْتَجَجْنَتْهُ ^(١) دُونَهُمْ ، فَأَصْبَتْهُ اقْتِرَافًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِسْرَافًا ، فإِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : « إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

* * *

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أَفْضَلُ ، أم عَلِيٌّ ؟ وَأَيْنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ » ، فقال : « عَلِيٌّ أَقْدَمُ هِجْرَةً ، وَأَكْثَرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ إِلَى الْخَيْرِ سَابِقَةً ، وَأَشْجَعُ مِنْكَ قَلْبًا ، وَأَسْلَمُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَقَدْ مَضَى تِلْكَ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْجَى مِنْهُ » .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٧٤ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أَجْهَلَ قَوْمِكَ ، حِينَ مَلَكَوا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً » ، فقال : « بَلْ قَوْمِكَ أَجْهَلُ ، قَالُوا حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَرَاهُمُ الْبَيِّنَاتِ : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، أَلَا قَالُوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْذِنَا لَهُ ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان فقال له :
 كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مراد ؟ قال : مذكر
 الأوتار ، وحمأة الذمار ، ومحرزوا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول في النخع ؟ قال : مانع
 السرب^(٣) ، ومُسعرُ الحرب ، وكاشفُ الكرب ، قال : وما تقول في بني الحرث ؟
 ابن كعب ؟ قال : فرأجو الأسكاك ، وفرسان العراك ، ولزأز الضكاك ، ترأك^(٤)
 ترأك ، قال : فما تقول في سعد المشيرة ؟ قال : مانعو الضيم ، وبأنو الرنم ، وشافو
 النغم^(٥) ، قال : ما تقول في جعفي ؟ قال : فرسان الصباح^(٦) ، ومعلو الرماح ، ومبارزو
 الرياح ، قال : ما تقول في بني زبيد قال : كفاءة أنجاد^(٧) ، سادات أجداد ، وقُرُوع
 الذباد^(٨) صبر عند الطراد ، قال : ما تقول في جنب ؟ قال : كفاءة يمنعون عن الحريم ،
 ويفرجون عن الكظيم^(٩) ، قال : فما تقول في صداء ؟ قال : سمام الأعداء ،

(١) أي بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثار ؛ والذمار : ما يلزمك
 حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارعى
 من المال . (٤) الأسكاك : الزحام ؛ ومثلها الضكاك ؛ ولزه كرده : شدة وألصقه والمزاز
 ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز المعظام : أي يلز بها ويقرن ليذللها ومنه قول ليبيد :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جسامها

وترأك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتنظيم ، أي دِم هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم في أمي
 مكان . (٥) الرنم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنغم : العطش . (٦) الفارة .

(٧) ضبط في الأمل بفتح الزاي ، وهو خطأ ، زبيد كزبير : يطن من مذبح ، رط عمرو بن معديكرب
 وكأمير : بلد باليمن ، وكفاءة جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشهم وكتف ورجل :
 الشجاع الماضي فيما يمجز غيره . (٨) وقر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذباد والذود : الذفع .
 (٩) الكظيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاءِ^(١) ، قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي رَهَاءِ ؟ قَالَ : يُنْهِنُهُونَ^(٢) عَادِيَةَ الْقَوَارِسِ ، وَيَرِيدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَّ الْخَوَاسِيسَ^(٣) قَالَ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِقَوْمِكَ .

(الأمال ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ، وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي^(٤) وأوهى عمادي ، وشيَّب سَوَادِي ، وأسرع في تِلَادِي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أضني الكعاب^(٦) ، وأسُرَّ الأصحاب ، وأجيد الضراب^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرْهَبُ الْقَرْنَ جَانِبِي كَأَنِّي شَتِيمٌ بَاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ^(٨)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوْلَتِي وَبِهَائِي وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتُصْنِي الْكَعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِي كَأَنِّي غُصْنٌ نَاعِمٌ الْنَبْتِ نَاضِرُ^(٩)
فَبَانَ شِبَابِي وَاعْتَرَنِي رَثِيَّةٌ كَأَنِّي قَنَاءٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ^(١٠)
أَدِيبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ^(١١)
وَقَصُرُ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتُ كَلَامَا لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْذُ الْعَيْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَهَادِرُ

(١) الهيجاء : الحرب ، وهو مسعر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد مذك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كعب ثدي الجارية : نهد ، وهي كاعب وكعاب . (٧) ضرب الفحل ضرباً : نكح .

(٨) القرن : كفؤك في الشجاعة أو عام . والشتم : الأسد للعابس ، والخسدر : أجرة الأسد . ومنه

أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين

والرجلين . والاطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الرمح : ثنى واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يُصَدِّرنا عنها وهو راض .
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأي شيء سُدَّتْ قومك يا عرابة ؟
قال : أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟
فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلها كذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرَف
وذاك لأنِّي لأعادي مَرَّاتِهِم ولا عن أخى ضَرَّائِهِم أُنْكَفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي ، ولرَّيَّما أكَفُّ ما لا أستطيع فأكَفُّ
وإني لَمَذْمُومٌ إذا قيل : حاتم نبا نبوةً ، إن الكريم يُعْتَفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم ، وأحلمُ عن جاهلهم ، وأسمي في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلي ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل مني ،
ومن قَصَّرَ عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشماخ حيث
يقول فيك :

رأيت عَرَابَةَ الأَوْسَى يسمو إلى الخيرات منقطعَ القرين
إذا مارايةٌ رُفِيتَ لمَجْدٍ تلقاها عَرَابَةُ باليمن
(الأمال ١ : ٢٧٧)

(١) أي امتنع منه وآفف .

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واضطنمك ، حتى بلّغك باصطنائه إياك المدى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فما جازيت أبى بالآلئه ، حتى قدّمتَ هذا حَلًى » ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر آلائكم حلى » ، وتظاهر نعمائكم لدى » ، فقد كان ذلك ، ووجب على المسكافاة والحجازة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازَاتُ الصدور ، ونجّمتُ تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللائم في التشمير ، ولا الزّارى ^(١) عليها في التفسير ، وذكرتُ أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرم كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً ، وذكرتُ أن أمك خير من أمه ، فلعمرى إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرتُ أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن ألقوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مَهْ يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدّالة عليك ، واستعقبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجّل له في ردك ، وأجّل على نفسك وواه خُراسان بشفاعتى ، وأعفه بما لا يُظهر به مؤروته » ، فولّاه معاوية خُراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٩ — مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، فحمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرأفاً من مرأق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ يده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أتقى الحوادث من خيلك مثل جندلة الراجم^(٢)
صلياً إذا خار الرجا لـ أبل ممّنع الشكايم^(٣)
قد رامني الأعداء قبلك فامتنعت من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أتى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وحلماً راجحاً ، وكلاً ومرعى لأوليائك ، وسماً نافعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقبل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمرة كاد يحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .
(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمال ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ — روح بن زنباع ومعاوية

وولى معاوية روح بن زنباع ، فعتب عليه في جنابة ، فكتب إليه بالقدوم ، فلما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدي مني ركناً أنت بنية ، أو أن تضع مني خسيصة أنت رفعتها أو تشمت بي عدوا أنت

(١) تمائل الليل : قارب البرء . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجد ، والشكايم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة قفم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لاينقاد .

وَقْتِهِ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حُلُوكَ وَعَفْوُكَ دُونَ إِفْسَادِ صِبَاغِيكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :
« إِذَا اللَّهُ سَتَى عَقَدَ أَمْرٍ تَيْسَّرًا » خَلُّوا سَبِيلَهُ .

(الأمل : ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب : ٢ : ١٩٤)

٣٨١ — مَخَاصِئُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ بَدَى زِيَادَ بْنِ أَبِيهِ

جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعَاءَهُ ، وَحِجْرِي فِنَاءَهُ ، وَتَذَنِي سِقَاءَهُ^(٢) ، أَكَلُوهُ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْتُ فِصَالَهُ^(٤) ، وَكَمَلْتُ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ^(٥) أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرَهَا^(٦) ، فَبَادَنِي^(٧) أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي^(٨) » .

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عَلِيَّ ، وَأَلْهِمُهُ حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ قَتْلُهُ » .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفَاءً^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرَهَا » .

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ سَجْعِكَ أَوْ قَالَ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، قَادِفٌ ابْنُهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْلِقْ أَنْ تُحَسِّنَ أَدَبَهُ » .
(الأمل : ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى : ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كَبْتُهُ » . (٢) السقاء : جلد السخلة يكون للماء واللين . (٣) أَرْعَاهُ . (٤) فَطَامَهُ . (٥) اشْتَدَّتْ وَمَتْنَتْ . (٦) الْإِبَاءُ وَالْمَشَقَّةُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ، أَوْ بِالْفَتْحِ : مَا أَكْرَهَكَ غَيْرَكَ عَلَيْهِ ، وَبِالضَّمِّ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ . (٧) آدَاهُ عَلَى خِلَانٍ : أَمْدَاهُ وَأَعَانَهُ . (٨) الْإِكْرَاهُ . (٩) الْخَفِيفُ .

٣٨٢— صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :

قال أبو محمد القُشَيْرِي : كان أبو الأسود الدَّوْلِيُّ من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقر بهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدَّوْلِي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقياً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطرُ ، وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، وَيُرَدَّع بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المنهجُ ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره^(٣) ، كمّا خشيت إظهاره ، فليُصِفْنِي أمير المؤمنين من الخَصَم ، فإني أعوذ بِمَقْوَتِهِ^(٤) من العار الوَبِيل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البُعُول الأجار^(٥) ، فقال لها معاوية : وَمَنْ بَعْلُكَ هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدَّوْلِي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضاً ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصاً ، أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق ، وأنا نخبير أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقها عن ربيسة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعديراً : إذا قصر ولم يجتهد

(أو من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطمه بالمدرّة كفرحة) . (٣) تسكنى بذلك من طلاقها .

(٤) المقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعوات : جمع بعل وهو الزوج ، والأجار : جمع

أجور ، أفعل تفضيل من جار . (٦) شهره كمنه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شنة .

ظهرت ، ولا لأى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حبائِلها ، فقال معاوية : وأىَّ شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيجها على بجواب عَتِيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بُدَّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصَّخَب ، دائمة الذَّرَب^(٢) ، مُهَيِّئَة للأهل ، مُؤَذِّبَة للبعْل ، مُسَيِّئَة إلى الجار ، مُظْهِرَة للعار ، إن رَأَتْ خَيْرًا كَتَمَتْهُ ، وإن رَأَتْ شَرًّا أَذَاعَتْهُ » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حَضَرَه من المسلمين ، لَرَدَدْتُ عليك بَوَادِرِ كلامك ، بنوافذ أقرعُ بها كُلَّ سِيْهَامِك^(٣) ، وإن كان لا يحملُ بالمرأة الحرَّة أن تَشْتِمَ بَعْلًا ، ولأن تُظْهِرَ لأحدٍ جهلاً » ، فقال معاوية : عَزَمْتُ عليكِ لَمَّا أَجَبْتِهِ ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما عَلِمْتُه إِلَّا سَتُولًا جَهُولًا ، مُلِحًّا بَخِيلًا^(٤) ، إن قال فَشَرُّ قَائِلٍ ، وإن سَكَتَ فَذُو دَغَائِلٍ^(٥) ، لَيْتَ حين يَأْمَنُ ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضَافُ^(٦) ، إن ذَكَرَ الجود انْقَمَعَ^(٧) ، لَمَّا يَعْرِفُ من قِصَرِ رِشَائِهِ^(٨) ، ولو لمْ آبَاءُهُ ، ضَيْفُهُ جَائِعٌ ، وجارُهُ ضَائِعٌ ، لا يحفظ جاراً ولا يحصى ذِمَّارًا ، ولا يُدْرِكُ نَارًا ، أَكْرَمَ الناسَ عليه من أَهَانِهِ ، وأَهْوَنَهُمُ عليه من أَكْرَمِهِ » ، فقال معاوية : سبحان الله لَمَّا تَأَنَّى به هذه المرأة من السجع ! فقال

(١) حاضر مهياً . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبذاءته .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدثك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بحجج نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفًا بالبخل . ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك ما فيه ؟ » وسلم عليه أعرابي يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : زراءك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : هيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألام منك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفينية . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه بضيفه : زل عليه ضيفاً . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاء فى الأصل : الخبل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَّاحاً^(١) فتعالى أفصل بيدك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت معها ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعجل المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تفل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حملته خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعت كرهاً ، إن بطني لو عاؤه ، وإن ثديي سقاؤه ، وإن حجري فناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكأف لها أبياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مرحباً بالتي تجور علينا ثم مهلاً بالحامل المحمول
أغلقت بابها على وقالت : إن خير النساء ذات البمول
شفت نفسها على فراغاً هل سمعتم بالفارغ المشفول ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن جار عن مفار السبيل
كان ثديي سقاؤه حين يضحى ثم حجري فناؤه بالأصيل
لست أبغى وإحدى لابن حرب بدلاً ماعلته والخليل^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس من غداه حيناً صغيراً وسقاه من ثديه بخذول

(١) أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم .

هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَبِيهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ^(١)
أُمُّهُ مَا حَنَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحِمْلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٢)

فَقَضَى لَهَا مَعَاوِيَةَ عَلَيْهِ ، وَاحْتَمَلَتْ ابْنَهَا وَانصَرَفَتْ . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لَمَّا قَدِمَ الْأَحْنَفُ فِي وَجْهِهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، تَكَلَّمَ أَبُو حَاضِرِ
الْأَسَدِيِّ - وَكَانَ خُطِيبًا جَمِيلًا - فَقَالَ لَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : اسْكُتْ فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنْ
لِيَ بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالْدَّرْهِمِ ، قَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَنَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتِيَاذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلُنَا
وَمَثَلُكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الْأَعَشَى حَيْثُ يَقُولُ :

عُلِّقَتْهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحَبُّنَا أَهْلُ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ

ابْنُ مَرْوَانَ . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزد بين يدي عبد الملك بن مروان

بَعَثَ الْحُجَّاجُ خُطْبَاءَ مِنَ الْأَحْمَاسِ^(٤) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَكَلَّمُوا ، فَلَمَّا

انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى خُطِيبِ الْأَزْدِ ، قَامَ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّآ حَتَّى فِيمَا لَ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالِ ، وَأَنَّا نَجْزِي بِفِعْلِنَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم: الرحمة والرفقة والتعطف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ،

إِذْ يَخْتَلُ وَزْنَ الْبَيْتِ . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبها . (٤) الحمس

كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكثانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في الجاهلية

انتمسهم في دينهم ، أو لانتجائهم بالحمساء وهي الكعبة ، وأحماش العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا

يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أكتفنا ، وإن الموت لَيَسْتَمَذِبُ أرواحنا ، وقد علمت الحربُ الزُّبُونُ ، أَنَا نَقْرَعُ جِجَاحَهَا ، وَنَحْلِبُ صَرَاهَا^(١) « ثم جلس^(٢) .
(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ — سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل العجَّاج^(٣) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاجُ : بلغني أنك لا تقدر على الهِجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأنبياء ، أمكنه إخرابُ الأُخْبِيَّةِ ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظَلِّمَ ، وإن لنا حِلْمًا يمنعنا من أن نُظَلِّمَ ، فَعَلَّامَ الهِجاء ؟ فقال : لَكَلِمَاتُكَ أشعرُ من شعرك ! فأتى لك عِزٌّ يمنعك من أن تُظَلِّمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلْمُ الذي يمنعك من أن تُظَلِّمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَظَرَفُ ، والطبع النَّائِدُ ، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حكيمًا . قال : وما يمنعني وأنا نجى^(٤) أمير المؤمنين ؟ « .

(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ — وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما وَلِيَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْنِ بعد قتله ابنَ الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد ابنَ طَلْحَةَ ، فقرَّبه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يَصُصِّرُ له في برٍّ وإعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصري : بقية البن . (٢) وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء نزار عند معاوية ، فذهبت في الخطب

كل مذهب ، قام صبرة بن شيان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حي فعال ، ولسنا حي مقال ، ونحن نبليغ . بفعلنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروى المبرد في الكامل هذا القول عن صبرة أيضا — انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ — ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزد — انظر الجزء الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٥٩٠ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ
 الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ
 الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبُوَّةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ
 الْمُوَازَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبْكَ ، لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ إِذْنُكَ ،
 وَتَعْرِفَ لَهُ مَا عَرَفْتُكَ » . فَقَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَجُلًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : أَتَذُنُ
 لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلِسَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ،
 ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجُ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَعْرِفْكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ
 الْأَبُوَّةِ ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدَعَنَّ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ
 نَفْسِكَ وَعَامَّتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقُّ مَا قُدِّمَ
 بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدَاءٌ ، وَلَكَ فِيهِ
 وَجْهَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةٌ ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلَيْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدُ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَذُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ :
 نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لِلْحِجَاجِ قَم- ، فَلَمَّا خَطَرْتُ^(١) السُّتْرَ أَقْبَلَ عَلَى
 إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتُكَ ، قَالَ : بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَاهَدْتُ إِلَى
 الْحِجَاجِ فِي تَقَطُّرُسِهِ وَتَعَجُّرُفِهِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَالِيتِهِ الْحَرَمِينَ ،
 وَهَامَا مَاهِمَا وَبِهِمَا مَنْ بِيَهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، بِسُوءِهِمُ الْخُسْفَ^(٢)
 وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ ،
 وَيَطْلُومُ بِطَغَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَعَاعِ لَأَرْوِيَهُ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلٍ ،
 ثُمَّ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَانَاكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 خَدًّا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لَكَ

(١) المراد أَرَضَى ، مِنْ خَطَرْتُ جِلْدَ الْمَرْأَةِ : إِذَا اسْتَرْضَى . (٢) يُولِيهِمُ الدَّلَّ .

النجاة ، فارتفع على نفسك أو دغ ، وكان عبد الملك مُسَكِّمًا ، فاستوى جالسًا ، وقال :
كذبتَ ومِنتَ^(١) فيما جئت به ! واقد ظن بك الحجاج ظنًا لم نجد فيه فيك ، وقد يُظَنُّ
الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المسائن الحاسد ! قال : فقامت والله ما أبصر شيئًا ، فلما خطر
الستر لحقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل
فلبث مَلِيًّا ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى
الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتقني ، وقَبِل ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله
المتواخين خيرًا بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك
لأرفعنَّ ناظرىك ، ولأُعَلِّنَّ كَمَبِكَ ، ولأَتَبِعَنَّ الرجال غبارَ قدمَيْكَ ، قال : فقلت
فى نفسى إنه ليسخر لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ،
ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أُرْشاركك أحد فى نصيحتك ؟
فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحدًا أظهرَ يَدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت محاييًّا أحدًا
بدينى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد
الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته
عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالًا
لهما ، ووليته العراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدَحِّضُها إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك
ليؤدى ما يلزمه من ذِمَّامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج
وأكرمى أضفاف إكرامه .
(العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح الميوس ص ١١٩)

(١) مان مينا : كذب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجاجم ، وقَدِمَ على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ تذاكروا البلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عَطَّارْد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وغمَّها ^(١) ، وسَفُت عن الشام ووبَّأها ، وجاورها الفُرَات ، فعَذَّب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأحمسي : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السَّرِيَّة ^(٢) ، وأكثرُ منهم قَنَدًا ^(٣) ، وعاجًا ، وساجًا ^(٤) ، وناسًا ^(٥) ، ماؤنا صَفْو ، وخيرُنا عَفْو ، لا يخرج من عندنا إلا قَائِدٌ وسائقٌ وناعقٌ ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خبير ، وقد وَطَّئتهما جميعاً » ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصَدِّقٌ ، فقال : « أمَّا البصرة فمَجُوزُ شَبَطَاء ، دَفَرَاء ، بَحْرَاء ، أُوتِيَتْ من كل حَلْيٍ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابة حسناء جميلة ، لاحتلَّى لها ولازينة » . فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان ^(٧) - وسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنَا قَصَبٌ ، وأنهارنا عَجَبٌ ، وسمائنا رُطَبٌ ^(٨) ، وأرضنا ذهب » .

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وتقل ، أو قرية من المياه ، وفي الأصل : « وغمقتها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفص إلى ثلثائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال . (٣) القند : غسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض تلبيه ، وهو يشبه الآبنوس . (٥) في الأصل : « وبأسا » بالباء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا ما بعده . (٨) السماء : كل ما علاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كمشاب : قرية قريبة منها » ، وإن التمر لكثرت ووفرت يظلمهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم تجرية ^(١) ، وأكثر منكم ذرية ، وأغذى منكم برية » .

وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وطاجاً ، ودرياجاً ، وخراجاً ، ونهراً عجاجاً ^(٢) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فيسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلِّك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والله رءوف ، قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأفهمهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدَّةٍ فنقطع فيهم ، ويلقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد ؟ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا ببعض ما كيدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السرح ^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّأت ^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) تجر كنصر تجرا وتجارة : التجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم رأطول باءاً من أهل الكوفة في التجارة — لأن البصرة ثغر على الخليج للفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) المبحاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال السهم . (٤) رَوَّأت في الأمر : نظر فيه وتمعبه ، ولم يجعل بجواب .

٣٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معاذان الأشقرى - ومعه مروة بن تليد الأزدى - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصغير، فلما دخلا عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يَا حَفْصُ: إِنِّي عَدَايَ عَنكُمْ السَّفَرُ . وَقَدْ سَرِزْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له: أخبرنى عن بنى المهلب، قال: « الْمَغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ ، نَارُ ذَا كِيَّةِ ^(١) ، وَصَعْدَةُ ^(٢) عَالِيَةِ ، وَكَفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا ، لَيْثُ غَابٍ ، وَبَحْرَ جَمِّ عُبَابٍ ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ ، لَيْثُ الْمُفَارِ ^(٣) ، وَحَامِي الدَّمَارِ ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ ، وَالْأَسَدُ الْخَادِرُ ؟ وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الزُّعَافُ ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدٌ شَامِخٌ ، وَفَخْرٌ بَاذِخٌ ^(٤) ، وَأَبُو عُيَيْنَةَ الْبَطْلُ الْهَمَامُ ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ ، وَكَفَالُكَ بِالْمَفْضَلِ نَجْدَةٌ ، لَيْثُ هَذَارٍ ، وَبَحْرُ مَوَّارٍ ^(٥) ، وَمُحَمَّدُ لَيْثُ غَابٍ ، وَحُسَامُ ضِرَابٍ ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانُوا فَيْكُمْ ؟ قَالَ : كَانُوا نُحَمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا ، فَإِذَا أَلْيَلُوا ^(٦) فَقَرَّ سَانَ الْبَيَاتِ ، قَالَ : فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ ؟ قَالَ : كَانُوا كَالْحَلْفَةِ الْمَفْرَغَةِ : لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ لَكُمْ الْمَهْلَبُ وَكُنْتُمْ لَهُ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةُ الْوَالِدِ ، وَلَهُ مَنَآ بَرُّ الْوَلَدِ ، قَالَ : فَكَيْفَ جَمَاعَةُ النَّاسِ ؟ قَالَ : طَلَى أَحْسَنَ حَالٍ ، أَدْرَكُوا مَارَجَوَا ، وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا ، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ ، وَأَغْنَاهُمُ النَّفْلُ ^(٧) ، قُلْ : فَكَيْفَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوْكُمْ ؟ قَالَ : كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفَوْنَا ، وَإِذَا أَحَدُوا يَبْسُتْنَا مِنْهُمْ ،

(١) ذكت النار : اشتد لهبها . (٢) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك . (٣) أعار على

العدو إغارة ومغارا . (٤) الطود : الجبل ، وباذخ : عال . (٥) مار : ماج واضطرب .

(٦) أليوا وألألوا : دخلوا فى الليل . (٧) الغنيمة والهبة .

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحَدَّ عندنا آثر من القَلِّ^(١) ، قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيثُ وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغاني ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر

الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلْكَة^(٢) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزنك ؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصي عاصٍ من عُرض العشيرة ، فحلتني على اسمي ، وهُدِمت داري ، وحُرِمت عطائي ، قال : هيات ، أما سمعت قول الشاعر :

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّمَا تُعَذِّبُ الصُّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٣)
وَلَرُبَّ مَاخُوذٍ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَنَجْمِ الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذي ضرب به المثل في العذر ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سليك بن عمرو التميمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب واصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تلتحق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتابط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنزة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولى في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » - انظر ترجمته في سرح الديون ص ٨٠ والأغاني ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانيلك من يجني عليك وقد » على أن المروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكن رأيت المروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشكلة بين المروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال : وما ذاك ؟ قال : قال :
« يَا أَيُّهَا الْقَزِيْنُ : إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »
قال : معاذ الله أن نأخذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَطْلَمُونَ .

قال الحجاج : عليّ بيزيد بن أبي مُسلم^(١) ، فَأَتَيْ بِهِ قَمَثِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقال :
فَكَتَ لِهَذَا عَنْ اسْمِهِ ، وَاصْلُكَ^(٢) لَهُ بَعْطَانُهُ ، وَابْنُ لَهُ مَنْزِلُهُ ، وَرَمَرٍ مَنَادِيَا يَنَادِي
فِي النَّاسِ ، صَدَقَ اللهُ ، وَكَذَّبَ الشَّاعِرُ .
(العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٩١ - جامع المحاربى والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق . وتنفّم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ، فقال له
جامع المحاربى - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنّاً - : « أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك ،
على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لِدَاتِ نَفْسِكَ ، فدع ما يبعدهم منك ،
إلى ما يقرّبهم إليك ، والتمس العافية ممن دونك ، تُعْطَاهَا مِنْ فَوْقِكَ ، وليكن إيقاعك
بعد وعيدك ، ووَعِيدُكَ بعد وعدك . قال الحجاج : « إِنِّي وَاللّهِ مَا أَرَى أَنْ أَرُدَّ
بَنَى اللَّكِيْعَةِ إِلَى طَاعَتِي إِلَّا بِالسَّيْفِ » ، فقال « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنْ السَّيْفُ إِذَا لَاقَى السَّيْفَ
ذَهَبَ الْخِيَارُ » ، فقال الحجاج : « الْخِيَارُ يَوْمُئِذٍ لِلّهِ » ، قال : « أَجَلٌ ، وَلَكِنْ
لَا تَدْرِي لِمَنْ يَجْمَلُهُ اللهُ » ، فغضب الحجاج وقال : « يَا هَنَاهُ^(٣) إِنَّكَ مِنْ مُحَارِبٍ » ،
فقال جامع :

وَالْحَرْبُ سُمِّيَتْ ، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقَتْلُ أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرًا

(١) كاتب الحجاج . (٢) صلك له كقتل : كتب له صكاً ، وهو الكتاب الذى يكتب فى المعاملات : (الشيك) .

(٣) هن : كلمة يكتفى بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت : ياهن أقبل ،

وفد تزد الألف والهاء فى آخره فى النداء خاصة ، فيقال ياهناه أقبل ، أى يافلان ، وهذه اثناء تصير تاء

فى الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتسكّر لاجتماع الساكنين .

فقال الحجاج: « والله لَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ ، فَأُضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال جامع : « إِنْ صَدَّقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَّشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَفَضَّبُ الْأَمِيرُ أَهْوَنَ عَلَيْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قَالَ : أَجَلٌ ، وَسَكَنَ ، وَشُغِلَ الْحَجَّاجُ بِبَعْضِ الْأَمْرِ ، فَاَنْسَلَ جَامِعٌ ، فَمَرَّ بَيْنَ صَفُوفِ خَيْلِ الشَّامِ ، حَتَّى جَاوَزَ إِلَى خَيْلِ أَهْلِ الْعِرَاقِ - وَكَانَ الْحَجَّاجُ لَا يَخْطِطُهُمْ فَأَبْصَرَ كَبْكَبَةً^(١) فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَكْرِ الْعِرَاقِ ، وَتَمِيمِ الْعِرَاقِ ، وَأَزْدِ الْعِرَاقِ ، وَقَيْسِ الْعِرَاقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَثَرُوا بِأُثْوَا إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَهُمْ خُرُوجَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ دَافِعَ اللَّهُ لَنَا عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : وَيَنْجِيكُمْ أَعْمُوهُ بِالْخَلْعِ كَمَا يَنْقِمُكُمْ بِالْعِدَاوَةِ ، وَدَعُّوا التَّمَادِيَّ مَا عَادَاكُمْ ، فَإِذَا ظَفِرْتُمْ بِهِ تَرَاجَعْتُمْ وَتَمَاقَبْتُمْ ، أَيُّهَا التَّمِيمِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ الْأَزْدِيِّ ، وَأَيُّهَا الْقَيْسِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ التَّغَلَبِيِّ ، وَهَلْ ظَفِرَ بَيْنَ نَاوَاهِ مِنْكُمْ إِلَّا بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ مِنْكُمْ ؟ » وَهَرَبَ جَامِعٌ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَجَارَ بَزْرُقَرَ بْنَ الْحَارِثِ .

(البیان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢)

وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلى الأخيلية والحجاج

بَنَ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كُنْتُ أَدْخُلُ مَعَ عَنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إِذَا دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، فَدَخَلَ يَوْمًا ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِمَا ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْحَجَّاجِ أَحَدٌ إِلَّا عَنَبَسَةُ ، فَأَقْعَدَنِي ، فَجِئْتُ الْحَجَّاجَ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطْبٌ ، فَأَخَذَ الْخَادِمُ مِنْهُ شَيْئًا فَجَاءَنِي بِهِ ، ثُمَّ جِئْتُ بِطَبَقٍ آخَرَ ، حَتَّى كَثُرَتْ الْأَطْبَاقُ ، وَجَعَلَ لَا يَأْتُونُ بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَنِي مِنْهُ بِشَيْءٍ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ مَا بَيْنَ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَهُمَا ، ثُمَّ جَاءَ الْحَاجِبُ فَقَالَ : امْرَأَةٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : ادْخُلِيهَا ، فَدَخَلْتُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْحَجَّاجُ طَاطَأَ رَأْسَهُ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ ذَقْنَهُ قَدْ أَصَابَ الْأَرْضَ ، فَجَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ

(١) الكيكبة : الجماعة .

بين يديه ، فنظرت فإذا امرأة قد أسدت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي
 كئيلي الأخيالية ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا بلي ، ما أتى بك ؟
 فقالت : « إخلاف النجوم ^(١) ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ^(٢) ، وشدة الجهد ،
 وكنت لنا بعد الله الرقد ^(٣) » فقال لها : صني لنا الفجاج ^(٤) ، فقالت : « الفججاج مُبررة
 والأرض مُشعرة ، والمبرك ^(٥) مُعتل ، وذو العيال مُختل ^(٦) ، والمالك للقل ^(٧) ،
 والناس مُسنتون ^(٨) ، رحمة الله يزجون ، أصابتنا سنون مجحفة مُبلطة ^(٩) ، لم تدع لنا
 هيباً ولا ربماً ^(١٠) ، ولا عافطة ولا نافطة ^(١١) ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال ،
 وأهلك العيال » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال : هاتي ، فأنشأت تقول :

أحجاج لا يُفَلِّحُ سلاحك ، إنها الممنايا بكف الله حيث ترأها ^(١٢)
 أحجاج لا تعطى العصاة مُنأماً ولا الله يُعطي للعصاة مُناها
 إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع ألقى دأها فشفاها
 شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها
 سقاها فروأها بِشرب سجاله دماء رجالٍ حيث مال حشاها ^(١٣)

(١) أى أخلفت النجوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السعار (بالضم) الذى يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرقد (بالفتح) : المعونة ، مصدر
 وفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والصلة . (٤) الفججاج جمع فجج : بالفتح ، وهو
 الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مختل : محتاج من الخلطة
 بالفتح وهى الحاجة . (٧) للقل : أى هالك من أجل القلة . (٨) أى مقحطون ، والسنة : القحط .
 (٩) مجحفة : قاشرة ، ومبلطة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التى تفرش
 فى الدار ، وأبلط الرجل فهو مبلط : إذا لزق بالأرض . (١٠) الهيب : الفصيل ينتج فى الصيف
 (فى آخر النتائج) والريع : الفصيل ينتج فى الربيع (وهو أول النتائج) . (١١) المافطة : الضائقة
 (النجدة) ، من العطف ، وهو الضرط ، عطف كضرب : ضرطت ، فهى عافطة ، والعطف أيضاً : نثير
 للضأن ، نثير بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة المنز ، من النفط ، نفطت المنز كضرب نثرت بأنفها ،
 أو عطست ، فهى نافطة ، أو لأنها تنفط ببوفا أى تدفمه دفعا ، أو النافطة إتباع للمافطة ، أو المافطة الأمة
 للرعاية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
 سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رِزًّا كَتِيبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا^(١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاهَا^(٢)
 فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعَوْنُ مِثْلَهُ بِبَحْرِ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ نَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحججاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعرٌ
 مُذْ دَخَلْتُ الْعِرَاقَ غَيْرَهَا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى عُنْبَسَةَ بْنِ سَعِيدٍ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعِدُّ لِلْأَمْرِ
 عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَبَدًا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ : حَبِّبْكِ ! قَالَتْ : إِنِّي قَدْ قُلْتُ أَكْثَرَ
 مِنْ هَذَا . قَالَ : حَسْبُكِ وَنَحْمُكِ ! حَسْبُكِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا غَلَامِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَقُلْ لَهُ :
 اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَذْهَبَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : يَقُولُ لَكَ الْأَمِيرُ : اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ
 الْحَجَّاجِ ، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : تَسْكِلُكَ أَمَك ! أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَ ؟ إِنَّمَا أَمْرُكَ أَنْ تَقْطَعَ
 لِسَانِي بِالصَّلَةِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ يَسْتَشْبِئُهُ ، فَاسْتَشَاطَ الْحَجَّاجُ غَضَبًا ، وَهَمَّ بِقَطْعِ لِسَانِهِ ، وَقَالَ :
 ارْزُدْهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ، قَالَتْ : كَادَ وَأَمَانَةُ اللَّهِ يَقْطَعُ مَقُولِي ! ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ :

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ^(٤)

حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتِ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نَوْرٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ^(٥)

ثُمَّ أَقْبَلَ الْحَجَّاجُ عَلَى جُلَسَائِهِ ، فَقَالَ : أَتَدْرُونَ مَنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : لَا وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،
 إِلَّا أَنَّا لَمْ نَرَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، وَلَا أَحْسَنَ مُحَاوَرَةً ، وَلَا أَمْلَحَ وَجْهًا ، وَلَا أَرْصَنَ شَعْرًا
 مِنْهَا ، فَقَالَ : هَذِهِ لَبْلَى الْأَخِيلِيَّةِ ، الَّتِي مَاتَ تَوْبَةُ الْخَفَّاجِيِّ مِنْ حُبِّهَا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهَا
 فَقَالَ : أَتَشِدُّنَا يَا لَبْلَى بَعْضَ مَا قَالَ فِيكَ تَوْبَةُ ، قَالَتْ : نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَهَلْ تَبْكِينَ لَيْلَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا وَقَامَ عَلَى قَبْرِ النِّسَاءِ النَّوْاحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) العصري : بقية اللبن . (٣) المون جمع عوان .

كسحاب ، وهي التي كان لها زوج . (٤) الصمد : الذي يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج .

(٥) لقمحت : أصله من لقمحت الناقة أي قبلت اللقاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقند يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمع من العين صافح^(١)
وأغبط من ليلي بما لا أناله بلي ، كل ماقرت به العين طامح
ولو أن ليلي الأخيلية سلمت على ، ودوني جندل وصفاح^(٢)
سلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صددي من جانب القبر صافح^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الفوادي مطيرها^(٤)
أبيني لنا ، لا زال ريشك ناعما ولا زلت في خضراء غصن نصيرها
وكنت إذا ما زرت ليلي تبرعت وقد رآني منها الفداة سفورها
وقد رآني منها صدود رأيت وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
وأشرف بالقور اليفاع لعلني أرى نار ليلي أو يراني بصيرها^(٦)
يقول رجال : لا يصيرك نأيا بلي ، كل ماشف النفوس بصيرها
بلي ، قد يصير العين أن تكثر البكا ويمنع منها نوها وسورها
وقد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها ، أو عليها فجورها

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
يُلم بي كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني
سقرت عن وجهي ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) صافح : منصب . (٢) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(٣) زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن
روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بشره ، فتصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثار به ، وهذا
مثل يراد به تحريض ولي القتيل على طلب دمه ، فجعله جهلة الأعراب حقيقة . (٤) الفوادي : جمع غادية ،
وهي السحابة تنشأ غدوة . (٥) بسر كدخل : عبس وكلع . (٦) القور : جمع قارة ، وهي الجبيل

النصير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذى أسأله أن يصلحك ، إنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخوته وأنت لأخرى صاحب و خليل
فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، مارأيت منه شيئاً ، حتى فرق الموت بينى وبينه ،
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غزاة له ، فأوصى ابن عم له ، إذا أتيت
الحاضر من بنى عبادة فناد بأعلى صوتك :
عفا الله عنها ، هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها ؟
وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مرائك فيه ، فأنشدت :

لتبك العذارى من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر^(١)
قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

كان فتى الفتيان توبة لم يفتح قلائص يفحصن الحصى بالكرaker^(٢)
فلما فرغت من القصيدة ، قال محسن الفقهسى : - وكان من جلساء الحجاج -

(١) الشئون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين . وكتب مصحح الأمالى قال : « قوله المتحدر كذا فى النسخ ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفى هامش بعض النسخ بعد البيت الآتى :

فتى لا تخطأه الرفاق ولا يرى لقدر عيالادون جار مجاور » اهـ

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور ، وهى الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحصن : يقلبن ، من فحص المطر التراب تليه ، وفحص القطا التراب : اتخذ فيه أفحوصا وهو مجشمه ، والكرaker : جمع كركرة بالسكر ، وهى زور البعير .

مَنْ الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إني لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسرَّه أن لا تكون في داره عَذْرَاهُ إِلَّا هِيَ حَامِلٌ مِنْهُ ، فقال الحجاج : هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غنياً ، ثم قال لها : سَلِّي يَا ابْنِي تُعْطَى ، قالت : أُعْطِ ، فثلك أعطى فأحسنَ ، قال : لك عشرون ، قالت : زِدْ فثلك زاد فأجملَ ، قال : لك أربعمون ، قالت : زد ، فثلك زاد فأكملَ ، قال : لك ثمانون ، قالت : زد ، فثلك زاد فتمَّ ، قال : لك مائة ، واعلمى أنها غَمَ ، قالت : معاذَ الله أيها الأمير ، أنت أجودُ جوداً ، وأتجَدُ مجداً ، وأوزَى زنداً ، من أن تجعلها غمًا ، قال : فما هي ؟ وَيَحْكُ يَا ابْنِي ؟ قالت : مائة من الإبل برُعَاتِهَا ، فأمر لها بها ، ثم قال : أَلَيْكَ حاجةٌ بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النافذة الجَمْدَى ، قال : قد فعلتُ ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النافذة ذلك ، فخرج هَارِجًا عَائِذًا بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشام ، فهرب إلى قُتَيْبَةَ بن مسلم بَحْرُاسَانَ ، فاتبعته على البريد بكتّاب الحجاج إلى قتيبة ، فماتت بقومس^(١) ، ويقال بمَحْلُوان .

(الأمال ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٢٩٣ الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ، عَشْرًا من النجائب ، وعَشْرًا من قَمَدِ النكاح ، وعَشْرًا من ذواتِ الأحلام ، فلما نظر إلى الكتاب لم يدِرْ ما وَصَفَهِ من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلى الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِيَّتِهِ بِدُويَا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الفزو ، ثم شرب الشراب ، فله بَذَاهُ أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حَبْسِكَ ، قال : ومن هو ؟ قيل للغضبان الشَّيْبَانِي ، فأحضر

(١) قومس : صقع كبير بين خرابان وبلاد الجبل .

فلما مَنَلَ بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يقغدُون بي قبل أن أتمشَى بهم^(١) ؟
 قال : أصلح الله الأمير : ما نَفَعْتُ مَنْ قَالَهَا ، ولا ضُرْتُ مَنْ قِيلَتْ فِيهِ ، قال : إن
 أمير المؤمنين كتب إليّ كتاباً لم أذِرْ ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقرأ علىّ ،
 فقرأ عليه ، فقال : هذا بيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : « أُمَّا النَّجِيبَةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَتَخَنَّتْ رُكْبَتُهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَاللَّيْثِ ؛ وَأَمَّا قَعْدُ النِّكَاحِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَعْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ التُّدِيِّ ، كَثِيرَاتُ الْإِحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ يَشْرِي الْقَرَمُ^(٢) وَبُرُوزُ الظَّمَانِ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة
 النُّقْبَةُ^(٤) ، الْحَدِيدَةُ الرُّكْبَةُ ، السَّرْبَعَةُ الْوُثْبَةُ ، الْوَاسِطَةُ^(٥) فِي نِسَاءِ الْحَيِ ، الَّتِي إِذَا
 غَضِبَتْ غَضِبَ لَهَا مَائَةٌ ، وَإِذَا سَمِعَتْ كَلِمَةً قَالَتْ لَا وَاللَّهِ لَا أَتَمُحِي حَتَّى أَقْرِهَا قَرَارَهَا ،
 الَّتِي فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ ، وَيَتْبَعُهَا جَارِيَةٌ ، وَفِي حَجَرِهَا جَارِيَةٌ ، قَالَ الْحَجَّاجُ : عَلَى هَذِهِ
 لَعْنَةُ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَحْكُ ، فَأَخْبَرَنِي بِخَيْرِ النِّسَاءِ ، قَالَ : خَيْرُهُنَّ الْقَرِيبَةُ الْقَامَةُ مِنَ السَّمَاءِ
 الْكَثِيرَةُ الْأَخْذِ مِنَ الْأَرْضِ ، الْوَدُودُ الْوُلُودُ ، الَّتِي فِي بَطْنِهَا غِلَامٌ ، وَفِي حَجَرِهَا غِلَامٌ ،
 وَيَتْبَعُهَا غِلَامٌ ، قَالَ : وَيَحْكُ فَأَخْبَرَنِي بِشَرِّ الرِّجَالِ ، قَالَ : شَرُّهُمُ السَّنُوطُ الرَّبُوطُ^(٦) ،
 الْحُمُودُ فِي حَرَمِ الْحَيِّ ، الَّذِي إِذَا سَقَطَ لِأَحَدَاهُنَّ دَلْوٌ فِي بُئْرٍ انْحَطَّ عَلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ ،

(١) انظر خطبته في ص ٢٣٧ . (٢) القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق

إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ؛ فليُنظره في الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كعود) : جلس وسطهم ، كتوسطهم . (٦) السنوط : الذي لا شعر في وجهه

ألبنة « الكوسج » كجمفر ، وفي الأصل « السبوط » بالياء ، ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : السكل المتقاعد عن السمي ،
 والرَبُوط ، يريد به الملازم لبيته الذي لا يخرج منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فهنَ زِينَةُ الْخَيْرِ ، وَيَقْلُنَ عَاقَى فُلَانًا ، قَالَ : عَلَى هَذَا لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَخْبَرَنِي بِخَيْرِ الرِّجَالِ ؟
قَالَ : خَيْرُهُمُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّمَاخُ الْغُلْبَانِي :

فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَذْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا فِي بِيْسُوتِ الْحَيِّ بِالْمَقُولِجِ^(١)
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوَى سِنَانَهُ وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمُدَجِّجِ^(٢)
فَقَالَ لَهُ : حَسْبُكَ ، كَمْ حَبَسْنَا عَطَاكَ ؟ قَالَ : ثَلَاثَ سَنِينَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِهَا
وَحُلِّيَّ سَبِيلَهُ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوي المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : مَا زَالَتْ الْحِكْمَاءُ تَكْرَهُ الْمِزَاحَ وَتَنْهَى عَنْهُ ،
فَقَالَ : « الْمِزَاحُ مِنْ أَدْنَى مَنْزِلَتِهِ إِلَى أَقْصَاهَا عَشْرَةُ أَبْوَابَ : الْمِزَاحُ أَوَّلُهُ فَرَحٌ وَآخِرُهُ
تَرْحٌ ، الْمِزَاحُ نَقَائِضُ السَّفَهَاءِ كَالشَّعْرِ نَقَائِضُ الشَّعْرَاءِ ، وَالْمِزَاحُ بُؤْسٌ صَدْرُ الصَّدِيقِ ،
وَيَنْفَرُّ الرِّفِيقُ ، وَالْمِزَاحُ يُبْدِي السَّرَائِرَ ، لِأَنَّهُ يُظْهِرُ الْمَعَايِرَ ، وَالْمِزَاحُ يُسْقِطُ الْمُرُوءَةَ ، وَيُبْدِي
الْخَفَاءَ ، لَمْ يَجِرَّ الْمِزَاحُ خَيْرًا وَكَثِيرًا مَا جَرَّ شَرًّا ، الْغَالِبُ بِالْمِزَاحِ وَاتَرَّ ، وَالْمَغْلُوبُ بِهِ نَاقَرٌ ،
وَالْمِزَاحُ يَجْلِبُ الشَّنَمَ صَغِيرُهُ ، وَالْحَرْبُ كَبِيرُهُ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَرْبِ إِلَّا عَفْوٌ بَعْدَ قُدْرَةٍ ،
فَقَالَ الْحَجَّاجُ : « حَسْبُكَ ، الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ عَفْوٍ مَعَهُ قُدْرَةٌ » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكتنى عن كرمه ، والمدجج : الشاك في السلاح .

٣٩٥ — يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَتَى يَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ : مَوْلَى الْحِجَاجِ ، فِي جَامِعَةِ^(١) ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا تَفْتَحِيهِ^(٢) الْعَيْنُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُلَيْمَانُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ امْرَأًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ^(٣) ، وَوَلَّى مِثْلَكَ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُدْبِرٌ ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَى مُقْبِلٍ ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَصَفَرْتَ ، وَلَا اسْتَجَلَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : « أَيْنَ تَرَى الْحِجَاجَ ، أَيُّهُوَ فِي النَّارِ ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَمَرٍ هَا ؟ » ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، إِنَّ الْحِجَاجَ قَمَعَ لَكُمْ الْأَعْدَاءَ ، وَوَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ أَبِيكَ ، وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ » ، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ : أَخْرِجْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، نَمِ التَّفَتِ إِلَى جُلُوسَاتِهِ ، فَقَالَ : قَبِّحَ اللَّهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبِهِ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَسْكَافَاةَ ، أَطْلُقُوا سَبِيلَهُ .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزديده . (٣) الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ما شاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد الهجة ، وفيه يقول « وأيم الله لنن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريداً في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فرويلك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت في وبلك مدة أتملق بها » فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لتصبى حديث السن تمذر بقله عقلك ، وحدائة سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أمورا دلايك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحدق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زبانياً ^(١) ، قنور بن قنور ^(٢) ، لا نسب له في العرب » قال سليمان : أى شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف - ويسمى كليبا - وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الخزال وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأثر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه يختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد لإياد
زمان هو العبد المقر بذله يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغا كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطئه ويضعفه ويمجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتني الفرصة انهزمتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلى ، فابعث من رأيك مكانى » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاردة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعبا بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوبه منه ، فقدم كعب على عبد الملك واستنشد : فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاردة الدباغ غنيمة » ! فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض مشاهدته في تلك الحروب رأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها ، وأكون حجاجا ، أو حائكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قم أمير المؤمنين لما نفعلك ما سمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء : - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح الميوس ص ١١٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت تحوتك ، وإن شئت أهدمتك » فالتزموا لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بريدة بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله يعلم » قال : هات ، قال : « كان عدو الله يتزين تزين المؤمنين ^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة ، وأكذب في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشتم ، لا ما تأتي به السفلة ^(٢) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ — كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأفرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلتها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده ، قال : غطى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فما نفق ^(٣) عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإنيمانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فقتلتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاعة بالفجور « من الومس كوهذ : وهو احتكاك الشيء بالشيء

حتى يتجرد » وأومست : أمكنت من الومس » . (٢) سفلة الناس كنقمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فأعطاني منها قِيْلَتُ ، وما منعتني منها رَضِيْتُ .

(المقند الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٩٨ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال :
لأنكم عمّرتُم دُنْيَاكُمْ ، وأخربتم آخِرَتَكُمْ ، فأنتم تَكْرَهُونَ الثَّقَلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى
الْخِرَابِ ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما الْمُحْسِنُ فَكَالْعَائِبِ يَأْتِي
أَهْلَهُ مَسْرُوراً ؟ وأما الْمُسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ^(١) يَأْتِي مَوْلَاهُ مُحْزَوناً ، قال : فأى الأعمال
أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة
حق عند من تخافُ وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، قال :
فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ ، قال : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، قال :
يا أمير المؤمنين ، نَزَّهُ رَبُّكَ ، وعَظَّمَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ، أو يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ،
فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جاسائِهِ : أسرفتَ وَنَحَكَ عَلَى أمير المؤمنين ،
فقال له أبو حازم : أَسَكَتَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَ الْإِمْتَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ لِيُبَيِّنُ لَهُ لِلنَّاسِ
وَلَا يَكْتُمُونَهُ ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردّه وقال للرسول :
قُلْ لَهُ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَرْضَاهُ لَكَ ، فكيف أرضاه لنفسى ؟

(مزوج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ — وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرأب منهم غلام للكلّام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجداه الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان فى هذه الأمة من هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التّهنئة لا وفد المَرزئة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا قد أمّنا فى أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عِظنا يا غلام وأوجِز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّم حِلْمُ الله عنهم ، وطولُ أمليهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرّغوك حِلْمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فتزّل قدّمك ، فنظر عمر فى سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا انفتحت عليه الحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئا ، ورزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، أى لستنا وافدين للمطام.

(٢) وفى زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :
 « الحمد لله الذى مَنَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمةً ، وخلافتكم
 عِصمةً ، ومصائبكم أَسْوَةً ، وجعلكم قدوةً »
 (زمر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأَهم

دخل عبد الله بن الأَهم على عمر بن عبد العزيز — رحمه الله تعالى — مع العامة ، فلم
 يفجأ عمر إلا وهو مائلٌ بين يديه يتسكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد ، فإن الله خَلَقَ الخلق ، غنيًّا عن طاعتهم ، آمِنًا من معصيتهم ، والناسُ
 يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعربُ بِشَرِّ تلك المنازل ، أهلُ الوَرِّ وأهلُ المَدَرِ ،
 تختارُ دونهم طيباتُ الدنيا وَرَفَاغَةَ^(١) عيشتها ، مَيتِّهم فى النار ، وحبُّهم أَعْمَى ، مع
 ما لا يُحْصَى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُرَ فيهم رحمته ، بعث
 إليهم رسولاً منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ،
 فلم يَنْفَعهم ذلك أن جَرَّحوه فى جسمه ، ولَقَّبوه فى اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ
 إلا بأمره ولا ينزِلُ إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أَمَرَ بالعزيمة أَسْفَرَ لأمر الله
 لوئُهُ ، فأَقْلَجَ^(٣) الله حُجَّتَهُ ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نَقِيًّا نَقِيًّا ،
 صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سبيله ،
 وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كَانَ قابلاً منهم ،

(١) الرفافة والرفافة : سعة العيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكاهن ، وشامر . (٣) نصر .

فانتفضى السيوف من أعنادهما ، وأوقد النيران من شعلتها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه ، وقرَّعهم بالذى نفرُّوا منه ، وقد كان أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحبشية تُرَضِّع ولداً له ، فرأى ذلك غصّة عند موته في حلقه ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرَى^(٢) إليهم منه ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمَصَّر الأمصار ، وخَاطَ الشدة باللين ، فحَسَرَ عن ذراعيه ، وشَمَّرَ عن ساقيه ، وأَعَدَّ للأمور أقرانها^(٣) ، وللحرب آتيا ، فلما أصابه قِن^(٤) المغيرة بن شعبه ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثَبِّتون قاتله ؟ فلما قيل له قِن المغيرة ، استهل^(٥) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفء ، فيستجِلّ دمه بما استحلّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعمًا وثمانين ألفاً ، فكسرها رباعه^(٦) ، وكَرِهَ بها كفالة أهله وولده ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلَم^(٧) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقتك ثديها ، فلما وَلِيَتْها ألقيتها حيث ألقاها الله ، فالحمد لله الذى جلا بك حَوْبَها^(٨) ، وكشف بك كُرْبَها ، امض ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحق شيء ، ولا يعزّ على الباطل شيء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلَم » سكت الناس كلهم إلا هشاماً فإنه قال : « كذبت » .

(١) البهان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

(١) الفقى من الإبل . (٢) أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب : وهو الحبل يجمع به البعيران .

(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه منك (٤) صاح .

(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالع : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلع

البعير كمنع : غمز فى مشيه . (٧) الحوية : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكُم من قوم قد غرَّهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبَهُمْ ، فخرجوا من الدنيا مُرْمِلِينَ^(١) ، لم يأخذوا المأأُحَبُّوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لِمَا كَرِهُوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا مَنْ لم يَحْمَدْهم ، وصاروا إلى من لا يَعْذِرْهم ، فانظر الذي تحبُّ أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فَقَدِّمْه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فابتغِ به البَدَلَ ، حيث يجوز البدل ، ولا تذهبن إلى سِلْعَةٍ قد بَارَتْ على غيرك ، ترجو جَوَازَها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهِّل الحِجَاب ، وانصر المظلوم ، وَرُدِّ الظالم . »

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد ابن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سِنًا ، وأفضلهم رأياً وحِلْماً ، فقام متوكِّئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ، وأثنت عليك فأحسنْتَ ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُشْذِبِهِمْ فضلك ، أفَتَأْذُنُ لي في الكلام؟ قال : تسكَّم ، قال : أفأؤجز أم أطنب ؟ قال : بل أؤجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمل : نقد زاده وافتقر . (٢) في الأملال « إسميل بن أبي الجهم » .

بالحسنَى ، وَزَيَّنَكَ بالتقوى ، وَجَمَعَ لَكَ خَيْرَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنْ لِي حَوَائِجٌ أَفَازُ كَرَهَا ؟
 قَالَ : هَاتَهَا ، قَالَ : كَثُرَتْ سَيِّئَاتِي ، وَضَعُفَتْ قَوَايَ ، وَاسْتَدْتِ حَاجَتِي ، فَإِنْ رَأَى
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجِيرَ كَسْرِي ، وَيَنْفِي فَقْرِي ، قَالَ : يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، وَمَا الَّذِي يُجِيرُ
 كَسْرَكَ ، وَيَنْفِي فَقْرَكَ ؟ قَالَ : أَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَطْرَقَ هِشَامٌ
 طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : هِيَاتِ يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، يَدُ الْمَالِ لَا يَحْتَمِلُ مَا سَأَلْتَ ! فَقَالَ : أَمَّا
 إِنْ الْأَمْرَ لَوَاحِدٍ ، وَلَسَكُنَ اللَّهُ آتَرَكَ لِمَجْلَسِكَ ، فَإِنْ تُعْطِنَا خَفَقْنَا أُذُنَيْتَ ، وَإِنْ تَمْنَعُنَا نَسْأَلُ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَا حَوَيْتَ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْعَطَاءَ مُحِبَّةً ، وَالْمَنْعَ مَبْغِضَةً ، وَلَآنَ أُحِبُّكَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبْغِضَكَ ، قَالَ : فَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَقْضِي بِهَا دَيْنًا قَدْ حُمِّ^(١) قَضَاؤُهُ ،
 وَفَدَحَنِي^(٢) حِمْلَهُ ، وَأَرْهَقَنِي^(٣) أَهْلَهُ ، قَالَ : نِعَمَ الْمَسْلُوكِ أَسْلَكْنَاهَا ، دَيْنًا قَضَيْتَ ، وَأَمَانَةً
 أُدْبِتَ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَزْوَجُ بِهَا مَنْ أَدْرَكَ مِنْ وَلَدِي ، فَأَشَدَّ بِهِمْ عَضْدِي
 وَيَكْثُرُ بِهِمْ مَدَدِي قَالَ : وَلَا بَأْسَ أَغْضَضْتَ طَرْفًا ، وَحَصَصْتَ فَرْجًا ، وَأَمَرْتَ^(٤)
 نِسْلًا ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَشْتَرِي بِهَا أَرْضًا يَعِيشُ بِهَا وَلَدِي ، وَأُسْتَعِينُ بِفَضْلِهَا
 عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِي ، وَتَسْكُونُ ذَخْرًا لِمَنْ بَعْدِي ، قَالَ : وَلَا بَأْسَ ، أُرَدْتَ ذَخْرًا ،
 وَرَجَوْتَ أَجْرًا ، وَوَصَلْتَ رَحِمًا ، قَدْ أَسْرَمْنَا لَكَ بِمَا سَأَلْتَ ، قَالَ : فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ،
 وَجَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحِمَ خَيْرًا ، وَخَرَجَ ، فَقَالَ هِشَامٌ : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
 أَلْطَفَ فِي سَوَالٍ ، وَلَا أَرْفَقَ فِي مَقَالٍ مِنْ هَذَا ، هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْقُرْشِيُّ ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ
 الْحَقَّ إِذَا نَزَلَ ، وَنَسْكَرُهُ الْإِسْرَافَ وَالْبَخْلَ ، وَمَا نُعْطِي تَبْذِيرًا ، وَلَا نَمْنَعُ تَقْتِيرًا ،
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَزَانُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَإِنْ أُذِنَ أَعْطَيْنَا ، وَإِذَا مَنَعَ أَبَيْدْنَا ؛
 وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَائِلٍ يَصْدُقُ ، وَكُلُّ سَائِلٍ يَسْتَحِقُّ ، مَا جَبَّهْنَا^(٥) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ،
 فَسَأَلَ الَّذِي بِيَدِهِ مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجَرِّبَهُ عَلَى أَيْدِينَا ، فَإِنَّا نَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلني . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على

حالات يطيقة . (٤) كثرت . (٥) جبهه كمنه : اقيه بما يكره .

وَيَقْدِرُ^(١)، إِنَّهُ كَانَ بَعِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تكلمت فأبأنت ، وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

(صحيح الأعمش ١ : ٢٦٤ ، والأما ١ : ١٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدهن ، وذلك في عام باكرٍ وَنَمِيهِ ، وتتابع وليه^(٢) ، وأخذت الأرض زُخْرُفًا ، فهي كالزُرْبِ^(٣) المَبْثُوثَةِ ، والقِبَاطِي^(٤) المنشورة ، وَثَرَاها كالـكافور ، لو وُضِعَتْ به بَضْمَةٌ^(٥) لم تُتَرَبْ^(٦) ، وقد ضُرِبَتْ له سُرَادِقَاتُ حَبَرٍ^(٧) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلألاً كالعَقِيَانِ^(٨) ، فأرسل إليّ ، فدخلت عليه ، ولم أنزل واقفًا ، ثم نظر إليّ كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمَّ الله عليك نِعَمَهُ ، ودفع عنك نِقَمَهُ ، وجعل ما قلّدتك من هذا الأمر رُشْدًا ، وعاقبة ما يثول إليه حَخدًا ، وأخلصه لك بالثَقَى ، وكثره لك بالَمَاءِ ، ولا كدّر عليك منه ما صَفَا ، ولا خالط سُرُورَهُ بِالرَّدَى ، فلقد أصبحت للمؤمنين نِقةً ومُسْتَرَاحًا ، إليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مَقَامٌ رَبَّنَ الله به ذِكْرِي ، وأطاب به نَشْرِي^(٩) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئًا هو أفضل من أن أنبّه أمير المؤمنين لأفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ،

(١) يقبض ويقبض . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض ، والولى :

المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زرب بالسكسر ويضم : الفارق والبسط ، أو كل ما يسط واتى عليه

(والفارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطى بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطى بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل في مصر .

(٥) البضمة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أثره وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبه : ضرب من برود اليمن . (٨) العقيان : الذهب .

(٩) النشر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء، أحضر من حديث سلف الملك من ملوك العجم، إن أذن لي فيه حديثه به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاه^(١) السن، وصحة الطباع، وسعة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنق، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرايت ما يجمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إليّ، وكذلك يزول عنى، قال: فسررت بشيء تذهب لذته، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلاً، وتترهن به طويلاً؟ فسكى وقال: أين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً^(٢)، ثم تلحق بجبل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإلى إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لا موت، وشباب لا بهرَم، وصحة لا تسقم، وملك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحر فافزع على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يُعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رقيقاً لا يخالف، ففرع عليه عند السحر بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهياً للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما»، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكرتُ ربَّ الخوزنقِ إذا أصبح يوماً ولهدى تفكيرُ

سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(٣)

فارعوى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٤)

فبكي هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شراً، دعاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاه كماء: الشباب. (٢) الأمساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان.

(٣) معرضاً: من معرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) الغبطة: المسرة.

لتحدثه وتُلهيه ، وقد عرفت علته ، فإزدت على أن نعتت إليه نفسه ، فأقت أيا ما أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذن لك في الانصراف .

(ميوذ الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ — خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لِشَيْبَةَ بنِ عِقَال — وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير — ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائهم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال شيبه : « أما جرير فيغترف من بحر ، وأما الفرزدق فينبحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئا تحصله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهم ، فقال :

« أما أعظمهم فخرا ، وأبدم ذكرأ ، وأحسنهم عُذرا ، وأسيرهم مثلا ، وأقلهم غزلا ، وأحلام عيلا ، الطائي إذا زخر ، والحامي إذا زار^(١) ، والسامي إذا خطر ، الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتا ، وأمدحهم بيتا ، وأقلهم قوتا ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحرا ، وأرقهم شعرا ، وأهتكم لعدوه سترأ ، الأغرأ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يباحق ، فجير ، وكلهم ذكي الفؤاد ، رفيع العباد ، واري الزناد » .

فقال له مسعدة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ، واشهد أنك أحسنهم وصفا ، وألينهم عطفًا ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمه ، وأجزل لديكم قيسمه ، وآنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الآداب : « إذا زعر » .

وفرج بكم السكرية ، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس ، جواد في المجل^(١) ، بسم في البذل ، حليم عند الطيش ، في ذروة قر يش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتهلكك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسلّمت منهم » .

(الأغاف ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ — خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبي بردة^(٢) جلدًا حين أبتلي ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدوّ الله بلالاً ضربني وحبسنى ، ولم أفارق جماعة ، ولا خلعتُ يدًا من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهذّ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفًا بالشريف ، مظهرًا للمصيبة^(٣) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلت على بثلاث ، هن معك على ، الأمير مقبل عليك ، وهو عنى معرض ؛ وأنت مطلق ، وأنا مأسور ؛ وأنت في طينتك وأنا غريب » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلال خالدًا في ولايته ، أن بلالًا مرّ بخالد في مؤكب عظيم ، فقال خالد : سحابة صيف عن قليل تقشع^(٤) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب^(٥) بردي ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

(١) القحط والجذب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشمري .

(٣) وكان أصله من العرب البياضين . (٤) تنكشف وتنفق . (٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكمي : مبدئُ الحمد ومبتدئُ الحمد ، الذي خصَّ بالحمد نفسه ، وأمرَ به ملائكتُه ، جملة فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنَّته ، أحمدُه حمدَ من عِلِمَ يقينًا ، وأبصر مُستبينًا ، وأشهد له بما شهد به لنفسه « قائمًا بِالْفِسطِ »^(١) وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده العربي ، ورسوله الأتّي ، أرسله والناس في هفوات حيرة ، ومُدْهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند استمرار أبهة^(٢) الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصَحَ لأمتِه ، وجاهد في سبيله ، وعبدَ ربه ، حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إني يا أمير المؤمنين ، نهتُ في حيرة ، وحِرتُ في سكرة ، اذْلَامُ^(٣) بي خطرُها ، وأهاب^(٤) بي داعيها ، وأجاني غاويها ، فاقطوطيني^(٥) إلى الضلالة ، وتسكمت^(٦) في الظلمة والجهالة ، جائرًا عن الحق ، قائلًا بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ^(٧) ، ومنطقُ التائب ، ومُبْصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أفْلَظْ عثرته ، ومجتَرِمِ^(٨) عفوتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه السكيت - وَيَحْك ! مَنْ سَنَّا لك الفَوَاية ، وأهاب بك في العماية^(٩) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فَلَمْسِي وَلَمْ يَحْذُ لَهُ عَزْمًا ، وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارَتْ سحابًا متفرقًا ، فَلَفَقَتْ^(١٠) بعضه إلى بعض ، حتى التحم فاستحكم هذرُ^(١١) رَعْدِهِ ، وتلاوُ برقه ، فنزل الأرضَ فَرَوِيَتْ ، واخْضَلَتْ^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأبهة : المغلظة والبهجة والسكبر . (٣) اذْلَامُ الليل : ادلهم أى اسود وأظلم ، وفي الأصل « اذْلَامُ » وهو تصحيف . (٤) أى دعاني ؛ وفي الأصل « وأهب » وهو تحريف ، ويقال أيضًا هببت به أى دعوته لينزو) . (٥) اقطوطيني : قارب في مشيه إسرانا . (٦) تسكمت : مشى مشيًا متعسفًا لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجئ : المستجير . (٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) (من لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما . (١١) من هذر البعير كضرب هذرا وهذيرا : صوت ؛ وفي الأصل « هذار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرَّت ، وأسقيت ، فرَوَى ظمآنُها ، وامتلاً عطشانُها ، فكذلك نَعُدُّكَ أنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الدَّاجِيَّة^(١) بعد العُموس^(٢) فيها ، وحقن بك دماء قوم أشعرَ خوفُك قلوبَهم^(٣) ، فهم يبكون لما يعلمون من حَزْمِكَ وبصيرتك ، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرتِ الحَدَقُ ، وعَضَّتِ المَفَاوِيرُ^(٤) بالهَامِ ، عزَّ بأسُك ، واستربط جَأَشُك^(٥) ، مِسْعَارُ هَتَّانِ ، وكَافُ^(٦) بَصِيرِ بالأعداء ، مُغْرِي الخيل بالنِّكْرَاءِ^(٧) ، مستغنٍ برأيه عن رأى ذرى الألباب ، برأى أريب ، وحِمْ مصيب فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، ونمَّ عليه النِّعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام وأمر له بجائزته .

وروى صاحب الأغاني خطبة السكيت^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) في الأصل : « الفموس » بالغين ؛ وهو تحريف ، والصواب « العموس » من عمس ككرم وفرح عماسة وعموسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف والهم قلبي : لزق به ، وكل ما ألزقته بئىء : أشعرته به . (٤) المغفر كنبر ، وبهاء ؛ وكسكتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ؛ أو حلق يتقنع بها المتسلح . (٥) أى صار رابطا من ربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه . (٦) فلان مسعر حرب ومسعر : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان : هطال ، وكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر الشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على السكيت : أن حكيم بن عباس الكلبي كان ولعا بهجاء مضر والسكيت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوهم ويحييهم ، وكان السكيت يقول هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يعنى - محسن إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك فحمى السكيت لشعرته ؛ فقال قصيدته الملهبة ؛ وبلغ ذلك خالدا فقال والله لأقتله ، ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن ؛ وتخبرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى قصائد قلها السكيت فى مدح بنى هاشم ، وكان معروفا بالتشيع لهم مشهورا بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد شعره ومختاره وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشترأهن جميعا ، فلما أنسى بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدن الشعر ، فأنشدن قصائد السكيت الهاشميات ؛ فقال : ويلسكن ! من قائل هذا الشعر ؟ قلن السكيت بن زيد الأسدى ، قال وفى أى بلد =

حَدِّدَ اللَّهُ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَى عَلَى نَبِيهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدَ : فَإِنِّي كُنْتُ أَتَدَهْدِي ، فِي غَمْرَةٍ ^(١) ، وَأَعُومُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْفَى عَلَى خَطْلُهَا ، وَاسْتَفْزَنِي وَهْلُهَا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّكْتُ فِي الْجَهْلَةِ ، مُهْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَفُوءُ بِالْبَهْتَانِ وَبِالْأَلَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ ، مُبْصِرِ الْهَدْيِ ، وَرَافِضِ الْعَمَايَةِ ، فَاعْسِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالتَّوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزُّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِمَةِ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَائِلَكُمْ لَمَّا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِعَاثَرُهُ ^(٥)
وَعَفَرْتُمْ لِدَوَى الذَّنْوِ بِنِ الْكَابَرِ وَالْأَصَاغِرِ

== هو ؟ قلن : في العراق ثم في السكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس الكميت ، فبعث إليه خالد في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذ أمر الخليفة فيه ، وأعمل الكميت الحيلة في الفرار ، فبعث إلى زوجته حبس (بضم ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها ، وتقمقبت ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكرا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد ، ومازال يسير حتى بلغ الشام ؛ واستجار بمسلمة بن عبيد الملك ، فأجاره واحتال له في عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشيابك . ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متظننا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يحار من كان إلا الكميت فإنه لا جوار له ، فقيس : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحصار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستمر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حفظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ؛ ولانفضحنا فيمن استجار به ، فيسكن هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على الكميت ؛ فقال له : يا كيت : أنت القاتل كذا وكذا - بما أورده في هاشمياته - فقال : لا والله ؛ ولا أتان من أذن الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستعطفه ، فمعا عنه وأجاره ، وتوفي الكميت سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتدهى : دحرجه ، كدهده ، والغمرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضعف والفرع . (٣) الحوبة : الإثم . (٤) الجريمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعاثر : لما لك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَلْتِي لِكُلِّ مُلْكَةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادِينُ الْخَلَا فَرَّ كَأَبْرَأَ مِنْ بَعْدِ كَأَبْرَأَ
بِالتَّسْنَةِ الْمُقْتَابِعِينَ خَلَاءَ نَفَاً وَبَخِيرَ عَاشِرَ^(١)
وإلى القيامة لا تَزَا لُ إِشَافِعِ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته^(٢) ،
ومَنَاطُ الْمُتَجَمِّعِينَ بِحَبْلِهِ ، مَنْ لَا تُحْلُ حُبُوتُهُ لِإِسَاءَةِ الْمُذْنِبِينَ ، فَضْلاً عَنْ اسْتِشْطَاقِهِ غَضْبِهِ
بِجَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَيْلَكَ يَا كَمِيتُ ! مِنْ زَيْنَ لَكَ الْغَوَايَةِ ، وَدَلَالِكَ فِي الْعَمَايَةِ ؟
قَالَ : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ الْعَهْدَ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزَماً » فَرَضَى عَنْهُ ، وَأَمَرَ
لَهُ بِجَازَةٍ . (العقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ — مخاصمة عدى بن أرطاة لأمراءه عند شريح القاضي

دَخَلَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ عَلَى شُرَيْحٍ^(٣) الْقَاضِيِ يَخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ،
قَالَ : وَعَلَيْكُمْ ، قَالَ : اسْتَمِعْ مِنِّي ، قَالَ : قُلْ أَسْمَعْ ، قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّأْمِ ،
قَالَ : مِنْ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بِلَدِكُمْ هَذَا ، قَالَ : خَيْرَ مَقْدَمٍ ، قَالَ :
وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ، قَالَ : بِالرِّفَاءِ^(٤) وَالْبَنِينَ ، قَالَ : وَإِنِّهَا وَلَدَتْ غُلَامًا ، قَالَ :
لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرِطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا ، قَالَ : الشَّرْطُ أُمْلَكُ ، قَالَ :

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة : الجمال ، صبح كسكرم فهو صبيح .

(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكندی ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضياً نحساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

(٤) أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفاً الثوب كنع : لأم خرقه ، وعصم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال :
قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمت ؟ قال : على ابن أُمِّك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة
ابن أُختِ خالتك . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، و بنو أمية في ميراث بينهم
عن سُفيان بن عمرو بن عُتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين
بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعمر ، فقال :
« يَا بَنِيَّ : إن لقريشَ دَرَجًا تزلُّ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تحشعُ لها رقابُ
الأموال ، وغاياتٍ تقصرُ عنها الجيادُ المسومة ^(١) ، وألسناً تكِلُّ عنها الشُّفار المشحودة
ولو اختلفت الدنيا ما تزيّنت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بِسَمَةِ أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيل إلى أنَّ منهم ناساً تخلّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رِفَق في اللؤم ، وخرق ^(٢)
في الحرص ، ولوا مكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً تعجلوا له
الفقر ، وإن عجّلت لهم نعمةٌ أخروا عليها الشكر ، أولئك انضاء ^(٣) الفـكـر ، وعجزة
حَمَلَةِ الشكر » . (الأمالى ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفرید ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : الموصلة وعليها ركبائها ، أو المعلقة ، أى التى جعل عليها سومة (بالضم) أى سمة
وعلامه ، أو المرعية . (٢) كقفل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .
(٣) جمع نضو كحمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِمَاك بن عبيد العباسي في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها
يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخروج - فنسبت إليه ماء .
وكان يواصل سِمَاكا ويهدي له ويوافي الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة
فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :
« يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بذا ، كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك
زمان عمر وعثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب^(١) وغدر وضيق ،
ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتمكم فإذا ذلك في مولدكم ، فعلت من أين أتيتم ،
فإذا الحب من قبل القبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق
من قبل الأهواز » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلّ ، وتَجَبُرُ ما انقلّ ،
وَتُسَكِّرُ ما بقلّ ، ففضلك بديع ، ورأيك بجميع ، تحفظ ما شذّ ، وتؤلف ما ندّ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الحب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِنْ أَرْتَثَ^(١) يَوْمَ النَّهْرَوَانِ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعَاءَةِ الَّذِينَ كَانَ عَفَا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَضَيْنِ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَيْثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رِجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أَوْلَئِكَ ، وَكَانُوا بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَعَدَ لِقَتْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْبَاشِ^(٢) الصَّبِيحِ ، مُقَابِلَ السُّدَّةِ^(٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمُ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبِيحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ » .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعِ اللَّهُ يَمِينًا عَظَمَتْ قَدَالَهُ^(٤) بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رِضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحْمَهُمْ ،
ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) أَرْتَثَ : حَمْلٌ مِنَ الْمَعْرَكَةِ رَثِيثًا ، أَيْ جَرِيحًا وَبِهِ رَمَقٌ . (٢) أَغْبَاشُ جَمْعُ غَبْشٍ بِالتَّحْرِيكِ :

وَهُوَ ظِلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ . (٣) السُّدَّةُ : بَابُ الدَّارِ ، وَهِيَ هُنَا مَا يَبْقَى مِنَ الطَّاقِ الْمَسْدُودِ .

(٤) الْقَدَالُ : جَمَاعٌ مَوْخَرُ الرُّأْسِ .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسُّنُونُ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذَيِّقَهُ الموتَ ، فيفارقَ الإخوان الصالحينَ ، ويدَعَ الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجَزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمًّا وشَجَنًا^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُمُ اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُدْرَ لنا في القعود ، ولأننا ظالِمَةٌ ، وَسُنَّةُ الهُدَى متروكة ، وَثَارُنَا^(٢) الذين قَتَلُوا إخواننا في المجالس آمِنون ، فإن يُظْفِرَنا اللهُ بهم نَعْمِدُ بِمَدِّ إلى التي هي أهدى وأرْضَى وأقوَمُ ، وَبِشْفَى اللهُ بِذلك صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وإن نُقْتَلَ فإن في مفارقة الظالمين راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أُسوة » .

فقالوا له : كُلُّنا قائلٌ ما ذَكَرْتَ ، وحامدٌ رَأَيْكَ الذي رأيتَ ، فَرِدْ بنا المِصْرَ ، فإننا معك راضون بِهَذاكَ وأمرِكَ ، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاوية ، وبعث المغيرة بن شُعْبَةَ والياً على الكوفة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) الثَّار : قاتل حميمك .

(١) الشَّجَن : الهم والحزن .

ائتمار الخوارج

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المستورد بن علفة التميمي ، وحيان بن ظبيان السلمي ، ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي ، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيمن يؤثون عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفة

« يا أيها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحبثون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، ولوا عليكم من أحببتهم ، فوالذي يعلم خائفة الأعين^(١) وما تخفي الصدور ، ما أبالي من كان الوالي على منكم ، وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود . »

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لي فيها ، وأنا بك وبكل امرئ من إخواني راض ، فانظروا من شئتم منكم فسمّوه ، فأنا أول من يبايعه . »

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قاتما أنتما هذا ، وأنتما سيدا المسلمين ، وذوّا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً ^(١) بما محمل ، وأنتما بحمد الله ممن يرزى لهذا الأمر ، فليتوّله أحدكما » :

قالا : فتوّله أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنتما أسن مني ، فليتوّله أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فلوثوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقّاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم
وَنَمَى إِلَى الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الْخَوَارِجَ خَارِجَةٌ عَلَيْهِ ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ إسْفَهائِكُمْ ، فأما الخُلَمَاءُ الْأَتَقِيَاءُ فَلَا ، وإيْمُ اللَّهِ لقد خشيتُ أن لا أجدُ بدءاً من أن يُعَصَّبَ الْحَلِيمُ الْتَقَى ، بِذَنْبٍ

(١) أي قوة على حمله .

السفيه الجاهل ، فكفّوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشمات والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حَيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحوّأنّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تذكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لأيمّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر » .

فخرجت الرؤساء إلى عشائرم ، فنادى الله والإسلام إلا دأوم على من يزّون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عيد القيس ، فقال :

١٧٤ — خطبة صعصعة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله — وله الحمد كثيراً — لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورؤسله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فبنت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلت المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وطى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فمالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١) ، وقالت

(١) أي معاوية ، وكان والياً على الشام ، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم ، وبمن كان على مثل هذاكم ورأيكم . لنا كثرين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر ، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلاطنتهم) ، ولا قوم أعدى لله وأسىكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجاعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤثروهم في دُوركم ، أو تكتنوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد وألله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حُكِّي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يامعشر عبد القيس : إن ولاننا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبه في الناس ، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشايرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه المغيرة لقتالهم مَعْقِل بن قيس ارياحي فلما علم المستورد مَسِير مَعْقِل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

لحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف مَعْقِل بن قيس قد وُجِّه إليكم ، وهو من السَّبْيَةِ^(١) المعتَرين الكاذبين ، وهو الله ولـكم عدو ، فأشيروا على برايكم » . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهادَ مَنْ عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتنحَّى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذِكْرُها ، ولا فخرُها ، ولا البقاء ، وما أُحِبُّ آتِها لي بخذايرها ، وأضعاف ما يُتَنَافَسُ فيه منها ، بِقَبَالِ^(٢) تَعْلَى ، وما خرجت إلا التماسَ الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لأقيم لهم حتى يَقْدَمُوا عَلَيَّ ، وهم حامُونَ متوافرون ، ولـكن رأيت أن أسير حتى أُمِينَ ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، ففقطعوا وتبددوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل » .

(١) السَّبْيَةُ : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وغلا في على ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى على فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شيانة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما بلغه مقتل على قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبال التعل : زمام بين الأصبع الوسطى والى قلبها .

فخرجوا فمضوا على شاطئ دجلة ، فعبروها ومضوا في أرض جَوْحَى ، حتى بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمداين ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :
(تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤١٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تقعبلوا في آثارهم ، ففتنطعموا وتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تبعتم ونصبتهم ^(١) ، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين . ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للمبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمّ الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشدّ أصحابه على الخوارج ، فما لبثوهم أن قتلوهم .
(تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤٢٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسِرِّي إلى صديقي فأفشاء لم أُلْمُه ، لأنّي كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تنفّس إلى أحدٍ سرّاً وإن كان مخلصاً إلا على جهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سِرِّ صاحبك ، منك على حقن دمك ، ويقول : أوّل ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب . ولا يعيب إلا عيباً ، ويقول : المال غير باقي عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال في حقّه استدعاء للزيد من الجواد ^(٢) ، وكان يُكثّر أن يقول : لو ملكت الأرض بمخذافيها ، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٣)

اثمار الخوارج ثانية

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّلَمِيُّ أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لهم :
« أما بعد ، فإن الله عزَّ وجلَّ كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مِنَّا مَنْ ينتظر فهو من سَلَفْنَا المَاضِينَ نَحْبَهُم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الْإِسْلَام : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جهادَ الظَّلمَةِ ، وإنكارَ الجورِ ، كان لنا به عند الله عُذْرٌ ، لكان تركه أيسرَ علينا وأخفَ من ركوبه ، ولـكنا قد علمنا واستيقنا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوبَ والأسماعَ ، حتى نُنْكِرَ الظلمَ ، ونغيِّرَ الجورَ ، ونجاهدَ الظالمين » . ثم قال أبسط يديك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضرَبوا على يد حَيَّانَ فبايعوه ، وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان التَّمَمِي ^(٢) .

* * *

(١) النحب : الأجل والنذر . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُماذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأسرونني أن أخرج ؟ فقال مُماذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى ننزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المصر والشَّعر
— يعني بالشَّعر ارمي — فمن كان يرى رأينا من أهل المصر والشَّعر والجبال والسَّواد^(٢)
لحق بنا .

٤٢٣ — رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُمَاجِلُكَ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لَعَمْرِي لَا يَتْرَكُونَكَ
حَتَّى يَجْتَمِعُوا إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُخْرَجَ مَعَكُمْ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَالسَّيْحَةِ ،
أَوْ زُرَّارَةَ^(٣) وَالْحَبِيرَةَ ، ثُمَّ نَقَاتْلَهُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِرَبِّهَا ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ
— وَأَنْتُمْ دُونَ الْمِائَةِ رَجُلٍ — أَنْ تَهْزِمُوا عَدُوَّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَشْتَدَّ نَكَابَتُكُمْ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ
مَتَى عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ قَدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ ، كَانَ لَكُمْ بِهِ الْعُذْرُ ،
وَخَرَجْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ » قَالُوا : رَأَيْنَا رَأْيَكَ .

٤٣٤ — مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : وَلَكِنْ لَا أَرَى رَأْيَ جَمَاعَتِكُمْ ، فَانظُرُوا فِي رَأْيِ
لَكُمْ ، إِنِّي لَا إِخَالَكُمْ تَجْهَلُونَ مَعْرِفَتِي بِالْحَرْبِ ، وَتَجْرِبَتِي لِلْأُمُورِ ، قَالُوا لَهُ : أَجَلٌ ،
أَنْتَ كَمَا ذَكَرْتَ ، فَمَا رَأْيُكَ ؟ قَالَ : مَا أَرَى أَنْ تَخْرُجُوا عَلَى النَّاسِ بِالْمِصْرَ ، إِنَّكُمْ قَلِيلٌ
فِي كَثِيرٍ ، وَاللَّهِ مَا تَزِيدُونَ عَلَى أَنْ تَحْزِرُوهُمْ^(٤) أَنْفُسَكُمْ ، وَتَقْرَأُوا أَعْيُنَهُمْ بِقَتْلِكُمْ ،
وَلَيْسَ هَكَذَا تَكُونُ الْمُسَايِدَةُ ، إِذَا آتَرْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا عَلَى قَوْمِكُمْ ، فَكِيدُوا عَدُوَّكُمْ

(١) بلد بفارس . (٢) أي سواد العراق . (٣) محلة بالكوفة . (٤) أي تملكونهم .

ما يضرهم» قالوا : فما رأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها مُعَاذِ ابنِ جُوَيْنٍ ، بمعنى حُلُوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمَر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أَتَوْنا من كل جانب وأوب^(١) .

٤٢٥ - رد حيان

فقال له حيان : « إياك والله لو سِرْتُ بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمأنتم به حتى يَلْحَقَ بكم خيول أهل مصر ، فأني تَشْفُون أنفسكم ؟ فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مِصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله مَنْ خالف طاعة الله ، ولا تَرَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجفة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنه » قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم تَخِيرٍ ، وعلى خيرٍ ، والله الذي لا إله غيره ، ما سُررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسلمتُ سروري لمخرجي هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا يحذاقيرها لي ، وأن الله حرَمني في مخرجي هذا الشهادة ، وإنني قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأجزاء ناجزتموم .

فقال عتريس بن عُرقوب : أئما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصعد النساء والصبيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ — خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السواد ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكروا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ايلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم فاختر لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعه .

(١) بانقياً : ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قدمنا لك في «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ماسمعوهم منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه ف قيل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عودا ، وأكثرها هدداً وأحفلها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامْتِيَار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأُحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفُهُم ورماحُهُم ،
فن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .
فلما صاروا « بِدُوْلَابَ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في المعركة
ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ : (الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

(١) أى لطلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهى الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وَكَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ - وَهُوَ عَلَى قِتَالِ الْأَزَارِقَةِ - يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالتَّحَرُّزِ وَيُخَوِّفُهُمُ الْبَيَّاتَ ، وَإِنْ بَعْدَ مِنْهُمْ الْعُدُوْ ، وَيَقُولُ : « اجْذُرُوا أَنْ تُسْكَدُوا كَمَا تُسْكَدُونَ ، وَلَا تَقُولُوا هَزَمْنَا وَغَلَبْنَا . فَإِنَّ الْقَوْمَ خَائِفُونَ وَجِلُونَ ، وَالضَّرُورَةُ تَفْتَحُ بَابَ الْحِيلَةِ ، ثُمَّ قَامَ فِيهِمْ خُطِيبًا فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ مَذْهَبَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ ، وَأَنْهُمْ إِنْ قَدَّرُوا عَلَيَّكُمْ فَتَنَوْكُمْ فِي دِينِكُمْ ، وَسَفَكُوا دِمَاءَكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ أَوْ لَهْمُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ لَاقَيْهِمْ قَبْلَكُمْ الصَّابِرُ الْحُتَيْبُ بْنُ مُسْلِمٍ ، وَالْعَجَلُ الْمُرْطُ عُثْمَانُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ ^(١) ، وَالْمَعْصِيُّ الْمُخَالَفُ

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر للنزى ولاء ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفا ، فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتعدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيت أهل العراق إلا جئنا ؛ وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلا ، وانهمز الناس ، وولى حربهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضا ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثل ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فاقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، فأتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفا شديدا ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا وَقَتَلُوا ، فَأَلْفَوْهُمْ بِحِدِّ وَحَدٍّ فَإِنَّمَا هُمْ مَهْنَتُكُمْ^(١) وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويَطْلُؤُوا حَرَبَكُمْ .
(الكامل للبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، واهزم الناس بسُؤْلَاف فقال :

« وَاللَّهِ مَا بَكُمْ مِنْ قِلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَبَنِ وَالضَّعْفِ ، وَالطَّمَعِ وَالطَّيْعِ^(٢) فَإِنْ يَمَسَّنْكُمْ قَرْحٌ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ » .
(الكامل للبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٣٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدةً منكراً ، فأَجَلَّ الناس ، وانصأوا^(٤) منهزمين ، لَا تَلْوِي^(٥) أُمٌّ عَلَى وَلَدٍ ، حَتَّى بَاغَ الْبَصْرَةَ هَزِيمَةُ النَّاسِ ! وَخَافُوا السَّيِّئَ^(٦) ، وَأَسْرَعَ الْمُهَلَّبُ حَتَّى سَبَقَهُمْ إِلَى مَكَانِ يَفَاعٍ^(٧) ، فِي جَانِبِ عَنْ سَنَنِ الْمُنْهَزِمِينَ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَادَى النَّاسَ : إِلَىَّ إِلَىَّ عِبَادَ اللَّهِ ، فَتَابَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى مَنْ قَدْ اجْتَمَعَ رَضِيَ جَمَاعَتَهُمْ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جمع ما هن ، وهو العبد والخدام . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويضم : عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالنهم : الألم . (٤) انصاع : انفتل راجعاً مصرعاً . (٥) مر لايلوى على أحد : أى لايقف ولاينتظر . (٦) السبى . (٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيَهْزَمُونَ ، ويُنزِل النصر على الجمع اليسير فيَظْهَرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قِلَّة ، إني لجماعةكم لراض ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفُرسان أهل المِضر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصَنَّب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّة ورحمة ، وابن كبيركم : طاعة وبراً وتبجيلاً ، وأخو مثلي : مؤساةً ومناصحةً ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، ولتيلن له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنِي إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

(١) فساد . (٢) وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا نحال فيها حجارة ،

وارموا بها في وقت الغفلة ، قلنها تصد الفارس ، وتعصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج :

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال وبحك بالحجر ؟

٤٣٢ — خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ،
 وقتل ابن الماحوز يوم سلى وسلبرى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا
 الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيّناً ، فقال لهم : اجتمعوا .
 فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :
 « إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ،
 وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فصار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم
 ابن عبيس ، وربيعاً الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحاتنة بن بدر ، وأشجيتهم
 المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إِنْ يَمْسَسْكُمْ
 قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فيوم سلى
 كان لكم بلاء وتمحيصاً ، ويوم سُولَاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغَايِبَنَّ على
 الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثِقُوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .
 (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٨)

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ،
 وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبتم فأمركم الربيع بن عمرو
 الأجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها
 الحجاج بن باب الحميري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبي
 فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تبرى ؛ وبها المعارك
 ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصابوه ، فغنى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزه
 ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :
 وكانن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعَتَابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجُهد الشديد ، دعا أصحابه ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجُهد ما قد تَرَوْنَ ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحَرْى أن يَضْمَفَ عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فانقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانقصتم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشي إلى عدوه من الجُهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتته ، فقاتل رَجُلٌ عن نفسه وَصَبَرَ وَصَدَقَ ، فوالله إنى لأرجو إن صدقتموم أن يُظفركم الله بهم ، وأن يُظهركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارئون ، فلم يشعروا بهم حتى غَشَوْهم ، فقاتلوهم بجِدٍّ لم ير الخوارج منهم مثله ، فَمَقَرُوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أسرم بينهم ، فولّوا عليهم قَطْرِيّ بن الفُجَاءة المازنيّ وبايعوه (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

(١) أصبهان : بفتح الهمزة والباء ، وقد تكسر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا قافية .

٤٣٤ - نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَشِطُّ^(٣) بقرش منهم رَجِمُ داسَّةٌ ماسَّةٌ ، وإن الأزارقة ذوَّبان العرب وسباعُها ، وليس صاحبهم إلاَّ المُباكرُ المُناكرُ ، المُجَرَّبُ^(٤) المُجَرَّبُ ، الذى أَرْضَعَتْهُ الحربُ بِلِبايَها ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وذلك أخو الأزدِ المهلب بن أبى صُفْرة ، والله إن غَنَّاكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِيئته ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهر وغدره ، وليس المُجَرَّبُ كَمَنْ لَا يُعْلَمُ ، ولا الناصح المشفق ، كالغاشِ المُتَّهَمِ » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأحدوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَمَّا .

(ذيل الأمالى ص ٣٣)

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٣) .

(٢) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهرا ، ثم عد لفارس ، وخرج خاله إلى الأهواز ، وتذب للناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز فى ثلاثانة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال : فناداهم عبد العزيز ، فوافقوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبئة فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبه ، فافتحمها وراهم ، والناس يهونونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا » . (٣) أصله من أط الرحل أطيطا : صوت .

(٤) من حرب السنن : حدده . (٥) التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريسا :

جربته وأحكته أيضا . (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص من سبيهن ، قال ابن عبد ربه فى المقد لأفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها »

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطريُّ بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني أحذركم الدنيا ، فإنها حُلوة خِصْرة^(٢) ، حُفَّت^(٣) بالشهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وَتَحَبَّبَتْ بالعاجلة^(٥) ، وَحَلَّيْتُ^(٦) بالآمال ، وتزيَّنت بالغرور ، لا تدوم حَبْرَتُهَا^(٧) ، ولا تُؤْمَنُ فِجْجَتُهَا ، غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، خَوَّانَةٌ غَدَّارَةٌ ، وَحَائِلَةٌ^(٨) زائِلَةٌ ، ونافذة^(٩) بائِدة ، أَكْثَالَةٌ غَوَّالَةٌ^(١٠) ، بَدَّالَةٌ نَقَّالَةٌ ، لَا تَعْدُو إِذَا هِيَ تَنَاهَتْ إِلَى أَمْنِيَّةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنْ

= في السوق حاضرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين : فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت هؤلاء قد تنازعوا عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واهمرت الحلق ؛ فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا في جنب ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هيئة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابها » ١ هـ .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام علي كرم الله وجهه وكذلك القاضي في دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ؛ ورواها لقطري بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموفى لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمر المؤمنين عليه السلام وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس بعيد عني أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم » .

(٢) أي ناضرة ، من خضر الزرع كقروح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها بمجامع قليل ليس بدائم . (٥) أي وتحببت إليهم بالذلة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حلّيت المرأة فهي حال وحالية كتحلّت . وفي رواية : « وتحلّت » . (٧) الخبرة : المرور . وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ؛ لاتقوم : لاتثبت . والنصرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خائلة » أي محاددة . (٩) أي هالكة فانية من نفد ينفد كقروح . (١٠) أي مهلكة من غاله يفوله .

السَّمَاءَ ، فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ، مع أن اسماً لم يكن منها في حبرة ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عِبْرَةٌ ، ولم يَلْقَ من سَرَّأُهَا بَطْناً ، إِلَّا مَنَحَتْهُ من ضَرَّأُهَا ظَهْراً^(٢) ، ولم تَطْلُ غَيْشَةً^(٣) رخاء ، إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عليه مَزْنَةٌ بَلَاءَ ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ له مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُنْسِيَ له خَاذِلَةً مُتَسَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اغْدَوْذَبَ وَاحْطَوَى^(٥) ، أَمَرَ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى^(٦) ، وَإِنْ أَنْتِ اسْمُ مِنْ غَضَارَتِهَا^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ من نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَمْ يُنْسِ اسْمُ مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ^(٨) خَوْفٍ ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، قَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا الْقَوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْرَمَ ، يَوْمُهُ ، وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهُ اسْتَكْرَمَ مِمَّا يُوبِقُهُ^(٩) ، وَبُطِيلُ حَزْنُهُ ، وَبُيْبُكِ مِغْنِيهِ ، كَمْ وَائِيٌّ بِهَا قَدْ فَجَعَمَتْهُ ، وَذَى طَمَأْنِينَةً إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ^(١٠) ، وَذَى اخْتِيَالٍ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ

- (١) الهشيم : ماتهشم وتحطم ، وتذروه : أى تطيه . (٢) كنى بالبطان والظهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاقى لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .
- (٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غيبة » والغيبة بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق .
- (٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس أيضاً هتنا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .
- (٥) أى صار عذاباً حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : سهل عن أوباً ، أى صار وبيثاً ، وبثت الأرض كفرج وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام . (٧) النضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية : « لا يزال امرؤ من غضارتها رغياً » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غصونها ورقاً » ، وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعماً ، أرهقته من نوائبها غماً » .
- (٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وخص الخوف بالقوادم لأنها مقاديم الريش ، والراكب عليها بمرض تسقوط قريب . (٩) يهاكك : (١٠) وفي رواية : « وذى حكم ننته إليها قد صرعت » . (١١) الاختيال : السكر والمجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة والسكر والنخوة .

ذِي أَهْمٍ فِيهَا قَدْ صَيَّرْتَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّته ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّته^(١) لِلدِّينِ وَالْفَمِ ، سُلْطَانَهَا دُولٌ ، وَعَيْشُهَا رَنْقٌ وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَحُلُوهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلَعٌ^(٤) ، حَيْثُهَا بَمَرٌ مَوْتٌ ، وَصَحْبُهَا بَمَرٌ سَقَمٌ ، وَمَنْعِيهَا بَمَرٌ اهْتِصَامٌ ، مَلِكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا مَحْزُوبٌ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوَلُ الْمُطْلَعِ ، وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْحُكْمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحَاهُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

السَّمُ فِي مَا كُنَ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعْدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْثَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ، تُعَبَّدُوا^(٧) لِلدُّنْيَا أَيْ تُعَبَّدُوا لِأَثَرِهَا أَيْ لِإِثَارِهَا وَظَهَنُوا عَنْهَا بِالسُّكْرِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لِمَنْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخَطْبٍ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ أَرْهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ^(٩) ، وَضَعَفَتْهُمْ بِالنُّوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ^(١٠) ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَفْسُكُرَهَا

(١) صرخته وقلبه . (٢) رنق الماء كفرج ونصر : كدر ، فهو رنق كمدل وكثف وجبل ، وأجاج : ملح مر ، وسام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سبب : وهو الحبل ، وريام : بالية ، حبل أرمام ، وريام : أى بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطايه ملبا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد كسكرم عتادا فهو عتيد : أى حاضر مهيا معد ، وفي رواية : « وأعند عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أى مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أى استعبدتهم الدنيا ، تعيده : اتخذ عيدا . (٨) أى بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المشقة ، من فدحه الدين إذا أثقله ، وفي رواية : « القوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأوهقتهم » أى جعلتهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالأطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية : وعقرتهم للمناخر ، ووطئتهم بالمناخم ، عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالعفر (كسب ويسكن) وهو للتراب والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكجلس : الأنف ، والمناخم جمع منخم كجلس وهو خف البعير .

لَمِنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَمَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْتَدَ^(٢) ، هَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغْبَ^(٣) ، وَأَحْلَمْتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤْتِرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فَبُنِيتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ - أَنْتُمْ تَارِكُوهَا لَا بُدَّ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٤) » ، وَانْتَعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حُلُّوْا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأَنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضِيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّرِيحِ أَكْثَانٌ ، وَمِنْ الْقَرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنْ الرِّفَاتِ جَبْرَانٌ^(٦) ، فَهَمْ حَيْرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ يَقْنَطُوا ، جُمِعَ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجَبِرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتَاعُهُمْ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ، حُلْمَتُهُمْ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْفَانُهُمْ ، وَجَهْلُهُمْ

(١) أَيْ خَضَعَ لَهَا وَذَلَّ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « لَمِنْ رَادَهَا » أَيْ طَلَبَهَا : رَدَدَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالَ .
(٢) الْمُسْتَدَ : الدَّهْرُ ، وَفِي رَوَايَةٍ « إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ » . (٣) الْجَوْعُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ » وَالضَّنْكَ : الضَّيْقُ . (٤) نَزَلَتْ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَيْ أَبْنِيَّةٌ وَقُصُورٌ يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمَبْنِيُّ مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُصُونِ . (٥) وَفِي رَوَايَةٍ « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَيْ فَلَا يَرْعَاهُمْ أَحَدٌ . (٦) الْأَكْثَانُ جَمْعُ كُنَ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ . وَالصَّرِيحُ : الْقَبْرِ أَوْ الشَّقِ وَسَطُهُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانُ » وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ جَنْنٍ كَسَبَبَ : وَهُوَ الْقَبْرِ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْمَرَاضُ ، وَالرِّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . (٧) الْمَنْدَبَةُ : النَّدْبُ هَلِ الْمَيِّتِ . (٨) وَفِي رَوَايَةٍ : « إِنْ جِيدُوا » مِنْ جَادَهُمُ الْفَيْثُ إِذَا أَمْطَرُوا . (٩) قَطَعَ النَّاسُ كَمَسَحَ ، وَقَحِطُوا وَأَقْعَطُوا مَبْنِيَيْنَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخَشَى فَجَعُهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وكما قال الله تعالى : « فَتِلْكَ مَسَاجِدُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، استبدلوا بظاهر الأرض بطنًا ، وبالسعة ضيقًا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، وفارقوها كما دخلوها ، حُفَاةَ عُرَاةٍ فُرَادَى ، غير أن ظلمنوا بأعمالهم إلى الحياء الدائمة ، وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » فاحذروا ما حذرکم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته ورزقنا وإياكم أداء حقه .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ . وصيح الأعشى ١ : ٢٢٣ . والمقد الفريد ٢ : ١٦٠ . وصيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبَّت عقاربُ الخِلاف بين الأزارقة ، وامت بهم يد الشقاق ، خلعوا قَطْرِيَّ ابن الفجاءة ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْر ، ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الوقعة عنه قتيلا ، وقد جمع أصحابه في الليلة التي قتل في صَدِيعِهَا ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إن قَطْرِيَّا وَعُيَيْدَةَ ^(٢) هَرَبَا طلبَ البقاء ، ولا سبيلَ إليه ، فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يَغْلِبَنَّكُمْ على الموت ، فتلقوا الرماحَ بنحوركم والسيوفَ بوجوهكم ، وهبُوا أنفسكم لله في الدنيا ، يَهَبَهَا لَكُمْ فِي الآخِرَةِ . »
(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة ابن هلال اليشكري من كبار الأزارقة .

٤٣٧ — خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يرى رأى الصُفَرِيَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُتَخَبِئاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بِدَارًا^(٤) وأرض المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقرّئهم القرآن ، ويفقههم وَيَقْصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لَتُبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصِّحَ الْأُمَّةَ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنُصِّرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوْفَاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغُبُ الْعَبْدَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى :

« الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشاً يقوده الحارث بن عميرة فحاربهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية الجوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة أو لخلوهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أخبت لله : خضع وتواضع . (٤) دارا : بلد بين نصيبين ومالدين من أرض الجزيرة . (٥) حَفِدَ كضرب : خف وأسرع .

وتفرَّغَ بَدَنُهُ لِعِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَثُرَتْ ذِكْرُ الْمَوْتِ تَخْفِيفَ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ، حَتَّى يَنْجَارَ^(١) إِلَيْهِ وَيَسْتَسْكِنَ لَهُ ، وَإِنْ فِرَاقُ الْفَاسِقِينَ حَقٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآ تَنُوتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وَإِنْ حُبُّ الْمُؤْمِنِينَ لَلْسَبَبُ الَّذِي يُنَالُ بِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَجَنَّتُهُ ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ ، أَلَا إِنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَمَلَّهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَزَكَاهُمْ وَطَهَّرَهُمْ ، وَفَقَّهَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رِعْوًا رَحِيمًا ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَلِيَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ التَّبَقِيُّ الصَّدِّيقُ ، عَلَى الرِّضَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَاقْتَدَى بِهَدْيِهِ ، وَاسْتَنَّا بِسُنَّتِهِ ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عَمْرَ فُلَوَاءَ اللَّهُ أَمْرَ هَذِهِ الرِّعْيَةِ ، فَعَمِلَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَحْيَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُخْنِقْ فِي الْحَقِّ عَلَى جَرِّتِهِ^(٢) ، وَلَمْ يَخْفَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا تُثْمَرُ ، حَتَّى لَحِقَ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَوَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عُمَانُ ، فَاسْتَأْثَرَ بِالْفَيْءِ ، وَعَظَلَ الْحُدُودَ ، وَجَارَ فِي الْحُكْمِ ، وَاسْتَذَلَّ الْمُؤْمِنَ ، وَعَزَّرَ الْحَرَمَ ، فَسَارَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُ ، فَبَرِيَّ اللَّهُ مِنْهُ وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ حَكَّمَ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرِّجَالَ ، وَشَكَّ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ ، وَرَكَّنَ^(٣) وَأَذْهَنَ ، فَنَحَنَ مِنْ عَلِيٍّ وَأَشْيَاعِهِ بَرَاءً ، فَتَبَسَّروا رَحِمَكُمُ اللَّهُ لَجِهَادِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الْمُنْتَحِزَةِ ، وَأُئِمَّةِ الضَّلَالِ الظَّالِمَةِ ، وَلِلْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، وَاللَّحَاقِ بِإِخْوَانِنَا الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْقِفِينَ الَّذِينَ بَاعُوا الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمُ التَّمَّاسَ رِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَلَا تَجَزَّعُوا مِنَ الْقَتْلِ فِي اللَّهِ ، فَإِنَّ الْقَتْلَ أَيْسَرُ مِنَ الْمَوْتِ ، وَالْمَوْتَ نَازِلٌ بِكُمْ — غَيْرَ مَا تَرْجُمُ الظَّنُونَ — فَفَرَّقْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَحَلَائِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ ،

(١) جَارَ إِلَيْهِ كَنَعَ : رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْإِعْدَاءِ ، وَتَضَرَّعَ وَاسْتَغَاثَ . (٢) أَحَقَّقَ الصَّلْبَ : لَزَقَ بِالطَّعْنِ . وَالْجُرَّةُ : مَا يَخْرُجُهُ الْبَعِيرُ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمْضِغُهُ ، كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ عَدَمِ إِضَاهَارِهِ الْحَقْدَ وَالِدَاغِلَ . (٣) رَكَّنَ إِلَيْهِ : مَالَ .

وإن اشتدَّ لذلك كُرْهُكُمْ وَحَزَنُكُمْ ، أَلَا فَبِيعُوا اللَّهَ أَنْفُسَكُمْ طَائِعِينَ وَأَمْوَالَكُمْ تَدْخُلُوا
الجنة آمنين ، وَتُعَانِقُوا الْحُورَ الْعِين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ،
الذين يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« ببدا أصحابُ صالحٍ يَخْتَلِفُونَ إِلَيْهِ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ : مَا أَذْرَى مَا تَنْتَظِرُونَ ؟
وحتى متى أنتم مُقِيمُونَ ؟ هَذَا الْجُورُ قَدْ فَشَا ، وَهَذَا الْعَدْلُ قَدْ عَمَا ، وَلَا تَزِدَادُ هَذِهِ
الْوَلَاةُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا غُلُوءًا وَعُتُوءًا ، وَتَبَاعُدًا عَنِ الْحَقِّ ، وَجُرْأَةً عَلَى الرَّبِّ ، فَاسْتَعِدُّوا ،
وَابْعَثُوا إِلَى إِخْوَانِكُمُ الَّذِينَ يَرِيدُونَ مِنْ إِنْكَارِ الْبَاطِلِ وَالِدَعَاءِ إِلَى الْحَقِّ ، مِثْلَ الَّذِي
تَرِيدُونَ ، فَيَأْتِيَكُمُ فَنُلْتَقِي ، وَنَنْظُرُ فِيمَا نَحْنُ صَانِعُونَ ، وَفِي أَى وَقْتٍ إِنْ خَرَجْنَا نَحْنُ
خَارِجُونَ » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، وَلَا تَعْبَجُوا إِلَى قِتَالِ أَحَدٍ مِنَ
النَّاسِ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا قَوْمًا يَرِيدُونَكُمْ وَيَنْصِبُونَ^(١) إِيَّاهُمْ ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ غَضَبًا
لِلَّهِ ، حَيْثُ أَنْتُمْ كَتَّ مَحَارِمُهُ ؟ وَعُتِيَ فِي الْأَرْضِ ، فَسُفِكَتِ الدِّمَاءُ بِغَيْرِ حِلِّهَا ، وَأُخِذَتْ
الْأَمْوَالُ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلَا تَعْيِيرُوا عَلَى قَوْمٍ أَعْمَلَانِمْ تَعْمَلُوا بِهَا ، فَإِنْ كُلُّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ ،

(١) أى يصادونكم .

أنتم عنه مسئولون ، وإن عَظَمَكم رَجَالُهُ ، وهذه دوابُّ لِحْمَدِ بنِ مروان في هذا الرُّسْتاقِ^(١) ، فابدهوا بها فشدُّوا عليها ، فاحملوا أَرْجُلَكم ، وتقوُّوا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَحَلَفَ عَلَى رِياسَةِ الْخَوارجِ الصُّفْرىةِ بَعْدَ مَقْتَلِ صالِحِ بنِ مُسَرِّحٍ أَحَدِ أَصْحابِهِ ، وَهُوَ شَيْبِ بنِ بَزِيدِ الشَّبابِيِّ ، فَكَتَبَ الْحِجاجُ لِقِتالِهِ الْكِتائِبَ ، وَكَانَ أَمِيرَها فِي بَعْضِ الْوَقَعاتِ زائِدَةُ بنُ قُدَّامَةَ ، وَجاءَ شَيْبِ حَتَّى وَقَفَ مُقَابِلَ الْقَوْمِ ، فَخَرَجَ زائِدَةُ يَسِيرَ بَيْنِ الْمِيمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ ، يَحْرِضُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

« عبادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ الطَّيِّبُونَ الْكَثِيرُونَ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْخَبِيثُونَ الْقَلِيلُونَ ، فَاصْبِرُوا جُعِلَتْ لَكُمْ الْفِدَاءُ إِنَّها حَمَلَتَانِ أَوْ ثَلَاثُ ، نَمَّ هُوَ النَّصْرُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، أَلَا تَرَوْنَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَكُونُونَ مائِثِي رَجُلٍ ؟ إِنَّمَا هُمْ أَكَلَةُ رَأْسٍ ، وَهَمُّ السُّرْاقِ الْمُرَّاقِ ، إِنَّمَا جَاءَوكُم لِيَهْرِيقُوا دِمَاءَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا فَيْئَتَكُمْ ، فَلَا يَكُونُوا عَلَى أَخْذِهِ أَقْوَى مِنْكُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، وَهَمُّ قَلِيلٍ وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَهَمُّ أَهْلِ قُوَّةٍ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ جَماعَةٍ ، غَضُّوا الْأَبْصارَ ، وَاسْتَقْبَلُوكُم بِالْأَسِنَّةِ ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى أَمَرَكم » ، فَمَازَحَ يَقَاتِلُهُمْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، حَتَّى قَتَلَ .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ — خطبة الحجاج بن يوسف

وَلَمَّا هَزَمَ شَيْبِ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ الْحِجاجُ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، أَقْبَلَ نَحْوَ الْمَدائِنِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْحِجاجُ ، فَقَامَ فِي النَّاسِ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) الرُّسْتاقُ . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قومٍ رم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغیظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - یعنی جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعقِب الأير ، فليندُ بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ — خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليّناه من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن للنّا كلّ الماربِ الهوانَ والجفوة ، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأوليّينكم كنفاً خشناً ، ولأغرّ كنكم بكنّا كلّ ثقیل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ — خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئون ومئون ، ألا إني مصلّي الظهر ، ثم سائر بكم إن شاء الله . »

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٤١٩)

٤٤٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثير آمنه قوله : « يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حَمِدَ الله فَعَلَهُ فَمَا أَعْظَمَ دَرَجَتَهُ ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوك هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قُرْبَةٌ عند الله ، فهم شِرَار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصّون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنقرة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله السكّاني بكم وقد قرّرتم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسفى في استيهر الريح ، وحل عليه شبيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذّلوه ، وثبت في عصاة قليلة صبرت معه ، وقا تل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ — خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلّها يقتل أمراءهم ، ويقتل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سفيان بن الأبرد السكّلي ، في أربعة آلاف ، وحبیب بن عبد الرحمن الحسكبي من مذحج في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشذّوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يأهل الكوفة ، فلا أعزَّ الله من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عتَّاب ابن ورقاء^(١) . »
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١م : ص ٤٢٠)

٤٦٦ — خطبة عبد الله بن يحيى الإيباضى^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندى على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، حمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذَّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبيُّنا ، والسكينة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضيُّنا بالحلال حلالا ، لا نبيُّ به بديلا ، ولا نشتري به كتمنا قليلا ، وحرَّمنا الحرام ونبدناه وراء ظهورنا ، ولا حول

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لدفاعته ، فشئت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقى على جسر دجيل ، وحى بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان هلاكه سنة ١٧٧ هـ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندى ، وكان من حضرموت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض — بكرم الغمزة —) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعسفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما ترى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة المسعودي في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصر فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزان والأموال .

ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المَعْوَل ، من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات مُحْكَمَات ، وآثار مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، هَدَلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فِتْرَةٍ بقايا من أهل العلم ، يَدْعُونَ من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جَنَبِ الله تعالى ، يُقَاتِلُونَ على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبْلُوا الله بلاءً حسناً في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغاني ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سألناكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمري الله - فيهم القول ،
قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حيلة ، فوضعوه في غير حقّه ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بغيرنا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين
جانبيه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثر جمعه وأتته الثرثرة من كل جانب (والثرثرة كقضاة جمع شاركقاص
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى : أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شربنا أنفسنا في طاعة الله : أى بعناها
ووهبتها ، أخذوا من قوله تعالى :

« وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءً مَرَضًا أَلَلِ » أو لقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمى من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإننا لانريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : أنحن نخلدكم وندعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله أنحن نفسد في الأرض ؟ إنما
خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالثروة ، فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا من لم يجعل الله
له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم بقية ، وقد بلغت قتل قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ،
منهم من قرىش أربعمائة ونعمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صقر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وجعلوا مَقَارِسَنا وَحُتُوفَنا في مهور النساء ، وفُرُوجَ الإمام^(١) ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أزل الله فنأشدهم الله أن يَتَنَحَّوْا عنا وعنكم ، ليختار المسلمون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفتلون ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فإن نظهر نحن وأنتم نأتِ بمن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا نقوى على ذلك ، فقلنا لكم : فخلوا بيننا وبينهم ، فإن نظفر نمدل في أحكامكم ، ونحملك على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ونقسم فيشكم بينكم ، فأبىتم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحوال هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة بئاركم ، وكتبتم إليّ تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاء خيراً » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم » .

٤٤٩ — خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون صحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، لخدانة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متفكّب قوساً عربية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، قد بلغتني مقاتلکم لأصحابی ، ولولا معرفتی بضعف رأيکم وقلة عقولکم ، لأحسنت أدبکم ، ونجّمتکم ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب ، وبيّن له فيه السنن ، وشرّع له فيه الشرائع ، وبيّن له فيه ما يأتي وما يذر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يتخجم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وعلم المسلمين معالم دينهم ، ولم يدعهم من أبرم في شبهة ، وولى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردّة ، وثمر في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجند الأجناد ، ومصرّ الأمصار ، وجبّ النقيّ ، وفرّض الأعطية ، وثمر عن ساقه ، وحسّر عن ذراعه ، وجلّد في الحرّ ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان^(٢) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه — وكان دونهما — ثم سار في الست الأواخر بما أحبّط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها^(٣) كل امرئ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

(٣) أي الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأسَرَ كل رجل منهم سريرةً أبداه الله عنه ، حق مضوا على ذلك ، ثم ولي
على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله :
ثم ولي معاوية بن أبي سفيان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنُ لعينه^(١) ،
وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ
عباد الله خولا^(٢) ، ومال الله دولا^(٣) ، وبقي دينه عوجاً ودغلاً^(٤) ، وأحل الفرج
الحرام ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ،
يزيد الخمر ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود^(٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) عبيدا . (٣) جمع دولة بالضم ؛ أى متداولاً بين عشيرته
دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسمودي في مروج الذهب -
ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، وفهود ، ومنادمة على الشراب ؛ وجلس
ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد — وذلك بعد قتل الحسين — فأقبل على ساقيه ، فقال :

اسقني شربة تروى مشائى ثم صل فاسق مثلاً ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغننى وجهادى

(والمشاش كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان
يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاحى ، وأظهر الناس شرب الشراب ،
وكان له قرد يكنى بأبى قيس ؛ يحضره مجلس منادته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله
على أُنان وحشية ؛ قد ريفت وذلك لذلك بمرج ولبام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء في بعض الأيام
سابقاً فتناول القصبه ؛ ودخل الحجره قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباه من الحرير الأحمر والأصفر مشهر
(مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأُنان سرج من
الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم :

تمسك أبى قيس بفضل عنائها فليس عليها إن سقطت ضيائها
ألا من رأى القرد الذى سبقت به جياذ أمير المؤمنين أنان !

وروى ابن طباطبا في الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصمد لا يزال لاهياً
به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه » الجلال بالسكسر جمع جل بالضم
والفتح : ما نلبسه الدابة لصنانه به » ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل إن حبيد الله بن زياد أخذ من بعض =

الفاسقُ في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، يخالف القرآن ، واتباع السكَّمان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طرَّيدُ لَمِينُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسقٌ في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه . ثم تداوها بنو مروان بعده ، أهلُ بيت الالعة ، طرَّدَاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقومٌ من الطَّلَّاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلًا ، وَلَعِبُوا بدين الله لعبًا ، واتخذوا عباد الله عبيدًا ، يورث ذلك الأكبرُ منهم الأصغر ، فيما لها أمة ! ما أضيعةُها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيئ أعمالهم ، واستخفاهم بكتاب الله تعالى ، قد نَبَذُوهُ وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يَسْكُدْ وَعَجَزَ عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلامٌ ضعيف سَفِيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « فَإِنْ آنَسْتُمْ

= أهل الكوفة أربعمئة ألف دينار جباية وجملها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضرا فيها ، فضرِب مخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر هود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغا كبيرا ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شدت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدا بنفسه ، فاشعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زئ الملوك ؛ وقد علتة غبرة ، فقام إليه ، وسلم عايه ، فقال له : أرأيت كلبة عابرة هذا الموضع ؟ فقال : نعم يا مولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، وفطار إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بجبلها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه مأخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبته بشيء كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كعمدة : العيب . (٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقيل إنه تولى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا قَدْ دَفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، فَأَمْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ فِي أَحْكَامِهَا وَفِرْجِهَا وَدِمَائِهَا
أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ، غَلَامٌ مَأْبُونٌ فِي بَطْنِهِ وَفِرْجِهِ ،
يَشْرَبُ الْحَرَامَ ، وَيَأْكُلُ الْحَرَامَ ، وَيَلْبَسُ الْحَرَامَ ، يَلْبَسُ بُرْدَتَيْنِ قَدْ حَبَّكَتَاهُ ، وَقَوَّمتَا
عَلَى أَهْلِهِمَا بِالْفِ دِينَارٍ ، وَأَكْثَرُ وَأَقْلُ ، قَدْ أَخَذَتْ^(٢) مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا ، وَصُرِفَتْ فِي غَيْرِ
وَجْهٍ ، بَعْدَ أَنْ صُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارَ ،
وَاسْتَحْلَلَتْ مَا لَمْ يُحِلَّ اللَّهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ ، نَحْمُ يُجْلِسُ حَبَابَةَ عَنْ يَمِينِهِ ،
وَسَلَامَةَ عَنْ شِمَالِهِ ، تَغْنِيَانِهِ بِزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ الْعُصْرَاحَ الْحَرَمَةَ نَصَا بَعِينَهَا ،
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَا خَذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَغَلَبَتْ سَوْرَتَهَا عَلَى عَقْلِهِ ،
مَزَّقَ حُلَّتِيهِ ، نَحْمُ التَّفْتَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ : أَنَا ذُنَانٌ لِي أَنْ أُطِيرَ^(٤) ؟ نَعَمْ ، فَطَرْنَا إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ،
وَحَرِيقِ نَارِهِ ، وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ، طَرْنَا إِلَى حَيْثُ لَا يَرُدُّكَ اللَّهُ .

(١) الآية الكريمة في اليتامى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى فى تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو
جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس فى حباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفخرى
ص ١١٧ قال : « كَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ خُلِيعَ بَنِي أُمَيَّةٍ شَغَفَ بِجَارِيَتَيْنِ أُمَمٍ إِحْدَاهُمَا سَلَامَةُ ، وَالْأُخْرَى حَبَابَةُ
فَقَطَعَ مَعَهُمَا زَمَانَهُ ، قَالُوا : فَعَنَّتْ يَوْمًا حَبَابَةُ :

بَيْنَ التَّرَاقِ وَالْهَوَا حَرَارَةً مَاتَطْمُنُ وَلَا تَسْوِغُ فَتَبْرَدُ

فَأَهْوَى يَزِيدُ ابْنُ طَايِرٍ ، فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا فَيْكُ حَاجَةٌ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لِطَايِرِينَ ، قَالَتْ : فَمَلُ
مَنْ تَدْعُ الْأُمَّةَ ؟ قَالَ : عَلَيْكَ وَقَبْلَ يَدَيْهَا ، فَخَرَجَ بَعْضُ خَدَمِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « سَخَنْتُ عَيْنَكَ فَا أَسْخَنْكَ »
وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْأَغَانِي « ج ١٣ ص ١٤٨ » قَالَ : « كَانَتْ حَبَابَةُ مَوْلَاةً مِنْ مَوْلِدَاتِ الْمَدِينَةِ ،
حُلُوةٌ جَمِيلَةٌ الْوَجْهَ ظَرِيفَةٌ حَسَنَةُ الْغَنَاءِ ؛ وَقَدْ قَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مَا تَقَرَّرَ عَيْنِي بِمَا أَوْثِقْتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَقِّ
أَشْتَرَى سَلَامَةً وَحَبَابَةَ ، فَأَرْسَلْتُ فَاشْتَرَيْتُمَا لَهُ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتَا عِنْدَهُ قَالَ : أَنَا الْآنَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَانْقَضَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنَا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ

وَذَكَرُوا أَنَّ مُسْلِمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَقْبَلَ عَلَى يَزِيدَ يَوْمَهُ فِي الْإِلْحَاحِ عَلَى الْغَنَاءِ وَالشَّرَابِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ
وَلَيْتَ بِعَقَبِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعَدْلِهِ ، وَقَدْ تَشَاغَلْتَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ ، وَالْوَفُودِ بِبَابِكَ ؛ —

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طعماً أجهالاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فأسكوا الأسر ، وأسأطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظُلَّة ، ويعطون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَى قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم يترك الشراب ، ولم يدخل على حباية أياما ، قدست حباية إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب الحزون أن يتجلدا
يكيت الصبا جهدى فن شاء لأمى	ومن شاء آمى في البكاء وأسعدا
وإن فندت في طلب الغنى	لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تمش ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلدا
فا العيش إلا ماتلذ وتشتهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حباية ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جوارها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فطلقتها والعود في يدها ، فغنت البيت الأول ، فغنى وجهه ، وقال : مه لاتفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا ماتلذ وتشتهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، فقيح الله من لأمى فيك ، يا غلام . مسلمة أن يصل بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاد ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره المسعودى : أن حباية امتلأت فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بمجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفعها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن نسل عنك النفس أو تدع الهوى • فبالأيس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبِلْ صِنْفٌ تاسعٌ ليس منها ، فأخذ كلها : تلكم
الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله
عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ،
لا يرجعون إلى نظير نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة
الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصيبة لحزب لزومه ، وأطاعوه
في جميع ما يقوله لهم ، غيًّا كأن أو رشدًا ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدُّول في رَجْمَةِ
الموتى^(٢) ، وَبُؤْمِنُونَ بالبعث قبل الساعة ، ويدَّعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم
ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، ينقِمون المعاصي على أهلها
ويعملون إذا ولّوا بها ، يُصِرُّون على الفتنة ولا يعرفون المَخْرَجَ منها ؛ جُفَاءً في دينهم ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها . والمزلفة قلوبهم : الذين
أسلدوا وغيّبوا ضميرهم في الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفي الرقاب : أى وفي ذلك رقاب المكاتبين ، فيعاونون
بشيء منها . والغارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير معصية ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .

(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أممهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن
أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه في جبل رضوى
(بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وإنه يعود بعد النبية فيملا
الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيّب ولا يرى فيهم زمانا برضى عنده عمل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨
والاثنا عشرية « وهى إحدى فرق الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لتوقفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد
ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ،
وأنه يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة
بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيبتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبه
النجوم ، ثم ينفضون ويرجعون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مؤالاتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنَجِّبهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تفتقدون ؟ وقد بلغنى أنكم تنتَقِصون أصحابي ! قاتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويَحْكُم بأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير إلا شبابا أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتقابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب والله مُكْتَمِلُونَ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاه^(٤) عبادة ، وأطلاحُ مَهَرٍ^(٥) ، باعوا أنفسهم غدا ، بأنفس لا تموت أبدا ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شَهِقَ شَهْقَةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض رُكَبَهُمْ وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كِلَالَ^(٦) الليل بكلال النهار ، مُصْفَرَّة ألواسهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، مَوْفُونَ بعهد الله ، مُنْجَزُونَ لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوقَتْ^(٧) ، ورماحهم وقد أُشْرِعَتْ^(٨) ، وسيوفهم وقد انْتَضَبَتْ^(٩) ، وَبَرَقَتْ السكتبية وَرَعَدَتْ بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد السكتبية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفي البيان والتبيين « جفاة من القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفكته عنه كضرب : صرفه وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع فضو كحمل ، وهو المهزول . (٥) جمع طلع وهو كنضو وزنا ومعنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء . (٧) فوق السهم : جعل له فوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرى . (٨) شدت . (٩) استلت .

الكتيبة ، وَلَقُوا شَبَابًا^(١) الأُسْنَةَ ، وشائِك السهام ، وظُبَاتِ السيوف بنحورهم ،
 ووجوههم وصدورهم ، فغنى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
 واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ^(٢) جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ،
 وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى
 بها صاحبها في جَوْف الليل من خَوْف الله ، وكم من يد قد أُبَيِّنَتْ عن ساعدها ، طالما
 اعتمد عليها صاحبها راکماً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجَبِينٍ عَتِيقٍ^(٣) ، قد فُلق
 بعمد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
 وأدخل أرواحهم الجنان » .
 الألفاظ ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
 والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٠ — خطبة أخرى

ورق المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وِطَاعَتِهِ ، والعمل بكتابه ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،
 وصلة الرحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير ما عظمت من الباطل ،
 وإيمانكم ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ، وأن يُطاع الله ، وَيُصْصَى
 العبادُ في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا طاعة للخلق في معصية الخالق ، ندعو
 إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقَسَمِ بالسَّوِيَّةِ ، والعدل في أرمية ، ووضع الأخماس في
 مواضعها التي أمر الله^(٤) بها ، تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرأ

(١) جمع شبابة : وهى حد كل شيء ؛ والظلمات : جمع ظلمة ؛ وهى حد السيف . (٢) أصابه المفرد :
 وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » .

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عَبَثًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لِدَوْلَةٍ مُلْكٌ نَزِيدٌ أَنْ نَخْوَضَ فِيهِ ، وَلَا لِنَارٍ قَدِيمٍ نَيْلٌ مِنَّا وَلَكِنَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أَطْفَأَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ غُطِّلَتْ ، وَكَثُرَ الْإِدْعَاءُ فِي الدِّينِ وَغَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُتِفَ الْقَاتِلُ بِالْحَقِّ ، وَقُتِلَ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ، ضَاقتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِّمَ الْقُرْآنُ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قَبْلِ شَيْءٍ ، النَّفَرُ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَلِيلُونَ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهُ جَمِيعًا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَهَلَّى الدِّينَ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَهُمْ بِقَدِيدٍ ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِّمَ الْقُرْآنُ ، وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحُكِّمَ مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ ، فَشَتَّانَ لِعَمْرُ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّشْدِ ! ثُمَّ أَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ وَزَفُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بَحِيرَانَهُ ^(٥) ، وَغَلَّتْ بِدَمَائِهِمْ مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارُ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكِتَابٍ ، بِكُلِّ مَهْنَدٍ ذِي رَوْثٍ ، فَدَارَتْ رَحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَتَصَرَّوْا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِقَنَّكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَبَشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أُولَّيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ، وَآخَرَكُمْ شَرًّا آخِرَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثْنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عِصْدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَقَّتْهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ اللَّهُ عَدُوٌّ وَلَدَا حَرْبٍ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الأغاني ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١

(١) يريد عبد الله بن يحيى الكندي . (٢) أى لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(٣) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزيفيا

وزفوفًا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أى استولى عليهم .

(٦) أسحت : استأمله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية

أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القري ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ — خطبة له في سبب أهل المدينة وتقريرهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالى رأيت رَسْم الدين فيكم بقيًا ، وآثاره دارسةً ، لا تقبلون عظمتَه ولا تفقهون من أهله حُجَّةً ، قد بايت فيكم حديثه ، وانطمست عنكم سُنَّتُه ، تَرَوْنَ معروفه منكراً ، والمنكر من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العِبر ، وأوضحت لكم النُّذر^(١) ، عَمِيت عنها أبصاركم ، وصمَّت عنها أسماعكم ، ساهين في غمَرَةٍ ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحق إذا ذكر ، مستوحشةً من العلم ، مستأنسةً بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق مُنفورًا ، تحملون قلوبًا في صدوركم كاللحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تَلِنْ لكتاب الله الذي لو أُزِل على جَبَلٍ لرأيتَه خاشعًا مُتصدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يا أهل المدينة ، ما تُتَنِي عنكم صحة أبدانكم إذا سَقُمَت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سببًا غالبًا ينقاد له ، ويطيع أمره . وجعل القلوب غالبَةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب مَيْلًا ، كانت الأبدان لها تَبَعًا ، وإن القلوب لا تَلِين أهلها إلا بصحتها ، ولا يصحِّحها إلا المعرفة بالله ، وقوَّة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يا أهل المدينة : داركم دارُ الهجرة ، ومَثْوَى رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا نَبَتْ به داره ، وضاق به قَرَارُه ، وآذاه الأعداء وتجهمت^(٢) له ، فَنَقَلَ الله إليكم ، بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم ، مُتَوَازرين مع الحق على الباطن ، مختارين الآجل على العاجل ، يصبرون للصَّراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاءوا في سبيله ، وآوَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتَّبَعُوا النُّورَ

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرًا محاربًا لربه ، ما يقولون فيه وفيمن عاونوه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغني أنكم

تُنْتَقِصُونَ أصحابي ... الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو المنذر . (٢) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريمة .

الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وَآمَرُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَأَمْلَأَهُمْ وَلَنْ أَهْتَدَى بِهِدَاهُمْ : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وَأَنْتُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِمْ ، تَتْرَكُونَ أَنْ تَقْتَدُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسَبْتِهِمْ ، تُغْنَى الْقُلُوبُ ، صُمَّ الْأَذَانُ ، اتَّبَعْتُمُ الْهَوَى ، فَأَرْذَاكُمْ عَنِ الْهَدَى وَأَسْهَأَكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظُ الْقُرْآنُ تَزْجُرُكُمْ فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَعِظُكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِظُكُمْ فَتَسْتَيْقِظُونَ ، لِبُئْسِ الْخَلْفِ أَنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَا مِزْتُمْ بِسَبْرِهِمْ ، وَلَا حَفِظْتُمْ وَصِيَّتَهُمْ ، وَلَا احْتَذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتَ عَنْهُمْ قُبُورُهُمْ ، فَعُرِضْتَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُفِرَ الْعَذَابُ عَنْكُمْ ! »
(الْأَغْنَى ٢٠ : ١٠٥ ، وَشَرْحُ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ الْعَقْدِ الْفَرِيدِ :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : أَوَّلُكُمْ خَيْرٌ أَوَّلَ ، وَآخِرُكُمْ شَرُّ آخِرَ ، إِنَّكُمْ أَطْعَمْتُمْ قُرَاءَكُمْ وَفَقَعْتُمْ أَهْلَكُمْ فَاخْتَبَأْتُمْ^(٢) عَنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ، بَنَادِيلِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتَحَالِ الْمُبْطِلِينَ ، فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَآبِينَ^(٣) ، أَمْوَاتًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : يَا أَبْنَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصْحَحَ أَضْلَكُمْ ، وَأَسَقَمَ فَرَعَكُمْ ! كَأَنَّ آبَاءَكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالْدِينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَدَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِيَّ فَأَضَلَّتْكُمْ فَفَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ بَابَ الدِّينِ فَسَدَدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَفَتَحْتُمُوهُ ، مِرَّاعٌ إِلَى الْعِتْنَةِ ، بِطَالٍ عَنِ السُّنَّةِ ، مُعْنَى عَنْ الْبِرِّهِانِ ، صُمْتُ عَنْ الْعِرْفَانِ ، عَبِيدُ الطَّمَعِ ، حُلَفَاءُ الْجَزَعِ ، نَعِمَ مَا وَرَّسَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبُئْسَ مَا تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا

خبِيث ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم ، واللهو فأسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجرُكم
فلا تزدرُّون ، وتعبِّرُكم^(١) فلا تعتبرون »
(المقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ — خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في نائبي فِتنة^(٢) ، وقائد ضلالة ، قد طال
جُثُومها ، واشتدَّ عليك عُثُومُها ، وتلوَّنت^(٣) مَصَائِدُ عدو الله فيها ، وما نصَّب من
الشَّرْك لأهل الغفلة عَمَّا في عواقبها^(٤) ، فلن يَهْدَّ عمودها ، ولن يَنْزِعْ أوتادها ،
إلا الذي بيده مُلك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتحيرُوا في ظُلُمِها ، ولم يُشايِعُوا أهلها على شُبهها ، مَصَابِيحُ النور في أفواههم تَزْهُو ،
وَأَلْسِنَتُهُمْ بِحُجَجِ السُّكُوتِ تنطق ، ركبوا مَنَهِجَ السَّبِيلِ ، وقاموا على الْعَلَمِ^(٥) الأعظم ،
هم خُصَمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بهم يُضْلَحُ اللهُ البلاد ، وَيَذْفَعُ عن المباد ، فطوبى لهم
وللمستصبيين^(٦) بنورهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) . »

(المقد الفريد ٢ : ١٦٢)

-
- (١) المراد : تعظيكم ، من العبارة ؛ ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذي فيها : « عبر
الاراهم : وزنها » . (٢) من إضافة الصفة للموصوف أي في فتنة ناشئة ، أي حية شابة .
(٣) تعددت وصارت ذات ألوان : أي نصب العدو لنا المصائد ، ودبر المكائد للإيقاع بنا .
(٤) أي ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون في دعوتهم .
(٦) أي المستصبيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب مني إسنادها ؛ وهي لأبي
حمزة كما في المقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان^(١) فقال :
« يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدّل في أحكامكم ،
ونحمّلكم على سنة نبيكم ، ونقسّم بينكم فيثّكم ، وإن يكن ما تَمَنُّونَ لنا : فَسَيَعْلَمُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغاني ٣٠ : ١١٠ وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفّر الحجاج بعمران^(٢) بن حِطّان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ،
فقال عمران : لبئس ما أدّبك أدلك يا حجاج ! كيف أَمِنْتَ أَنْ أُجِيبَكَ بِمِثْلِ
مَا لَقِيتَنِي بِهِ ؟ أَبَدَدَ الْمَوْتَ مَنْزِلَةً أَصَانُكَ عَلَيْهَا ؟ فَأَطْرُقَ الْحِجَاجُ أَسْتَحْبَاءً وَقَالَ : خَلُّوا عَنْهُ ،
فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربته معنا ،
فقال : هيهات ! غَلَّ يَدَا مُطْلِقُهَا ، وَأَسَرَ رَقَبَةَ مُعْتَقِهَا .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ،
وأمره أن يمضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ البين ، ويقااتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ،
وخرج أبو حزة للاقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حزة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أنفضى الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن عطية إلى
البين ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ — خطبة سبحان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بَلاغ ، والآخرة دار قَرَار ، أيها الناس : فَخْذَرُوا مِنْ دَارِ مَمَرٍّ كَمْ
لِدَارِ مَقَرٍّ كَمْ ، وَلَا تَهْتَكُوا أَسْوَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَأُخْرِجُوا
مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَيُهَا حَيَاتِيَّتُمْ وَافِيرَهَا خَلِيقَتُمْ ، إِنْ الرَّجُلُ
إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لَهُ ؟ قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُونُ
لَكُمْ ، وَلَا تَخْلُقُوا كَلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ » .

(سرح العيون ص ٩٥)

(١) هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في المصاحبة والبيان ، فقليل : « أخطب من سبحان
وائلي » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها ترمز إلى الإمام على — انظر نهج البلاغة
١ . ٢٦٠ — وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية — تهذيب الكامل ١ : ٢٨ —
وكذا ذكر أبو علي القالي — في الأمالي ١ : ٢٥٨ — وابن عبد ربه — في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ —
وأبو الفضل الميداني — في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٣ —
والخصري — في زهر الآداب ٢ : ٤ — قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأبي المؤمنين
على عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيره » — م ٣ : ص ٢ .
وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ،
فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فانتصب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى
أن قامت صلاة العصر ، ماتنحج ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه
منه شيء ، فزال تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية :
الصلاة ، قال : هي أمالك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ،
فقال سبحان : « والمجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ ما يقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوها كليله عن بلوغ
الآمل ، فإن الماضي عِظَةٌ للباقي ، ولا تجعلوا الغرورَ سبيل العجز عن الجدِّ ، فَتَنْقَطِعَ
حجتكم في موقفِ الله سائِلُكم فيه ، ومحاسِبُكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أُمسِ شَاهِدٌ
فاحذَرُوهُ ، واليوم مؤدَّبٌ فاعْرِفُوهُ ، وغداً رسولٌ فأكْرِموهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نِباتِ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدِ نِقْمَتِهِ ،
ولا تَغْرِسْ لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وَأَقْلُوا الرغبة فيما يورث العطبَ ،
فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تَقْلَمُهُ الآجلةُ ، واحذروا الجديدين ، فهما يكرهان عليكم ،
إن عُقْبَى من بَقِيَ لِحُوقِ بَيْنِ مَضَى ، وعلى أثرٍ من سَلَفٍ ، يَمْضِي من خَلْفٍ ،
فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . »

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبَلَغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبَّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذُنْبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ » .

(تهذيب الكمال ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقه هزاه المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

كلام الحسن البصري

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ — خطبة له

قال الحسن البصري رحمه الله ^(١) :

« يان آدم : بَعْ دنياءك بأخرتك تَرَبِّحَهُمَا جَمِيعًا ، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياءك فَتَخْصِرَهما جَمِيعًا . يان آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهُمْ فيه ، وإذا رأيْتهم في الشرِّ فلا تَقْبِطْهم عليه ، الثَّوَاءُ ^(٢) هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أَمْتَكُم آخر الأُمم ، وأنتم آخر أَمْتِكُم ، وقد أُسْرِعَ بختياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعايِنَةُ ؟ فكأنَّ قَدْ، هبّات هبّات ! ذهبت الدنيا بحايلِها ^(٣) ، وبقيت الأعمال قلائدَ في أعناق بني آدم . فيالها موعظةٌ لو وافقت من القلوب حياةً ! أما إنه والله لا أُمّةَ بعد أمتكم ، ولا نبيَّ بعد نبيكم ، ولا كتابَ بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يَلْحَقَهُ آخِرُكم ، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يضع لَبِنَةً على لبنة ، ولا قَصَبَةً على قصبَةٍ ، رُفِعَ له عِلْمَ فِشْمَرٍ إليه ^(٤) ، فالوَحَاءُ الوَحَاءُ ^(٥) »

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ وأصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهي حال وحالية : ليست الحلى ، والمعنى ذهبت بزعرها الذى تزيت به الناس فأصلبتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها » وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فمها إليه » . (٥) الوحاء ويعد : المجلة والإسراع .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرِجُونَ ؟ أَيْتَبْتُمْ وَرَبَّ الْكُفْبَةِ اأَقْدَ أُسْرَعُ بِخِيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلُّ يَوْمٍ تَزْدُلُونَ^(١) ، فَمَاذَا تَنْظُرُونَ ؟ إِنْ اَللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اَخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولُهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ^(٢) ، وَأَتَاهَا مِنْهَا قُوَّتًا وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اَللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فَرِغِبْ أَقْوَامٌ عَنْ عَيْشِهِ ، وَاسْتَخِطُّوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبْعَدَهُمُ اَللهُ وَأَسَحَتْهُمْ^(٣) .

يَا بَنَ آدَمَ : طَلِّ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عَمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ . رَحِمَ اَللهُ رَجُلًا نَظَرَ فَنَفَسَكَرَ ، وَتَفَسَّكَرَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُدْرِكُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا فَارَقُوا .

يَا بَنَ آدَمَ : اذْكُرْ قَوْلَهُ : « وَكُلْ اِنْسَانًا اَلزَّمَنَاءَ طَائِرَهُ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَخُجِرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اَفْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . عَدَلَ وَاللهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَذُوا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرُّوا كَدَرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَرًا ، وَلَا الْكَدَرُ مَا عَادَ صَفْوًا ، دَعُوا مَا يُرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَفَّتِ^(٥) السُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَسْبَتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَ اَللهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيهَا حَرَمَ اَللهِ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمَعَ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَى

(١) أى تصيرون أرضًا لا جمع رذل : وهو اللدون الخسيس . (٢) أى موضعًا ساميًا .

(٣) أى أبعدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ،

والتميز به لما كانوا يطمنون ويتشامون بالطائر السافع والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) بحيث . (٦) أخوف

أُنَيْسًا ، ذهب الناس وبقى النِّسْناس^(١) ، لو تفكاشتم ما تدافتم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِذُوا الجواب ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قِبَلِ ربه ، إِنْ هَذَا الْحَقُّ قَدْ جَهَّدَ أَهْلَهُ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ ، وَرَجَا عَاقِبَتَهُ ، فَمِنْ حَمْدِ الدُّنْيَا ذِمُّ الْآخِرَةِ ، وَلَيْسَ بِكَرِهٍ لِقَاءُ اللَّهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَى سَخَطِهِ .

يَا بَنِي آدَمَ : الْإِيمَانُ لَيْسَ بِالتَّحَلُّى وَلَا بِالْتَّمَنَّى ، وَلَكِنَّهُ مَا وَقَّرَ فِي الْقُلُوبِ ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ .

(البیان والتبيين ٣ : ٦٨ وحيون الأخبار ٢ م ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦٩)

٢٦٠ - خطبة أخرى

وَكَانَ إِذَا قَرَأَ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ^(٢) » قَالَ :
عَمَّ أَلْهَاكُمْ ؟ عَنْ دَارِ الْخُلُودِ ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ^(٣) ، هَذَا وَاللَّهُ فَضَّحَ الْقَوْمَ ، وَهَتَكَ السُّتْرَ ، وَأَبْدَى الْعَوَارِ^(٤) ، تُنْفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهَوَاتِكَ سَرَقًا ، وَتَمْنَعُ فِي حَقِّ اللَّهِ دِرْهَمًا اسْتَعْلَمَ يَا لُكْعَ^(٥) ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : مُؤْمِنٌ ، وَكَافِرٌ ، وَمُنَافِقٌ ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَقَدْ أَلْجَهُ الْخُوفُ وَقَوْمَهُ ذِكْرُ الْفَرَضِ ؛ وَأَمَّا الْكَافِرُ : فَقَدْ قَعَّ السَّيْفُ ، وَشَرَّدَهُ الْخُوفُ ، فَأَدْعَنَ بِالْجُرْئِيَّةِ ، وَتَمَتَّحَ بِالضَّرْبِيَّةِ ؛ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ : فَنَفَى الْحُجُرَاتِ وَالطَّرُقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلَنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ، فَاعْتَبَرُوا إِنْ كَارَهُمُ رَبُّهُمْ ، بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ ، وَبَلَّكَ ؟ قَنَلْتَ وَلِيَّهَ ، نَمِ تَمَتَّعْ عَلَيْهِ جَنَّتُهُ ؟ .

(١) فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَسُ » قِيلَ : فَا النَّسْنَسُ ؟ قَالَ :
« الَّذِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِالنَّاسِ ، وَلَيْسُوا مِنَ النَّاسِ » وَلَهُمْ فِي تَفْسِيرِ النَّسْنَسِ كَلَامٌ كَثِيرٌ ، مِنْهُ : أَنَّهُمْ خَلَقُوا عَلَى صُورَةِ النَّاسِ خَالَفُوهُمْ فِي أَشْيَاءَ ، وَلَيْسُوا مِنْهُمْ .

(٢) التَّيَاهَى بِالْكَثْرَةِ . (٣) لَا تَنْفَى . (٤) الْعَوَارِ مِثْلُ الْعَيْنِ : الْعَيْبُ .

(٥) الْكُكَّ : الْكَيْمُ وَالْأَمْتَى .

٤٦١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله ، فَعَرَضَ عليه نفسه ، فإن وافقه حِدَ رَبِّه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أَعْتَبَ وَأُنَابَ ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم ، جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أننى على عهد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . وابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارُك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يُصْلِحَهُ ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيت مَرَكَّ مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْقُضُولَ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ كَانَ قَلْبُكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤْثِرُونَ بِالْفَضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتُ قَدْ أَضَرَ بِالدُّنْيَا فَفَضَحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو أَلْبٍ فِيهَا فَرَحًا ، فَإِذَا كُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلُ الْمُنْفَرِقَةُ ، الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِيعَادُهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّتْهُمْ اللَّيْلُ فَقِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَنَاجُونَ مُوَلَّاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمَلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّاهُمْ ، وَسَلَّوْا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمَلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَلَّوْا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ ، يَابْنَ آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يَغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَابْنَ آدَمَ : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرُكْهُ حَيَاءً .

(البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بِعِلْمِهِمْ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بِعِلْمِهِمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَا فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَرِغَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِمْ عَنْهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي

(١) جمع فضول : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويُبْدِي لى فقره ، وَيُغْلِقِ دونى بابِه ، ويمعنى ما عنده ، وأدع
من يفتح لى بابِه ، ويُبْدِي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده .
(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمٌّ ، وعِلج اغْتَمٌّ ، وأعرابي لافِقُهْ له ، ومنافق مَكْذَبٌ ،
ودنياوى^(١) مُتَرَفٌ ، نَعَقَ بهم ناعق فاتبِعوه ، فَرَّاشُ نارٍ^(٢) ، وذِبَّان طَمَعٌ ، والذى نَفْسُ
الحسن بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مَهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن
راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلَاءٌ صاروا إلى
حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أئى قومٍ : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحةٌ دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخيرٍ ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الحِجَابِيَّة من همِّه .
(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْرٍ - وقد رأى الناس وهيتائهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مِضْماراً لخلقهِ ، يَسْتَمِقُونَ فيه بطاعته إلى مَرَضَاتِهِ ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلَّف آخرون
خفاً ، فالعَجَب من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه
المبطلون ، أما والله أن لو كُشِفَ الغطاء ، أشْغِلَ محسن بإحسانه ، ومُؤْسَى بِإِسْأَاتِهِ ،
عن ترجيل^(٣) شَمَرٍ ، أو تجديد نوب .
(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالقراش يتهاقت على النار بحسبها نافعة له فحرقه .
(٣) وفى رواية الكامل لم يرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تليين الشمر بالدهن وتكثيره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولى عُمر بن هُبَيْرَة الْفَزَارِي الْعِرَاق - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك - استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيَّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيدَ خليفةُ الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما ترون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ، أعرف في تنفيذه المَلَكَ ، فأخاف إن أطعته غَضَبَ اللهُ ، وإن عصيته لم آمن سَطَوْتُهُ ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيَّ قولاً فيه تَفَيُّهُ ، وكان ابن هُبَيْرَة لا يستشفي دن أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يا بن هبيرة : خَفِ الله في يزيد ولا تخَفْ يزيدَ في الله ، إن الله يمنحك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنحك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكًا ، فيُرِيكَ عن سريرك ، ويخرجك من سَعَةِ قصرِكَ ، إلى ضيق قبرِكَ ، ثم لا يُنْجِيكَ إلا عملُكَ ، يا بن هبيرة : إن تعص الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركب دين الله وعباده بساطان الله ، فإنه لا طاعة للخلق في معصية الخالق » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يؤشك أن يزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله فَظَّ غليظ ، لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سَعَةِ قصرِكَ ، إلى ضيق قورك ، فلا يُغْنِي عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإنى لأرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنحك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد ، نظرةً يَمَقُّتُك بها ، فيُمَلِّقُ عنك باب الرحمة ، واعلم أني أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ » وإذا كنت مع الله عز وجل في طاعته كما لك بَوَائِقُ ^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكَلَّكَ الله إلى يزيد حين لا يُغْنِي عنك شيئاً » .

فبكي عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا^(١) له فَسَفَسَفَ لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن البصري يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رِياضها^(٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أبها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت^(٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يعطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، من عيل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالاته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فإبغنا إليه بفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلمنا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه . (٢) الرياش : الالباس الفاخر والمال والخصب والمعاش .

(٣) أى ملت إليها ، من ترجعت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنَحِبَّ ربنا ، فقال الحسن :
 « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه :
 « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فجعل سبحانه أتباعه صلى الله
 عليه وسلم علما للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فأتق الله أيها الرجل في نفسك ،
 وإني والله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ، يَعْلُونَ المنابر ، وتهتز لهم المراكب
 ويَجْرُونَ القيول بطراً ورياء الناس ، يبنون المَدَر^(١) ، ووَثِرُونَ الأثر^(٢) ، ويتنافسون
 في الثياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمَعُوا من دنياهم ، وقَدِمُوا على ربهم ،
 ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن^(٣) ، ويا ويحهم - يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ
 وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .
 (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وبَعَثَكَ عيوبك ،
 وهداك إلى مرادك ، وإن عدوك من غررك ومنأك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت
 مغالفا للقوم في الهدى والسير ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمني الأمان ،
 وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك الله طابان ، فطالب دنيا ، وطالب
 آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم^(٤) ،

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار
 لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والامم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والكسر ، والجمع أثر
 كفرصة وفرص . (٣) غينه في اليع يقبته ، والتغابن : أن يغيب بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة
 يوم التغابن لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكماً قال :

أين الملوك التي عن حفظها غفلت حتى سفاها بكأس الموت ساقها
نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخوثة أميناً ، وعلى
أعمالهم معيناً » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٧٠ — مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن الملوك أيرؤن لأنفسهم عزاً ، وإنا آنرى فيهم كل يوم عزاً ، بعمد
أحدهم إلى قصر فبيشده ، وإلى فرش فينجدده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ،
ثم يحف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعت ! فقد
رأينا أيها الغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغررت في دار
الغرور ، لتذل في دار الجبود ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على
العلماء ، كيبيذه للناس ولا يكتفونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أيشتمني
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يمرك شفقيه بما لم يسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ نقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوك حتى

(١) الحوز : النقصان ، والكوز : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز » أي من النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كوز العمامة وهو لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها . (٣) التجديد : التزيين ، والتجديد : الذي يعالج الفرش والوسائد ويغيظهما .

تبلغ أَمْنَكَ أرفق بك وأحبّ فيك من أَمْنِكَ حتى تبلغ الخوف، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحَبَّاه .
وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « مَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي » عَلِمُ هـ وعثمان عند الله قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وعَلَّف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عند شِدَّتِي ، ويا رائي نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته ، واصرف عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والمنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمال السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام المادل قِوامَ كلِّ مائل ، وقَصْدَ^(٣) كلِّ جائر ، وصلاح كلِّ فاسد ، وقوة كلِّ ضعيف ، وَنَصْفَةَ^(٤) كلِّ مظلوم ، ومَنْزَع كلِّ ملهوف ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامهما في سلك الوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيّب الرعى ، ويذودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالآب الحاني على ولده ، يسقى لهم صيفاً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطعه أخرى ، وتفرح بهافيقه ، وتقتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يرّبي صغيرهم ، ويؤنّون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عبادہ ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويرىهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تسكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاه من يلها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياءك عنده ، وأنصارك عليه ، فنزود له ، ولما بعده من القزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يُسلّمونك في قعره فريداً وحيداً ، فنزود له ما يضحك يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأبّ وأبيه ، وصاحبته وبنيّه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في الثُّبُورِ ، وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحسب يا أمير المؤمنين في عباد

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يَرَقِبُونَ في مؤمنٍ إلا^(١) ولا ذِمَّةً ، فنبؤ بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرئك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في تجميع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت^(٢) الوجوه للحَيِّ المَيُومِ ، إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بمظتي ما بلغه أولو الدُّهُى من قبلي ، فلم آلك^(٣) شفقةً ونُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كتابي إليك كدأوى حبيبهِ ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجوه في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فـكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فسكان الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مراحته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن المَوَى ، وإن أذاقك طعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مراحته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة » .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

(١) مهذا . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : اَكْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذِمَّةِ الدُّنْيَا ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظنٍّ^(١) وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحذرْها فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذيل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حَتْفُهُ ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمدأوى جراحه ، يحمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبرُ على لَأْوَأْهَا^(٢) ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرْها ولم يغترْ بزينتها ، فإنها غدارة ختالة^(٣) خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطأها ، فهي كالعروس ، العيونُ إليها نظرة ، والقلوب عليها وإلهه^(٤) ، وهى - والذى يمث محمدًا بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدَّ إلى الهلكة والفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفتوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موقق ، وللتمسك بها هالك غريق ، والظن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر ، وقدَّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ، الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمدأوى جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من

(٢) شلتها .

(١) ارتحال .

(٤) من الوله بالتحريك : وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

(٣) خداعة .

العافية ، ويخاف من سوء عاقبة الدار ، والدنيا وَايْمُ اللَّهِ يا أمير المؤمنين حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ
يَقِظَةٌ ، وَالتَّوَسُّطُ بينهما الموت ، والعباد في أصفاءِ أحلام ، وَإِنِّي قَاتِلُكَ يا أمير المؤمنين
ما قال الحكيم :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَأَنْتَ لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده ، وقال :
يرحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، وينبئنا من الغفلة ، وَلِلَّهِ هُوَ مِنْ
مُشْفِقٍ مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظٍ مَا أصدقَه وَأفصحَه !

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٢١)

٤٧٤ — كلمات حكيمة للحسن البصري

وقال : احذر من نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثَ غَيْرِكَ ، فإنه سَيُنْقَلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثُكَ .
أيها الناس : إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، وَلَا تُدْرِكُونَ ما تأملون
إلا بالصبر على ما تسكرهون . الصبر صبران : صبرٌ عند المصيبة ، وصبرٌ عن المعصية ،
فمن قَرَّرَ على ذلك فقد نال أفضل الصبرين . أفضل الجهاد جهاد المَوَى . لا تكن ممن
يجمع عِلْمُ العلماء وَحِكْمُ الحكماء ، ويمجى في الحق يمجى الشفهاء . من خاف الله أخاف
الله سبحانه منه كل شيء ، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة
ما طأ طأ ابنُ آدمُ رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لَوَثَابٌ . احذروا
المايد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنةً لكل مفتون . تركُ الخطيئة أهونُ
من معالجة التوبة . لا تكن شاةُ الراعى أعقلَ منك ، تزجرها الصيحة ، وتطردُها
الإشارة . المؤمن تلقاه الزمانَ بعد الزمان ، بأسر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ،
وإنما يتبدلُ المفاقي ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسرّه علانيته ،
ومشهدُه مخفيه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله

والذِكرُ من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشرته ما استعمل التسويف ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مُرٌّ لا يصبر عليه إلا من عرف حُسن العاقبة . ومن رجا الثواب خاف العقاب حادوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدُّور^(١) ، واقدعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طُلعة^(٣) ، وإنسكم إلا تزعوها^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمذك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليالك إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الباس صُراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رُزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصُمت النهار حتى يستقم جسمك ، لم يذمك ذلك إلا بورع صادق . وسمع رجلاً يُكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسك عليك لسانك . فقد قيل : ما شيء أحقَّ بسجن من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأنسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذل .

وقال : « يا عجبا لِقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعري ! ما الذى ينتظرون ؟ » وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا تعمُرُها ، وقال : ليس العَجَبُ ممن عَطِبَ كيف عطب ، إنما العجبُ بمن نجا كيف نجا ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبر في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . » (الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠ - ١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دُور القلوب : اعماء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « عنموها » .

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرأ

الحمد لله القديم بلا غاية ، والبقاى بلا نهاية ، الذى علا فى دُنُوهُ ، ودنا فى عُلُوِّهِ ،
فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يُمُوده^(٢) حِفْظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالِ
سبق ، بل أنشأ ابتداعا ، وعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتَمَّ مشيئته ،
وأوضح حكْمته ، فدل على أُلُوهِيَّته ، فسبحانه لَأَمْعَبُ^(٣) الحُكْمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لِعَظَمته ، وذلَّ كل شيء لسلطانهِ ، ووسَّع كل شيء فضله ، لا يعزُّب
عنه مثقالُ حَبَّة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلهًا تَقَدَّست
أسماءه ، وعَظُمَت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ،
فلا تَبْلُغه الأوهام ، ولا تُحِيط به العقول ولا الألبام ، يُعَصَى فيحلم ، وَيُدْعَى فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، وَيَغْفُو عن السيِّئَات ، وَيَعْلَم ما تَفْعَلون ، وأشهد شهادة حق ،
وقول صدق ، بإخلاصٍ نِيَّة ، وَحِجَّة طَوِيَّة ، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالسته^(٤)
وصَفِيَّه ، ابتعثه إلى خلقه بالبينَّة والهدى ودين الحق ، فبأنَّ مَأْلُكته^(٥) ، ونصح لأُمته ،
وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يَصُدُّه عنه زعم زاعم ، ماضيا
على سنته ، مُوفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصى الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلىن ، وأحد الأئمة المعكلمين ، وكان يلقب
بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بجهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة وعراها من حرف الرأ ، وأبدع فى القول :

فضل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلوات له الشكك

(والشكك بالضم : المطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ
منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصة لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم
اللام وتفتح : الرسالة .

أفضل وأزكى ، وأتم وأتمى ، وأجل وأعلى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضماة ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والجانبية لمعصيته ، وأحضكم على ما يذنبكم منه ، ويُرْزَلْكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تلهيْكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها ، وفوائد لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شئ منها يزول ، فكم عابتم من أعاجيبها ، ولم نصبْ لكم من حبالها ، وأهلكتم من جنح إليها ، واعتمد عليها إذا قهقروا خلوا ، ومزجت لهم سما ، أين الملوك الذين بنوا المداين ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملَكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمَحْمِلِها^(١) ، وطحنهم بكلْكِها^(٢) ، وعرضهم بأنبيائها ، وعاضتهم من السمّة ضيقاً ، ومن العِزّة ذلّاً ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحد ، وأكلمهم الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مَسّاً كِفَتَهُمْ ، ولا تجد إلا مَعَالِمَهُمْ ، ولا تحسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزودوا عاقاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تُفْلِحُونَ ، جللنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، ومن يستمع القولَ فيمتنعُ أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواظ المتقين ، كتاب الله ، الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نُتِلَ عليكم فأنصتوا له ، وأنسموا لعلكم تُفْلِحُونَ ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ثم قال :

(١) الحمل : شقان على البعير يحمل فيهما المنيلان ، والمراد أحوت عليهم .

(٢) الكلْكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحي المبين ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ، وَأَدْخَلْنَا وَإِيَّاكُمْ جَنَّاتِ النِّعَمِ .
(مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابذلوا نَدَاكُمْ ، وَكُفُّوا أَذَاكُمْ ،
وَاعْفُوا إِذَا قَدَّرْتُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سُئِلْتُمْ ، فَإِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَفَادَ حَدًّا ، أَوْ نَقَى ذِمًّا ،
وَلَا يَقْوَانِ أَحَدُكُمْ : ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، فَإِنَّمَا النَّاسُ عِيَالُ اللَّهِ ، قَدْ تَسَكَّلَ اللَّهُ
بَارِزَاتِهِمْ ، فَن وَسَّعَ أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ » .
(الأمال ٢ : ٣٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابنًا له يقال له محمد ، فقال :
« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلِعُ ، وَأَرَى مِنْ مَضَى لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ
فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ^(٢) ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَكُنْ
أَوَّلَى الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحُسْنُ النِّيَّةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكْرَ يَزِدُّ ،
وَالْتَقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحَطِيبَةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدُ
وَمَا لَا يَدُّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة اللبني ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على

الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . (٢) يشنقه .

ثم قال : أئى بُنَى ، لاتزهدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالْأَيَّامُ
ذات نَوَائِبَ ، على الشاهد وَالْغَائِبَ ، فكم من راغِبٍ أصبح مطلوباً مَالِدِيهِ ، واعلم
أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمانَ يَرِ المَوانَ ، وَكُنْ أئى بُنَى كما قال
أبو الأسود الدؤلى :

وَعُدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمةً عليك ، إذا ما جاءَ لَعْرِفِ طالبُ^(١)
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخَيْرُ عنده يَكُنْ مَيناً ثَقِلاً على مَنْ يصاحبُ
فلا تَمْنَعَنَّ ذا حاجَةٍ جاء طالباً فإنك لا تَدْرِي متى أنت راغِبُ
رأيتُ التَّوَا هذا الزمانَ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوائِبُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جَوَاداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جُود المرء الإنفاقُ فى وجهِ البرِّ ، وإن أحمدَ بُخْلُ الحرِّ الضَّنُّ^(٣)
بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التَّلاَدِ ، وإئنى بسرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَيْنُ^(٤)
إذا جاززَ الإِثْنَيْنِ سرّاً فإنه يَذْثُ ، وتَكْثِيرُ الحديثِ قَيْنُ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتنى مكانَ سَوْدَاءَ الْفَوَادِ مَسْكِينُ^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غُلِبْتَ يوماً على المال ، فلا تَدَعِ الحيلةَ على حال ، فإن
الكریم يحتال ، والدُّنَى عِيَالُ^(٧) ، وكن أحسنَ ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلَّ

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اوج .

(٣) الضمن بالكسر والضمانة بالفتح : البخل . (٤) سال يسال من باب خاف لغة فى سأل

المهموز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أفشاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الإثنيين للضرورة .

(٦) سوداء الفواد ؛ وسويداءه ، وسواده ، وأسوده : حبه . (٧) العيال جمع عيل كجيد :

وهو ما يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمته طبيعته ، وظهرت عند الإفناد^(١) نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدى^(٢) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالًا قَدْ تَمَعَّدُ مِنَ الْمَعَالَى^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَحْمِلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ الْغَنَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أُخْصُصْ بِجَفَوَاتِي الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حيالها^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْعَتِي شَتَمُ ابْنِ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مِنْ يَرْجِيئِي
وَكَلِمَةٍ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مُرِّي فَأَقْذِيئِي^(٦)
فَعَابُوهَا عَلَى وَلَمْ تَسُوْنِي وَلَمْ يَعْرِقْ لَهَا يَوْمًا جَبِيئِي
وَذَوُ الْأَوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا وَلَيْسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَا تَلِيئِي^(٧)
سَمِعْتُ بِمَعِينِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِيئِي

ثم قال : أى بنى ، لا نؤاخذ امرأ حتى تعاشره ، وتتهقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٨) ، فواخذه على إقالة العثرة ؛ والمواساة في العسرة ، وكن كما قال المقنع الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أُرِدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّعَ فِعَالُهُمْ وَتَفَقَّدَ

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد . (٤) الموالي جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قد حياله وبجباله : بإزائه ، أى إن تركتها تجري في مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتل : قصر ، أى لا يقصر في نهش عرضى . (٨) الخبر والخبرة بكسر الهمزة فيهما ، ويضمان : العلم بالشئ كالإختبار .

فَإِذَا ظَنَرْتِ بَذَى الْأَبَاةِ وَالْتَقَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) نَاشِدُ^(١)
 وَإِذَا رَأَيْتِ (وَلَا مَحَالَةَ) زَلَّةً فَعَلَى أَحْبَبِكَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَارْدُدِ
 ثُمَّ قَالَ : أَيْ بَنِي ، إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُشْطِطْ^(٢) ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ
 يُقَالُ : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بِبَغِضِكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضُ بَغِضِكَ
 هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا مَّا ، وَكَانَ قَالَ هُذَيْفَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيُّ :
 وَكَانَ مُنْقَلًا لِلْحِلْمِ وَاصْنَعَ عَنِ الْخُلْفَاءِ فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَيَّيْتَ وَسَامِعُ^(٣)
 وَأَحْبَبُ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ^(٤)
 وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
 وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَثَرَاءِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ، وَكَانَ كَمَا
 قَالَ الشَّاعِرُ :

أُحِبُّ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رَبُّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ
 وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَاتَمْتَ فَاشْتِمِ ذَا حَسَبِ
 إِنَّ مَنْ شَاتَمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ^(٥)
 وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ
 (الْأَمَالُ ٢ : ٢٠٤ ، وَالْبَيَانُ وَالتَّبَيُّنُ ٢ : ٥٧ ، ١٢٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كقرب مع الفتح في المضارع لبابة : أى صار ذا لب بانضم وهو العقل . (٢) شط في حكمه . وأشط : جاد . (٣) المقل : اللجأ ، والخنا : الفحش .
 (٤) نزح عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكمر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ أَسْمَاءَ بِنَ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هَذَا مِنْ الْحِجَابِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءُ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بُنَيَّةُ ، إِنْ الْأُمَمَاتِ يُودُّنَ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ أَمَّاكِ هَلَكْتُ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكِ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحَسَنِ السَّكْحَلِ ، وَإِيَّاكِ وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لَوْدٌ ، وَإِيَّاكِ وَالْغَيْبَةَ ، فَإِنَّهَا يَفْتَحُ الطَّلَاقُ ، وَكَوْنِي لَزَوْجِكَ أَمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي الْقَائِلُ لَأَمَّاكِ :

خَدِي الْعَفْوَ مَنِ تَسْتَدْبِرِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(٢)
وَلَا تَنْقُرِي نَقْرَةَ اللَّفْءِ مَرَّةً فَإِنَّكِ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحُبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ
(الْأَخْفَى ١٨ : ١٢٨ ، وَالْيَاسَنُ وَالْعَبِيدُ ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وَخَرَجَ الزُّهْرِيُّ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ، وَلَا سَمِعْتُ كَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، تَسْكُمُ بَيْنَ رَجُلٍ عِنْدَ هِشَامٍ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، فَبَيْنَ صَلَاحٍ مُلْكِكَ ، وَاسْتِقَامَةِ رِعْيَتِكَ . قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَقُومُ مِنْ نَفْسِكَ . إِنْجَازَهَا ، وَلَا يَفْرُغَنَّكَ الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ الْمُتَحَدِّرُ وَغَرًّا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جَزَاءٌ ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَقَعَاتٍ ، فَسَكُنْ طَى حَذَرٍ . »

قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا الحديث المهدي ، وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه ،

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها ، وقال : وَيَنْحَك ! أَعِدْ عَلَى ، فقلت : يا أمير المؤمنين أَسِخْ^(١) لقمتك ، فقال :
حديثك أعجبُ إليَّ .

(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ — وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكتاب بوصيهم فيها ، قال :
« أما بعدُ حَفِظْكُمْ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطْكُمْ وَنَقِّمْكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ ، فَإِنَّ
اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمَلَ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمَنْ بَعْدَ
الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ ،
وَضُرُوبِ الْمَحَاوِلَاتِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ ، فَجَعَلَكُمْ مِثْلَ مِثَرِ الْكِتَابِ
فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْعَمِّ وَالرَّوَايَةِ ، بِكُمْ تَنْظُمُ الْخِلَافَةِ مُحَاسِنُهَا ،
وَتُسْتَقِيمُ أُمُورُهَا ، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحَ اللهُ لِلخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ ، وَتَعْمُرُ بِلَادُهُمْ ، لَا يَسْتَعْنِي
الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا يُوَجِّدُ كَافِرًا إِلَّا مِنْكُمْ ، فَوْقَكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاءِهِمُ الَّتِي
بِهَا يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارُهُمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ ، وَأَسْمَتُهُمُ الَّتِي بِهَا يَنْطَقُونَ ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي
بِهَا يَبْتَطِشُونَ ، فَأَمْتَعَكُمْ اللهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا نَزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ^(٣)
مِنَ النِّعَةِ عَلَيْكُمْ .

وليس أحدٌ أحوَجَ إلى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ
الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكُتَّابُ ، إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ ، فَإِنَّ
الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَشِقُّ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ ، أَنْ
يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ ، فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ ، مُقَدِّمًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، مُجْتَمِعًا
فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ ، مُؤَثِّرًا لِلْعُقَافِ ، وَالْعَدْلَ وَالْإِنصَافَ ، كَقَوْمًا لِلْأَسْرَارِ ، وَفِيًّا عِنْدَ

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، قتلته السفاح سنة ١٣٢ هـ . (٣) أسبغ .

الشَّدَائِدُ ، علماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطَّوَارِقُ أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يُحْكَمْه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغيره عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدته وعَتَادَه ^(١) ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتدافسوا ، يا معشر الكتّاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها تقاف ^(٢) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطَّ ، فإنه حليَّة كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تصيِّعوا النظر في الحساب ، فإنه فِوَامُ كُتَّابِ الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيَّهَا ^(٣) ، ودَنِيَّهَا ، وسَفَسَافِ ^(٤) الأمور ومحقرها ، فإنها مدلَّة للرِّقَاب ، مَفْسَدَةٌ للكتّاب ، ونزَّهوا صناعتكم عن الدَّعَاة ، وأربثوا ^(٥) بأنفسكم عن السَّعَاية والنَّميمة ، وما فيه أهل الجَهَالَات ، وإياكم والكِبَر والصِّلَفَ والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابُّوا في الله عزَّ وجلَّ في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُّ بأهل الفضل والعدل والنَّيْل من سَلَفكم

وإن نَبَأَ الزمان برجل منكم فاعطِفوا عليه واسؤوه ، حتى يرجع إليهِ حاله ، ويثُوب ^(٦) إليهِ أمره ، وإن أقدم أحدكم الكِبَر عن مَكَّـبِهِ ولقاء إخوانه ، فزُوروه وعظِّموا وشارروه ، واستظهِروا ^(٧) بفضل تجربته ، وقَدِّم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليهِ ، أحفظَ منه على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ في الشُّغْل مَحْمَدَةٌ ، فلا يُضَيِّفها إلا إلى صاحبهِ ، وإن عَرَضَتْ مَدَمَةٌ ، فليحملها

(١) للمتاد : العدة . (٢) التقاف في الأصل : مانسوى به الرماح . (٣) ربيعها .

(٤) الردىء من كل شيء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّقطةَ والزَّلةَ ، والمَلَلُ عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاءِ ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحَّبه الرجل ، يَبْذُلُ له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجبٌ عليه أن يعتدَّ له من وقته ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحته ، وكنان سره ، وتدبير أمره ، ما هو حَزَا لا لحقه ، ويصدق ذلك بفعله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا إذا كنتم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة والحِرمان والمواساة والإحسان ، والسرَّاء والصرَّاء ، فنفعت الشَّيْمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجل منكم ، أو صيِّرَ إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثِّرَ طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، والمظلوم مُنصِفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبُّهم إليه أرقُّهم بعِياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِماً ، وللفقراء موقِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللمرعية مثاقفاً ، وعن إيذاهم متخفياً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سِجِلَات خراجِه واستقضاء حقوقه رَفيقاً ، وإذا صحَّبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلائفه ، فإذا عَرَفَ حَسَنها وقبيحها ، أعانها على ما يوافقها من الحَسَن ، واحتال لصرْفِه عما يهواه من القبيح ، بألف حيلة ، وأجل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس المهيمة إذا كان بصيراً بسرائرِها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً^(١) لم يَهْجُها إذا رَكِبها ، وإن كانت شَبُوباً^(٢) انتقاها من قَبْلِ يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقَّأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُونا قَمَعَ برفقِ هواها في طريقها ، فإن استمرَّت عطفها يسيراً ، فينسأس له قيادُها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتِه ، ولطيف حيلتِه ، ومعاملتِه لمن يحاوره

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أرلى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
 وده ، من سانس البهيمه التي لا تُحير^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
 إلا بقدر ما يُصَيِّرُها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر ،
 وأنعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتوه الفئوة ،
 والاستفقال والجفوة ، ويصير^(٢) منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ،
 إن شاء الله تعالى .

ولا يجازنَّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ، ومطعمه ،
 ومشربه ، وبنائه^(٣) وخدمه وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه ، فإنكم - مع ما فضلكم
 الله به من شرف صنعتكم - خدمة لا تحمّلون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة
 لا تحتمل منكم أعمال النضييع والتبذير ، واستعينوا على عفاءكم بالقصد في كل ما ذكرته
 لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
 يُمَقِّبان الفقر ، ويذِلّان الرقاب ، وَيَفْصَحَانِ أهلهما ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب
 الآداب ، وللأمر أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤانف^(٤) أعمالكم
 بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوخجها بحجة ، وأصدقها حجة
 وأحدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفة متفافة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ،
 فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
 وليأخذ بمجامع حُججه ، فإن ذلك مصلحة فعله ، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ؛ مجزوم في جواب الأمر ، أو بمباراة أخرى جواب لشرط محذوف مع
 فعل الشرط أي إن تعملوا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب
 والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .
 (٣) بنى على أمه ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَٰةٍ تَوْفِيقَهُ ، وَإِمَادَهُ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقَوْعَهُ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِهِ وَعَقْلُهُ وَأَدَبُهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ قَاتِلًا : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْلَلُ لِمَبْءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَاقِبَتِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحَبَتِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَحَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزَكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَدُّ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزِّهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ الْبَصِيحَةَ ^(١) يَلْزِمُهُ الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَمْتُهُ بِهِ ، تَوَلَّاهُ اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ ، بِمَا يَقْتَضِي بِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(صَبِيحُ الْأَمَشِيِّ ١ : ٨٥)

(١) فِي نَسْخَةٍ : « الصَّحَّة » ، وَذَكَرَ الْجَاهِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ (٢ : ٤٦) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ كَلَامِ الْأَحْتَفِ السَّائِرِ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نُبَاته ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نُبَاته ، وأهل الشام في عِدَّة لم ير الناس مثلاً ، فلدارآم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعدولهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسأط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون

(١) هو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصوراً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هارباً ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نُبَاته بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فأتى بها كذا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عِثْرَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسَلَطَكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشدَّ عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد إلى الإمام^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرمكم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهضْ عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرُك ، فإذا ظَهَرَتْ عليهم ، فأنْخِزْ في القتل » فالتقوا في مستَهْل ذِي الْحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ — خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، وللعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالتقوا بجِد واحتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يطلبه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحميمة (كجھينة) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حران ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأدخل لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكنم أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على أبي العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبويع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبئت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرّف أنبئت بقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الفوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حَدَثتِ سِنَتُهُ ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحِمَى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طَباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نَحْلَسُ منه كما نَحْلَسُ الذهب من خَبَثِهِ ، أو الثوب من دَرَنِهِ ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموص : غسل لين ولذلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حدا الله في الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه . » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فاتهمه أبو بكره - أخو زياد - هو ونفر معه بأنه زنى بأُم جيل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكره ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى إلا امرأته ، وكان اليهود عليه : أبا بكره ، وشبل بن معبد البجل ، ونافع بن كلفة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكره ، فشهد عليه أنه زنى بأُم جيل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فنهاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفى من الأعباء فقال : أسكت ، أسكت الله نامتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجعتك بأحبارك .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة له في عهد خلافته	١٧	١٢
» أخرى له	١٨	١٣
مخاصمة ومهاجاة	١٩	
بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية		
مقال عمرو بن العاص	٢١	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	٢١	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	٢٢	١٦
» المغيرة بن شعبة	٢٢	١٧
رد الحسن بن عليّ عليهم	٢٢	١٨
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	٣١	١٩
مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه		
تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٣٥	٢٠
بعثة مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكرى	٣٧	٢١
» النعمان بن بشير	٣٧	٢٢
» عبيد الله بن زياد	٣٨	٢٣
» أخرى له	٣٩	٢٤
» كثير بن شهاب	٣٩	٢٥
» عبيد الله بن زياد	٤٠	٢٦

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة

نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
« أبى بكر بن عبد الرحمن المخزومى اه	٢٨	٤٤
خطبة عبيد الله بن زياد	٢٩	٤٥
« للحسين رضى الله عنه	٣٠	٤٦
« أخرى له	٣١	٤٦
« » »	٣٢	٤٧
« زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
« للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
« أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
« زهير بن القين	٤٢	٥٤
« الحر بن يزيد	٤٣	٥٦

طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه

خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٤	٥٨
خطبة رفاعه بن شداد	٤٥	٥٩
« سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
« خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
« سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٨	٦٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي	٦٢	٤٩
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٦٣	٥٠
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٦٥	٥١
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٦٦	٥٢
رد المسيب بن نجبة .	٦٦	٥٣
رد عبد الله بن وال التيمي	٦٧	٥٤
خطبة سليمان بن صرد	٦٨	٥٥
» صخير بن حذيفة بن هلال	٦٨	٥٦
ما أشار به عبد الله بن سعد	٦٨	٥٧
رأى ابن صرد	٦٩	٥٨
خطبة عبد الله بن يزيد	٧٠	٥٩
» سليمان بن صرد	٧٠	٦٠
» أخرى له	٧١	٦١
» »	٧٢	٦٢
» عبد الملك بن مروان	٧٣	٦٣
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين رضي الله عنه	٧٤	
خطبته حين قدم الكوفة	٧٤	٦٤
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٧٥	٦٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٧٦	٦٦
رد السائب بن مالك	٧٧	٦٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٧٨	٦٨
» أخرى له	٧٨	٦٩
» محمد بن الحنفية	٧٩	٧٠
» المختار	٧٩	٧١

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
<hr/>		
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام -	٩٠	٨٢
عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
» ابن عباس	٩٥	٨٥
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
» ابن عباس	٩٦	٨٧
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لبني هاشم	٩٧	٨٨
» ابن عباس	٩٧	٨٩

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
د ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان	٩٣	١٠٠

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبة	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
» » عباس	١١٥	١٢٠
<hr/>		
خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
» ابن الزبير يتنقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٤٦	١٣٠
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٤٨	١٣١
» » » وعبد الله بن عباس	١٥٠	١٣٢
» » » ورجل من بني فزارة	١٥٤	١٣٣
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٥٥	١٣٤
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٥٦	١٣٥
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٥٧	١٣٦

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٥٩	١٣٧
» معاوية	١٥٩	١٣٨
» ابن الزبير	١٦٠	١٣٩
» معاوية	١٦٢	١٤٠

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٦٤	١٤١
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٦٥	١٤٢
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٦٨	١٤٣
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٦٩	١٤٤
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٧٣	١٤٥
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٧٤	١٤٦
» لما بلغه قتل مصعب	١٧٥	١٤٧
خطبة أخرى له	١٧٧	١٤٨
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٧٧	١٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٧٨	١٥٠
خطبته يوم قتله	١٧٩	١٥١
خطبة أخرى	١٨٠	١٥٢
مصعب بن الزبير »	١٨١	١٥٣

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٨٢	١٥٤
خطبة أخرى له بالمدينة	١٨٣	١٥٥
» له بالمدينة	١٨٣	١٥٦
خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة	١٨٤	١٥٧
خطبة له فى يوم صائف	١٨٥	١٥٨
آخر خطبة له	١٨٥	١٥٩
خطبته وقد حضرته الوفاء	١٨٥	١٦٠
وصيته لابنه يزيد	١٨٧	١٦١

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٨٩	١٦٢
خطبة أخرى له	١٨٩	١٦٣
» معاوية بن يزيد	١٩٠	١٦٤
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٩١	١٦٥

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٩٢	١٦٦
------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له موجزة	١٦٧	١٩٢
خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص	١٦٨	١٩٣
» لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٦٩	١٩٤
» عام حجه	١٧٠	١٩٥
» وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٧١	١٩٦
وصيته لبعض أمرائه	١٧٢	١٩٧
» للشعبي	١٧٣	١٩٧
» لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٧٤	١٩٨
» لولده عند وفاته	١٧٥	١٩٨
<hr/>		
خطبة للوليد بن عبد الملك	١٧٦	١٩٩
» لسليمان بن عبد الملك	١٧٧	٢٠٠
 خطب عمر بن عبد العزيز		
أولى خطبه	١٧٨	٢٠١
خطبة له بالمدينة	١٧٩	٢٠١
خطبة أخرى	١٨٠	٢٠٢
خطبة أخرى	١٨١	٢٠٣
» »	١٨٢	٢٠٤
» »	١٨٣	٢٠٤
» »	١٨٤	٢٠٥
» »	١٨٥	٢٠٥
» له يوم عيد	١٨٦	٢٠٦
» أخرى	١٨٧	٢٠٦
» »	١٨٨	٢٠٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	١٨٩	٢٠٧
» »	١٩٠	٢٠٨
» »	١٩١	٢٠٨
» »	١٩٢	٢٠٨
» »	١٩٣	٢٠٩
» »	١٩٤	٢١٠
» »	١٩٥	٢١٠
» »	١٩٦	٢١١
آخر خطبة له	١٩٧	٢١١
نص آخر	١٩٨	٢١٢
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٩	٢١٣
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	٢٠٠	٢١٤
تأيينه ابنه عبد الملك	٢٠١	٢١٧
<hr/>		
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	٢٠٢	٢١٨
وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاء	٢٠٣	٢١٩
<hr/>		
خطب عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٤	٢٢٠
» » في تقريرهم وتهدهم	٢٠٥	٢٢١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٦	٢٢١
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢٠٧	٢٢٢
» فيهم إذ طعنوا على الولاية	٢٠٨	٢٢٢
» بمكة	٢٠٩	٢٢٣
» في علقته التي مات فيها	٢١٠	٢٢٤
وصيته لمؤدب ولده	٢١١	٢٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وصية سعيد بن العاص لبنه	٢١٢	٢٢٥
خطب عمرو بن سعيد الأشدق		
خطبة له بالمدينة	٢١٣	٢٢٨
» » بمكة	٢١٤	٢٢٩
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٥	٢٣٠
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٦	٢٣١
<hr/>		
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٧	٢٣٢
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢١٨	٢٣٣
نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٢١٩	٢٣٤
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢٠	٢٣٤
كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه	٢٢١	٢٣٤
تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله	٢٢٢	٢٣٥
طلب معاوية البيعة ليزيد		
خطبة الضحاك بن قيس الفهري	٢٢٣	٢٣٧
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	» ٢٢٤	٢٣٨
ثور بن معن السلمى	» ٢٢٥	٢٣٩
عبد الله بن عصام الأشعري	» ٢٢٦	٢٤٠
عبد الله بن مسعدة الفزاري	» ٢٢٧	٢٤٠
عمرو بن سعيد الأشدق	» ٢٢٨	٢٤١
الأحنف بن قيس	» ٢٢٩	٢٤٢
الضحاك بن قيس	» ٢٣٠	٢٤٢
الأحنف بن قيس	» ٢٣١	٢٤٣
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	» ٢٣٢	٢٤٤

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

خطبة معاوية	٢٣٣	٢٤٤
يزيد بن المقنع »	٢٣٤	٢٤٥
الأحنف »	٢٣٥	٢٤٥
معاوية »	٢٣٦	٢٤٦
عبد الله بن عباس »	٢٣٧	٢٤٧
عبد الله بن جعفر »	٢٣٨	٢٤٧
عبد الله بن الزبير »	٢٢٩	٢٤٨
عبد الله بن عمر »	٢٤٠	٢٤٨
معاوية »	٢٤١	٢٤٩
مروان بن الحكم »	٢٤٢	٢٥٠
معاوية »	٢٤٣	٢٥١
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٤٤	٢٥١
خطبة معاوية	٢٤٥	٢٥٣
الحسين »	٢٤٦	٢٥٥
معاوية »	٢٤٧	٢٥٧
عبد الله بن عمر »	٢٤٨	٢٥٧
معاوية »	٢٤٩	٢٥٨
عبد الله بن الزبير »	٢٥٠	٢٦٠
معاوية »	٢٥١	٢٦١

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٥٢	٢٦٣
عطاء بن أبي سفيان الثقفى »	٢٥٣	٢٦٤
عبد الله بن مازن »	٢٥٤	٢٦٤
غيلان بن مسلمة الثقفى »	٢٥٥	٢٦٥

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهده	٢٥٦	٢٦٦
وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	» ٢٥٧	٢٦٧
وقد استلحقه معاوية	» ٢٥٨	٢٦٩
حين ولى البصرة (وهى البتراء)	» ٢٥٩	٢٧٠
بالكوفة وقد ضمت إليه	» ٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
» »	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاه عملا	٢٦٦	٢٧٧
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
» عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبى صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٧
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

٢٨٨	٢٧٦	خطبته حين ولي العراق
٢٩١	٢٧٧	» وقد سمع تكييزاً في السوق
٢٩٢	٢٧٨	» وقد قدم البصرة
٢٩٣	٢٧٩	» بعد وقعة دير الجماجم
٢٩٥	٢٨٠	خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام
٢٩٥	٢٨١	» له بالبصرة
٢٩٦	٢٨٢	» أخرى له بالبصرة
٢٩٧	٢٨٣	خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية
٢٩٧	٢٨٤	خطبة أخرى
٢٩٨	٢٨٥	خطبته لما مات عبد الملك بن مروان
٢٩٨	٢٨٦	» حين أُرلد الحج
٢٩٩	٢٨٧	» لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد
٣٠٠	٢٨٨	» وقد أُرجف أهل العراق بموته
٣٠١	٢٨٩	خطبة له في الوعظ
٣٠٢	٢٩٠	» أخرى
٣٠٢	٢٩١	» »
٣٠٣	٢٩٢	» »
٣٠٣	٢٩٣	» »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي

٣٠٤	٢٩٤	خطبته يحث على الجهاد وقد تهاى لغزو طخارستان
٣٠٥	٢٩٥	» وقد تهاى لغزو بلاد السغد
٣٩٦	٣٩٦	» وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة
٣٠٧	٢٩٧	» حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك
٣١٠	٢٩٨	خطبة أخرى

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

خطبة أخرى ٢٩٩ ٣١٠

» » ٣٠٠ ٣١١

كلمات حكيمة لقنينة بن مسلم ٣٠١ ٣١٢

خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس ٣٠٢ ٣١٤

نص آخر لخطبة طارق ٣٠٣ ٣١٦

خطبة عثمان بن حيان المرقى ٣٠٤ ٣١٦

وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد ٣٠٥ ٣١٨

نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بني ٣٠٦ ٣٢٠

خطب خالد بن عبد الله القسرى

خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة ٣٠٧ ٣٢١

خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد ٣٠٨ ٣٢٢

خطبته بمكة في الحجاج ٣٠٩ ٣٢٢

» في الحث على مكارم الأخلاق ٣١٠ ٣٢٣

» يوم عيد ٣١١ ٣٢٤

قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه ٣١٢ ٣٢٤

خطبة يوسف بن عمر الثقفى ٣١٣ ٣٢٤

خطبة له ٣١٤ ٣٢٥

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصارى ٣١٥ ٣٢٦

» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام ٣١٦ ٣٢٧

» مسلم يحرضهم ٣١٧ ٣٢٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة ابن حنظلة يمحرض أصحابه	٣٢٨	٣١٨

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣٢٩	٣١٩
» أخرى له	٣٣٠	٣٢٠
» عمرو بن حريث	٣٣١	٣٢١
» عمرو بن مسمع	٣٣١	٣٢٢
خطبة الأحنف بن قيس	٣٣٢	٣٢٣
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣٣٤	٣٢٤
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣٣٦	٣٢٥

خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٣٧	٣٣٦
خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة	٣٣٨	٣٢٧
» » »	٣٣٨	٣٢٨
خطبة سعيد بن المجالد	٣٣٩	٣٢٩

فتنة ابن الأشعث

خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٤٠	٣٣٠
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٤٠	٣٣١
خطبة عامر بن وائلة السكتاني	٣٤١	٣٣٢
» عبد المؤمن بن شيث بن ربيع	٣٤٢	٣٣٣
» ابن الأشعث بالمربد	٣٤٢	٣٣٤
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٤٣	٣٣٥
عامر الشعبي والحجاج	٣٤٤	٣٣٦
أيوب بن القرية والحجاج	٣٤٤	٣٣٧
كلمة لابن القرية	٣٤٨	٣٣٨

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

فقنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد »	٣٤٠	٣٥٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبدالعزيز »	٣٤١	٣٥٠
يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال »	٣٤٢	٣٥٢
أخرى له »	٣٤٣	٣٥٣
» » »	٣٤٤	٣٥٤
الحسن البصري يشبط الناس عن يزيد بن المهلب »	٣٤٥	٣٥٤
مروان بن المهلب »	٣٤٦	٣٥٥

خطب الأحنف بن قيس التميمي

الأحنف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
» » أيضاً	٣٤٨	٣٥٧
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحنف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المنقرية تؤي بن الأحنف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء
الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة زياد	٣٦٤	٣٥٧
» معاوية	٣٦٥	٣٥٨
» الأحنف بن قيس	٣٦٥	٣٥٩
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٥	٣٦٠
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦٩	٣٦١
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٩	٣٦٢
وفود العرب ومعاوية	٣٧١	٣٦٣
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٧٢	٣٦٤
» زيد بن منية على معاوية	٣٧٣	٣٦٥
» ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية	٣٧٤	٣٦٦

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٧٥	٣٦٧
» أم سنان بنت خيثمة على معاوية	٣٧٨	٣٦٨
» بكارة الهلالية على معاوية	٣٨٠	٣٦٩
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٨١	٣٧٠
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٨٤	٣٧١
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٨٥	٣٧٢

شداد بن أوس ومعاوية	٣٨٧	٣٧٣
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٨٨	٣٧٤
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان	٣٨٩	٣٧٥
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٩٠	٣٧٦
حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٩١	٣٧٧
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٩٢	٣٧٨

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مصقلة بن هيرة ومعاوية	٣٩٣	٣٧٩
روح بن زنباع ومعاوية	٣٩٣	٣٨٠
مخاضمة أبي الأسود الدؤلى وامرأته بين يدى زياد بن أبيه	٣٩٤	٣٨١
صورة أخرى	٣٩٥	٣٨٢
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٩٨	٣٨٣
كلام خطيب الأزدي بين يدى عبد الملك بن مروان	٣٩٨	٣٨٤
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٩٩	٣٨٥
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٩٩	٣٨٦
قدوم الحجاج مع أشراف المصريين على عبد الملك	٤٠٢	٣٨٧
وفود ممالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٤٠٣	٣٨٨
» كعب الأشقرى على الحجاج	٤٠٤	٣٨٩
سليمان بن سلعة والحجاج	٤٠٥	٣٩٠
جامع المحاربى والحجاج	٤٠٦	٣٩١
ليلي الأخيلى والحجاج	٤٠٧	٣٩٢
الغضبان بن القبيص والحجاج	٤١٢	٣٩٣
ابن القرية يعدد مساوى المزاح	٤١٤	٣٩٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٤١٥	٣٩٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٤١٦	٣٩٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٤١٧	٣٩٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٤١٨	٣٩٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٤١٩	٣٩٩
خالد بن صفوان يغزى عمر بن عبد العزيز ويهنته	٤٢٠	٤٠٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٢٠	٤٠١
مقام محمد بن كعب القرظى بين يدى عمر بن عبد العزيز	٤٢٢	٤٠٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٢٢	٤٠٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٢٤	٤٠٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٢٦	٤٠٥
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٢٧	٤٠٦
خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٢٨	٤٠٧
مخاصمة عدى بن أرطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٣٢	٤٠٨
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٣٣	٤٠٩
خطبة دينار	٤٣٤	٤١٠
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤٣٤	٤١١
خطب الخوارج وما يتصل بها	٤٣٥	
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٣٥	٤١٢
اثمار الخوارج	٤٣٧	
مقال المستورد بن علفة	٤٣٧	٤١٣
حيان بن ظبيان »	٤٣٧	٤١٤
معاذ بن جوين »	٤٣٨	٤١٥
خطبة المغيرة بن شعبة	٤٣٨	٤١٦
صعصعة بن صوحان »	٤٣٩	٤١٧
المستورد بن علفة »	٤٤١	٤١٨
معقل بن قيس الرياحي »	٤٤٢	٤١٩
كلمات حكيمة للمستورد	٤٤٢	٤٢٠
اثمار الخوارج ثانية	٤٤٣	
خطبة حيان بن ظبيان	٤٤٣	٤٢١
معاذ بن جوين »	٤٤٣	٤٢٢

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد حيان بن ظبيان	٤٤٤	٤٢٣
مقال عتريس بن عرقوب	٤٤٤	٤٢٤
رد حيان	٤٤٥	٤٢٥
خطبة حيان	٤٤٥	٤٢٦
مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤٤٦	٤٢٧
خطب للملب بن أبي صفرة	٢٤٨	
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٤٨	٤٢٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٤٩	٤٢٩
نص آخر	٤٤٩	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٥٠	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٥١	٤٣٢
عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار	٤٥٢	٤٣٣
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٥٣	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٥٤	٤٣٥
عبد ربه الصغير	٤٥٨	٤٣٦
صالح بن مسرح	٤٥٩	٤٣٧
أخرى له	٤٦٠	٤٣٨
»	٤٦١	٤٣٩
زائدة بن قدامة	٤٦٢	٤٤٠
الحجاج بن يوسف	٤٦٢	٤٤١
أخرى للحجاج	٤٦٣	٤٤٢
شبيب بن يزيد الشيباني	٤٦٣	٤٤٣
عتاب بن ورقاء	٤٦٤	٤٤٤
الحجاج	٤٦٤	٤٤٥

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى	٤٦٥	٤٤٦

خطب أبى حمزة الشارى

خطبته حين دخل المدينة	٤٤٧	٤٦٧
خطبة أخرى له	٤٤٨	٤٦٨
خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٤٩	٤٦٩
خطبة أخرى	٤٥٠	٤٧٦
خطبته فى سب أهل المدينة وتقريعهم	٤٥١	٤٧٨
خطبة أخرى	٤٥٢	٤٨٠
خطبته حين خرج من المدينة	٤٥٣	٤٨١
عمران بن خطان والحجاج	٤٥٤	٤٨١

الخطب الوعظية والوصايا

خطبة سحبان بن زفر الوائلى	٤٥٥	٤٨٢
» معاوية	٤٥٦	٤٨٣
» عبد الملك بن مروان	٤٥٧	٤٨٣
» لعمر بن عبد العزيز	٤٥٨	٤٨٤

كلام الحسن البصرى

خطبة له	٤٥٩	٤٨٥
» أخرى	٤٦٠	٤٨٧
» »	٤٦١	٤٨٨
» »	٤٦٢	٤٨٨
» »	٤٦٣	٤٨٩
» »	٤٦٤	٤٨٩
» »	٤٦٥	٤٩٠

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٩٠	٤٦٦	خطبة أخرى
٤٩١	٤٦٧	مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة
٤٩٢	٤٦٨	مقام الحسن البصري عند النضر بن عمرو
٤٩٣	٤٦٩	مقام آخر له عند النضر
٤٩٤	٤٧٠	مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط
٤٩٥	٤٧١	صفة الإمام العادل
٤٩٧	٤٧٢	موعظته لعمر بن عبد العزيز
٤٩٨	٤٧٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٩٩	٤٧٤	كلمات حكيمة للحسن البصري
٥٠١	٤٧٥	خطبة واصل بن عطاء
٥٠٣	٤٧٦	وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية
٥٠٣	٤٧٧	» عبد الله بن شداد لابنه
٥٠٧	٤٧٨	» أسماء بن خارجة لابنته
٥٠٧	٤٧٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٥٠٨	٤٨٠	وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٥٠٩	٤٨١	خطبة قحطبة بن شبيب الطائي
٥١٠	٤٨٢	» أخرى له

استدراك على الجزء الأول

٥١١	٤٨٣	خطبة السيدة عائشة حين أنبثت بقتل عثمان
-----	-----	--

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع اتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	إبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤	إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القرية : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمى : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع المحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ -	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

الحر بن يزيد : ٥٦

الحسن البصرى : ٤٨٥ — ٤٨٧

٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١

٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧

٤٩٨ — ٤٩٩

الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦

١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧

١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠

الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥

٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١

٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥

حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣

٤٤٤ — ٤٤٥

(خ)

خالد بن سعد بن نفيل : ٦١

خالد بن صفوان : ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠

٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧

خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣

خالد بن عبد الله القسرى : ٣٢١ —

٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤

خالد بن يزيد : ٢٣٢

الخيار بن أوفى النهدي : ٣٩٠

(د)

دارمية الحجونية : ٣٨٥

دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩

دينار : ٤٣٤

(ذ)

ذكوان : ١٥٩

(ر)

رفاعة بن شداد : ٥٩

روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣

(ز)

زائدة بن قدامة : ٤٦٢

الزبير بن علي : ٤٥١

زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤

زياد بن أبيه : ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩

٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤

زيد بن منية : ٣٧٣

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :

١٣٦

(س)

السائب بن مالك : ٧٧

سحبان بن زفر : ٤٨٢

سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢

سعيد بن العاص : ٢٢٥

سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٩٢

سعيد بن المجالد : ٣٣٩

سليك بن السلسكة : ٤٠٥

سليمان بن صرد : ١٥ — ٦٠ — ٦٨

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢

سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠

سودة بنت عمارة : ٣٧٥

(ش)

شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣

عبد العزيز بن زرار : ٣٧٢
 عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠
 عبد الله بن الأهم : ٤٢٠
 عبد الله بن جعفر : ١٢٧ - ٢٤٧
 عبد الله بن الحنظل : ٦٢
 عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ٣٢٦ - ٣٢٨
 عبد الله بن الزبير : ١١٤ - ١١٩
 ١٢٣ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥
 ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٤
 ١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
 ١٨٠ - ٢٤٨ - ٢٦٠
 عبد الله بن سعد : ٦٨
 عبد الله بن شداد : ٥٠٣
 عبد الله بن عباس : ٤٢ - ٩١ - ٩٥
 ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢
 ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧
 ١٠٩ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤
 ١٢٠ - ١٢٥ - ٢٤٧
 عبد الله بن عبد الحاجر : ٣٨٩
 عبد الله بن عصام : ٢٤٠
 عبد الله بن عمر : ٢٤٨ - ٢٥٧
 عبد الله بن الكواء : ١٤٦
 عبد الله بن مازن : ٢٦٤
 عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠
 عبد الله بن مطيع : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣

شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧
 شريح القاضي : ٤٣٣
 (ص)
 صالح بن مسرح : ٤٥٩ - ٤٦١
 صخير بن حذيفة بن هلال : ٦٨
 صعصعة بن صوحان : ١٤٦ - ١٤٨
 ١٥٠ - ١٥٤ - ٣٦٩ - ٤٣٩
 صفية بنت هشام المنقرية : ٣٦١
 (ض)
 الضحاك بن قيس : ٢٣٧ - ٢٤٢
 ٢٧٨ - ٢٧٩
 ضرار بن حمزة الصدائي : ٣٧٤
 (ط)
 طارق بن زياد : ٣١٤ - ٣١٦
 (ع)
 السيدة عائشة رضي الله عنها : ٥١١
 عابس بن أبي شبيب : ٣٧
 عامر الشعبي : ٣٤٤
 عامر بن وائلة الكناني : ٣٤١
 عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨
 عبد ربه الصغير : ٤٥٨
 عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١
 عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦
 عبد الرحمن بن شريح : ٧٨
 عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ - ٢٤٤
 عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ - ٣٤٢
 ٣٤٣ - ٣٤٢

عمر بن عبد العزيز : ٢٠١ - ٢٠٢ -
 ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ -
 ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ -
 ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -
 ٢١٧ - ٤٨٤

عمر بن هيرة : ٣٢٠
 عمرو بن حريث : ٣٣١
 عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٢٨ - ٢٢٩ -
 ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١
 عمرو بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢ -
 ١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥
 عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٤٣٣
 عمرو بن مسمع : ٣٣١
 عمران بن حطان : ٤٨١
 (غ)

الغضبان بن القبعثري : ٣٣٧ - ٤١٢
 غيلان بن مسلمة الثقفي : ٢٦٥
 (ق)
 قتبية بن مسلم : ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ -
 ٣٠٧ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢
 قحطبة بن شبيب الطائي : ٥٠٩ - ٥١٠
 قطري بن الفجاءة : ٤٥٤
 قيس بن سعد بن عباد : ١٤٦
 (ك)
 كثير بن شهاب : ٣٩
 كعب بن معدان الأشقري : ٤٠٤

عبد الله بن هاشم : ١٤٠ - ١٤٥
 عبد الله بن همام السلولى : ٢٦٣
 عبد الله بن وال التيمي : ٦٧
 عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥
 عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٦٥ - ٧٠
 عبد المؤمن بن شبت بن ربيعي : ٣٤٢
 عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢ -
 ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -
 ١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣ -
 ٥٠٣

عبيد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩ -
 ٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩
 عبيد الله بن عبد الله المري : ٦٣
 عتاب بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤
 عتبة بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠ -
 ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٦٤
 عتريس بن عرقوب : ٤٤٤
 عثمان بن حيان المري : ٣١٦
 العجاج بن رؤبة : ٣٩٩
 عدى بن حاتم : ٩
 عدى بن أرطاة : ٤٣٢
 عرابة بن أوس بن حارثة : ٣٩١
 عرهم العدوي : ٤٥٣
 عطاء بن أبي سفيان : ٢٦٤
 عقيل بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦
 عمر بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ -

٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -

٢٦١ - ٣٨٢ - ٣٦٥ - ٣٧١ -

٣٨٨ - ٤٨٣

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠

(ى)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤

يزيد بن المقنع : ٢٤٥

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤

يزيد بن الوليد : ٢١٨

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥

تم فهرس أعلام الخطباء

الكثير بن زيد الأسدي : ٤٢٨

(ل)

ليلي الأخيلية : ٤٠٧

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣

محمد الباقر : ١٥٧

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠

محمد بن عبيد بن عطار : ٤٠١

محمد بن كعب القرظي : ٤٢٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠

مروان بن الحكم : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠

مروان بن المهلب : ٣٥٥

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ١٤٤ - ٤٤٢

مسلم بن عبيس : ٤٤٦

مسلم بن عقبة : ٣٢٧

المسيب بن نجبة : ٥٨ - ٦٦

مصعب بن الزبير : ١٨١

مصقلة بن هيرة : ٢٩٣

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -